# هل نولد عنصريين؟

## إضاءات جديدة من علم الأعصاب وعلم النفس الإيجابي

تحرير: جيسون مارش، رودولفو مِندوزا دينتون، جيرمي آدم سميث

ترجمة: جهاد الشبيني

تقديم ومراجعة: د. نادر كاظم






إهداء لـ ..

Maybe

مكتبة | سُر مَن قرأ

# هل نولد عنصريين؟

تليجرام

# هنا سور الازبكية
# غواص في بحر الكتب
# باحثون

محمد خطاب


تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 6-23-723-9921-978

الطبعة الأولى - سبتمبر/ أيلول - 2020

2000 نسخة








الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

publishing@takweenkw.com


takweenkw

www.takweenkw.com

@takweenKw

# هل نولد عنصريين؟

(إضاءات جديدة من علم الأعصاب وعلم النَّفس الإيجابي)



تحرير

**جيسون مارش، ورودولفو مِندوزا دينتون، وجيرمي آدم سميث**

ترجمة

**جهاد الشبيني**

تقديم ومراجعة

**د. نادر كاظم**








# المحتويات

القسم الثاني
التغلُّب على التحيُّز

## القسم الثالث
## تقويةُ مجتمعِنا متعدِّدِ الأعراق


تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب

# تصدير

# هل العنصرية داخل أدمغتنا أم خارجها؟

## بقلم الدكتور: نادر كاظم



«البربري هو من يؤمن بوجود البربرية»

كلود ليفي شتراوس

١

قبل بضع سنوات، شاركت في ندوة في البحرين عن «معوِّقات التعايش». بعد انتهاء مداخلاتنا كمنتدين جاءت فقرة أسئلة الجمهور ومداخلاتهم، ووصل الدور إلى شابَّة بحرينية يافعة طرحت مداخلة مؤداها: «إن التعايش مستحيل لأن البشر عنصريون بطبعهم، وأنا قرأت في كتاب بعنوان: «Are We Born Racist?» أن البشر يولدون عنصريين!» كان الوقت المتاح للتعليق على أسئلة الجمهور ضيِّقًا، فبقيت هذه المداخلة بلا ردّ، لكنها بقيت تتردَّد في ذهني بعد ذلك لأني كنت وقتها قد قرأت هذا الكتاب، وأعرف جيِّدًا أن الكتاب لا يدافع عن ذلك إطلاقًا، بل على الضدِّ،

هو يدافع عن التسامح والتعايش وتقبُّل الآخر، وأن أدمغة البشر مرنة على نحوٍ يسمح بتغيير الآراء والأفكار والصور النمطية والتوجُّهات المتجذِّرة فينا على مدى سنوات طويلة من التشكيل والقولبة والتنشئة الاجتماعية. كانت مداخلة الشابَّة قد أجابت على السؤال الذي يطرحه عنوان هذا الكتاب بـ«نعم»، هكذا بكل بساطة، في حين أن المسألة أكثر تعقيدًا من ذلك.

أذكر، كذلك، أن أكثر سؤال كان يطرح عليَّ بتكرارٍ بعد نشر كتابي «تمثيلات الآخر: صور السود في المتخيَّل العربي الوسيط» في العام ٢٠٠٤، هو هذا: «إذا كان الغرب عنصريًّا تجاه السود، والعرب عنصريين تجاه السود، ومعظم شعوب الأرض عنصريين تجاه السود، ألا يعني هذا أن هذه هي طبيعة السود؟» ينطوي هذا السؤال على المعنى ذاته في مداخلة الشابَّة البحرينية، وهو أن العنصرية تجاه السود عنصرية طبيعية، ولكن بدل أن يكون المتهم في هذه العنصرية أدمغتنا البشرية (كما في مداخلة الشابة)، صارت طبيعة السود هي المتَّهَمة هذه المرة، أي إن السود أقلُّ ذكاءً من البيض، وهم أقرب إلى «الحيوانية» من كل شعوب الأرض الأخرى، وهذا يعني أن عنصريتنا تجاههم عنصرية مبرَّرة، أي إننا لا نفتري عليهم حين نصفهم -ونتعامل معهم على هذا الأساس- على أنهم أدنى منا في كل شيء إيجابي. وهذا ضرب من التنميط ينسحب حتى على النساء وعلى كثير من الأقليات، إذ يمكن لهؤلاء أن يجادلوا، خطأً، بأنه إذا كانت النساء خاضعات للرجال في معظم المجتمعات البشرية، ألا يعني هذا أن الذكورية الأبوية، وما تجرُّه وراءها من أفكارٍ حول

تفوُّق الرجل وسيادته ودونية المرأة وخضوعها، مسألة طبيعية؟ والحقيقة أن هؤلاء لا ينتبهون إلى أن المجتمعات التي كوَّنت صورًا نمطية سلبية تجاه السود هي ذاتها المجتمعات التي كانت ذات نزعة إمبريالية توسُّعية (فتح وغزو واستعمار واحتلال...)، وهي ذاتها المجتمعات التي عرفت مؤسسات العبودية سيئة السمعة.

تشترك هاتان المقاربتان في شيء واحد، وهو أن العنصرية مبرَّرة، سواء بحكم طبيعة السود أو بحكم التصميم الداخلي لأدمغتنا. إلا أن هذه عنصرية مُذنِبة في حقيقة الأمر، أي عنصرية تشعر بالذنب وتأنيب الضمير؛ لأن العنصريَّ الحقيقي لن يشغل باله بتبرير عنصريته أصلًا، أما العنصريُّ الذي يبحث عن تبرير عنصريته فهو يبحث عن راحة البال من تأنيب الضمير الذي تسبِّبه العنصرية بما هي ضرب من ضروب نزع الإنسانية عن فئة ما من البشر. بيد أنه في الحالتين سيكون المضي قدمًا من أجل نزع الحجاب عن أعين العنصريين، الحقيقيين والمذنبين، ليروا عنصريتهم هذه المرة على حقيقتها، لا طبيعة السود أو غيرهم، ولا التصميم الداخلي لأدمغتنا «العنصرية».

إن العنصرية تجاه الأقليات من أي لون أو دين كانت مسألة اعتيادية جدًّا في مجتمعات توسُّعية وتتاجر بالعبيد من أي لون ودين كانوا. إن المجتمعات التي استعبدت الشعوب السلافية الصهباء ما زالت إلى اليوم تسمي العبد باسمٍ مشتقٍّ من اسم هذه الشعوب: «السلافي» «slave»، تمامًا كبعض الشعوب العربية التي ما زالت إلى اليوم تسمي «الأسود» «عبدًا». إلا أن هذه المجتمعات لا تمثِّل

البشرية بأكلمها، بل إنها لا تمثِّل حتى نصف سكان البشرية حتى نقول إن البشرية كلها تحمل نظرة دونية تجاه هذا الشعب أو ذاك. ومن يقول بذلك يستثني عمدًا كامل شعوب القارة الإفريقية، وسكان الصين والهند وأغلب شعوب آسيا، وشعوب أمريكا اللاتينية، وسكان أستراليا الأصليين... إلخ. ومع هذا، فإن الهدف الأساسي، في هذا النوع من الأطاريح، هو تبرير العنصرية، وإضفاء قدر من المشروعية على هذه الممارسة والنظرة اللاإنسانية. وعادة ما تسير حجة هذا التبرير المتهالك كالتالي: إذا كانت معظم الحضارات الإنسانية الكبيرة تمتلك نظرة عنصرية تجاه السود، ألا يعني هذا أن العنصرية مسألة طبيعية؟ الجواب بالنفي بكل بساطة، لا لأن الحجة برمتها مؤسَّسة على جملة مغالطات؛ لأنه ليس معظم الحضارات عنصرية تجاه السود أولًا، ولأن وجهة نظر السود تجاه الآخرين ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار ثانيًا، أقول إن الجوب بالنفي لا لهذا السبب أو ذاك، بل لأن أحدًا لا يملك حتى الآن الحق في أن يقول لنا إنَّ هذه النظرة طبيعية وذاك المنظور غير طبيعي.

وهذا إشكال كلاسيكي في الفلسفة والأخلاق والأنثروبولوجيا، وهو إشكال لا بد من حسمه لأنه يأتي في سياق الرغبة في الوصول إلى تعميمات عن ما يُسمَّى «الطبيعة البشرية». وقبل أن يدخل علم الأعصاب على الخطِّ، كان فلاسفة، وفلاسفة سياسيون وأخلاقيون وأنثروبولوجيون كثيرون قد أدلوا بدلوهم في هذا المسألة. تساءل هؤلاء مطوَّلًا: هل يولد الإنسان وعقله صفحة بيضاء؟ هل يولد الإنسان وفي دماغه أفكار أوَّلية وفطرية، وأنه لا يحتاج إلى تعلُّمها

واكتسابها من مجتمعه ولا بالتجربة؟ هل نعرف أن (١+١=٢) بالفطرة؟ هل الأخلاق والتميز بين الخير والشرِّ مسألة فطرية؟ هل هناك دين فطري؟ هل هناك ممارسات بشرية طبيعية لا تحتاج إلى تعلُّم واكتساب؟ هل الزواج التعددي طبيعي عند البشر؟ هناك كمٌّ هائل من الإجابات على هذه الأسئلة طوال التاريخ الفلسفي والأخلاقي والأنثروبولوجي، إلا أن أحدًا لم يكن يمتلك الدليل الحاسم الذي ينهي هذا الجدل الطويل بين من يقول: «نعم»، ومن يقول: «لا». وبدا أن البيولوجيا وعلم الأعصاب يمكن أن يقدِّما لنا مِثل هذا الدليل، فإذا ثبت أن ثمة مناطق في أدمغتنا أو جينات ما مسؤولة عن هذا التصرُّف أو تلك الطريقة في التفكير، أليس معنى هذا أننا مصمَّمون ومبرمجون على ذلك؟

كان الشغل الشاغل لأنثروبولوجيي أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين هو ما يسمى «الكليات البشرية»، أي المعتقدات والتصرُّفات والعادات التي توجد لدى كل البشر. ولمعرفة هذه «الكليات البشرية»، سيكون علينا أن نكتشف الحدَّ الفاصل بين الطبيعة والثقافة، أو بين ما ينتمي إلى طبيعتنا البشرية وبرمجتنا البيولوجية، وبين ما ينتمي إلى ثقافتنا التي اخترعناها كنوعٍ من الأنواع الحيَّة يمتاز بالذكاء والتطوُّر. وبتعبيرٍ آخر، كيف يمكن التمييز بين التصرُّف الطبيعي والتصرُّف المكتسب والمبنيِّ أو المُكيَّف اجتماعيًّا؟ بالنسبة إلى برينسلاو مالينوفسكي -أحد أبرز الأنثروبولوجيين الوظيفيين في تاريخ الأنثروبولوجيا البريطانية خلال النصف الأول من القرن العشرين- فإن الإنسان

يختلف عن الحيوان في حالته الطبيعية بشيء اسمه «الثقافة» أي إنه يمتاز عن الحيوان لكونه «يمتلك مجموعة من الأدوات والأسلحة والمعدَّات المنزلية، ويعيش في وسط اجتماعي، ويتواصل مع الآخرين باللغة، ولديه القدرة على صياغة مفاهيم عقلية ودينية». ويسمي مالينوفسكي كل هذا باسم «المجموعات الثقافية الأربع الكبرى» أو «المقولات الثقافية الرئيسية»، وهي تشمل: المخترعات المادية، واللغة، والنظام الاجتماعي، ومنظومة المفاهيم العقلية والقيم الروحية. وتعتبر هذه المجموعات الأربع الكبرى (أو الثقافة بتعبير آخر) هي الحدَّ الفاصل بين الإنسان والحيوان، وبين الثقافة والطبيعة بحسب مالينوفسكي؛ لأن كل الحيوانات تفتقر إلى هذه المقولات، وكل شعوب العالم تمتلكها بدرجة أو بأخرى.

ونحن ندين إلى الأنثروبولوجي الفرنسي الكبير كلود ليفي شتراوس بأفضل صياغة قدِّمت عن هذا الحدِّ الفاصل. فبالنسبة إلى شتراوس فإن الحدَّ الفاصل بين ما هو طبيعي (فطري) وما هو ثقافي (مكتسب) ينبغي أن يكون كونيًّا، أي شاملًا بحيث ينسحب على كل أفراد النوع البشري، وفي المقابل، فإن «كل ما هو خاضع لقاعدة ما ينتمي إلى الثقافة، ويمثِّل ما هو نسبي وخصوصي»، ولهذا فهو يتنوَّع من مجتمع إلى آخر. كان شتراوس يعتقد أن «تحريم سِفاح المحارِم» يمثِّل النقطة التي تلتقي عندها الطبيعة بالثقافة، فالتحريم قاعدة (أي إنها صياغة بشرية)، ولكنها قاعدة كونية موجودة، كما كان شتراوس يعتقد - في أيِّ تجمُّع بشري. ثم كرَّس شتراوس اهتمامه، فيما بعد، على اللغة؛ على أساس أن اللغة هي الحدُّ الفاصل بين الطبيعة

والثقافة. إن اللغة مكتسبة عند البشر (بدليل أنك إذا تركت رضيعًا خارج المجتمع البشري، لنقل إنه تُرِكَ في غابة مع الحيوانات، فإنه لن يتعلَّم أيًا من اللغات البشرية)، ومع هذا فإن كل البشر يمتلكون لغة خاصة بهم مهما كانت سماتها ودرجة تعقيدها. يختلف الأمر مع اللباس -على سبيل المثال- فاللباس لا يصلح لأن يكون حدًّا فاصلًا من هذا النوع؛ لأن بعض الشعوب البشرية -كانت تسمى «بدائية» في يوم ما- كانت عارية ولم تخترع شيئًا اسمه «اللباس». وبالنسبة إلى شتراوس، فإن الأدوات أيضًا لا تصلح لأن تكون حدًّا فاصلًا لأن بعض الحيوانات قادرة على صنع أدوات أوَّليَّة وبسيطة.

ويبدو أن بعض الشكوك أخذت تراود شتراوس عند هذه النقطة، فإذا كانت بعض الحيوانات مثل الشِّمبانزي تمتلك القدرة على صنع أدوات بسيطة (مثل تركيب غصنين من شجرة معًا للوصول إلى موزة في مكان مرتفع)، فإن كل الحيوانات تمتلك نظام تواصل بسيط خاصًّا بها، أي لغة خاصة بها. الأمر الذي يعني أن اللغة بما هي نظام تواصل ليست هي الحدَّ الفاصل مهما كانت درجة تعقيد لغتنا البشرية قياسًا بلغة الحيوانات الأوَّلية والبسيطة (المشفَّرة بالرائحة أو اللون أو بالتصويت أو غيرها). اعترف شتراوس، في النهاية، بأن هذا الحدَّ الذي يمثِّل اللحظة الفاصلة لانبثاق الثقافة البشرية سيظل «لغزًا بالنسبة إلى الإنسان»، وهو لغز من اختراع الإنسان نفسه، إلا أن حلَّ هذا اللغز يكمن في «تحديد المستوى البيولوجي الذي حدثت فيه تحولات في بنية ووظيفة الدماغ»، بمعنى أن الثقافة هي نتاج تغيُّرات بيولوجية وفسيولوجية وتشريحية

حدثت في أدمغتنا، وأن حلَّ هذا اللغز مرهون بتقدُّم البيولوجيا التطورية لأدمغتنا البشرية، أو علم الأعصاب كما يسمَّى اليوم.

## ٢

تدور مقالات هذا الكتاب حول هذا العلم الأخير تحديدًا، الذي راهن شتراوس على قدرته على حلِّ هذا اللغز، أي على بيولوجيا الدماغ أو علم الأعصاب. كان أمل الأنثروبولوجيين الأوائل أنهم سيجدون هذا الحدَّ الفاصل بين ما هو طبيعي فينا وما هو ثقافي مكتسب عند المجتمعات «البدائية» الصغيرة والمعزولة وسط الغابات الكثيفة أو في الجزر المبعثرة في المحيطات. إلا أن ما اكتشفوه هو أن هذه المجتمعات كانت تمتلك ثقافة لا تختلف عن ثقافة المجتمعات «المتحضرة» إلا في درجة التعقيد. أين إذن يمكن أن نجد حلَّ هذا اللغز؟ وبدل المجتمعات التي تمثِّل «طفولة النوع البشري»، لماذا لا نبحث عن الحلِّ لدى الأطفال حديثي الولادة؟ إذا تمكَّن الباحثون من عزل الأطفال عن بيئتهم الاجتماعية فور ولادتهم، فيمكنهم عندئذ أن يقرؤوا أدمغتهم كـ«صفحة بيضاء» من أية كتابة اجتماعية مكتسبة، وعندئذٍ يمكنهم معرفة ما هو فطريٌّ فيهم (وفي البشر) بعد عزل ما هو مكتسب ومتعلَّم من التنشئة. لكن السؤال هو من سيجازف ويترك طفله في أيدي هذا النوع من الباحثين المهووسين؟ بالتأكيد لا أحد. ولكن ألا يمكن لعلم أن يتطوَّر بحيث يتمكَّن من قراءة صناديق أدمغتنا البشرية السوداء دون الحاجة إلى الذهاب بعيدًا إلى المجتمعات «البدائية» أو عزل الأطفال عن أسرهم؟

هنا يأتي دور علم الأعصاب. وفي تاريخ علم الأعصاب يُشار عادة إلى ريادة بول بروكا، طبيب الأعصاب الفرنسي، الذي اكتشف في العام ١٨٦١ أن مريضًا كان يعاني من فقدان تدريجي للقدرة على الكلام إلا أنه ما زال يفهم الكلام، ليكتشف بعد وفاة المريض وتشريح دماغه أنه تعرَّض لإصابة في منطقة الفصِّ الأمامي الأيسر التي صارت تسمى «منطقة بروكا» Broca's area المعنية بإنتاج الكلام (يقول العلماء الآن إنها أيضًا مسؤولة جزئيًّا عن استيعاب الكلام). لاحقًا اكتشف عالم أعصاب ألماني اسمه كارل فيرنيك (في العام ١٨٧٤) أن هناك منطقة أخرى إلى الخلف قليلًا من «منطقة بروكا» مسؤولة عن فهم الكلام، وصارت تسمى «منطقة فيرنيك» Wernicke's area. إذا صحَّ فعلًا أن هذه المناطق في الأدمغة البشرية هي المسؤولة عن اللغة إنتاجًا وفهمًا، فإن الخطوة الثانية الحاسمة هي أن نعرف متى وجدت أو متى نشطت هاتان المنطقتان في أدمغة أسلافنا البعيدين. وهنا يأتي دور الأنثروبولوجيا الطبيعية أو البيولوجية، وتحديدًا ذلك الفرع المعني بالتاريخ التطوري لأدمغتنا في السجلات الأحفورية. فإذا وجدنا دليلًا يقول بأن هذه المناطق الدماغية وجدت في جماجم الإنسان العاقل قبل ١٠٠ ألف عام، فإننا نكون قد اقتربنا من الإجابة على سؤال مهم: متى ظهرت اللغة عند البشر؟ نوام تشومسكي كان يدافع عن أن اللغة البشرية ظهرت قبل ١٠٠ ألف عام، في حين يصعد بعض العلماء بالرقم إلى ٥ مليون عام، وأخيرًا، وتحديدًا في إبريل ٢٠٢٠، توصَّل فريق من العلماء الأوروبيين والأمريكيين في بحث اشتركت فيه مراكز بحثية

مرموقة عالميًا وشملت جامعة نيوكاسل ومعهد ماكس بلانك لعلوم الدماغ والإدراك، ونشرت نتائجه في مجلة Nature Neuroscience، توصَّل هذا الفريق إلى أن بدايات اللغة البشرية تعود إلى زمن أبعد بكثير من ١٠٠ ألف أو ٥ مليون عام، لأن جذورها تعود إلى أكثر من ٢٠ مليون عام!

هل يمكن لهذا أن يحسم الموضوع؟ ماذا لو ظهر بحث علمي جديد يقول إنها تعود إلى ٥٠ ألف سنة فقط؟ يبدو أن الطريق أمام حسم هذه القضايا ما زال طويلًا. والآن، وإذا كان هذا هو الحال في دراسة أصل اللغة وهي جزء من جهاز بيولوجي بشري صرنا نعرف الآن المناطق الدماغية المسؤولة عنه، فكيف سيكون الحال في دراسة أصل التصورات والتوجُّهات والمواقف والمنظورات الفكرية مثل العنصرية؟ هل يمكن أن يصل العلم إلى حقيقة علمية حول أصل هذه الأشياء؟ ولأن هذه الموضوعات معقَّدة والسجلات الأحفورية لجماجمنا البشرية لا تقدِّم أدنى مساعدة في هذا الشأن، فإن العلم اتجه إلى منطقة أخرى، وهي البيولوجيا الوراثية والجينات، وإلى العمليات الذهنية والوجدانية التلقائيَّة أي ما نتصوَّره وننفعل وجدانيًا به على نحوٍ فوري ودون تأمُّل أو تحكُّم أو تفكير طويل. وعلى هذا أصبحت الأسئلة هي: هل ثمة جينات مسؤولة عن ارتفاع مستوى ذكاء هذا الشعب أو ذاك؟ هل نحن عنصريون على نحو تلقائيٍّ؟ هل نمتلك تحيُّزات عنصرية تلقائيَّة؟ وهل أدمغتنا كبشرٍ مصمَّمة بحيث نكون عنصريين تلقائيين؟ وهل يمكننا عمل شيء تجاه هذه العنصرية التلقائية؟ وهذه الأسئلة

الأخيرة هي صلب هذا الكتاب. وهو كتاب سلس ومباشر ولا يحتاج إلى تقديم أصلًا. ولكن عليَّ أن أوضِّح بعض النقاط:

أولًا: على الرغم من التقدُّم الهائل في علم الأعصاب، فإن الطريق أمام علم الأعصاب المعرفي ما زال طويلًا. إذا كان علم الأعصاب التشريحي قد خطا خطوات كبيرة في معرفة التركيب التشريحي للدماغ، أجزاؤه وخلاياه العصبية والروابط والعصبونات والنواقل العصبية، فإن معرفة معنى وطبيعة وبرمجة العمليات الذهنية والوجدانية الجارية في داخل «صندوق الدماغ الأسود» وداخل «قلعة العقل الحصينة» ما زالت في بدايتها، وما زالت المختبرات العلمية تعتمد على الأقطاب الكهربية، والضغط على الأزرار عند ظهور صور معينة على الشاشة، وأقصى ما توصَّلت إليه هو أجهزة التصوير بالرنين المغناطيسي. وهذه كلها تقنيات لا تسمح للباحث سوى بالمراقبة الخارجية لما يجري في الداخل. تسمح أجهزة التصوير بالرنين المغناطيسي بتصوير المناطق المضيئة في الدماغ نتيجة ازدياد تدفُّق الدم فيها، الأمر الذي يعني ازدياد النشاط في هذه المناطق. إلا أن هذه معرفة سطحية شبَّهها أستاذ اللسانيات غاي دويتشر في كتابه «عبر منظار اللغة» (٢٠١٠)، بأنها أشبه ما تكون بشخص يريد معرفة طريقة عمل مؤسسة ما، إلا أنه لم يتمكَّن من دخول مبنى المؤسَّسة ولا مقابلة المديرين والموظفين، فاكتفى بمراقبة المؤسَّسة من خارج المبنى. نعم، سيعرف متى أضيئت هذه الغرفة أو تلك، ومتى شهد الطابق العاشر أو العشرين نشاطًا ملحوظًا، إلا أن هذا الشخص لن يعرف أكثر من هذه المعلومات، ولن يتمكَّن

من امتلاك معرفة حقيقية بالمؤسَّسة ما لم يسمح له بدخول المبنى، والاطلاع على الملفات، والاستماع إلى المديرين والموظفين.

ثانيًا: هل بإمكان علم الأعصاب المعرفي أن يقدِّم الجواب النهائي الحاسم عن هذا اللغز الأخطر: هل نحن عنصريون بطبعنا؟ أو هل نولد عنصريين؟ سيتكفَّل هذا الكتاب بتبيان حجم التعقيد في الجواب عن مثل هذا السؤال، وسيطَّلِع القارئ على خلاصة مئات الأبحاث العلمية حول هذه المسألة، والتي تصبُّ معظمها في هذه النتيجة: ربما تكون أدمغتنا مصمَّمة هكذا (مع ضرورة الانتباه إلى أن هذه الأبحاث أجريت على مبحوثين أمريكيين بيض وسود وملوَّنين، أي في مجتمع لا يخلو من عنصرية تاريخية)، إلا أن هذا ليس كل شيء؛ لأن الأبحاث تثبت أيضًا أننا نمتلك أدمغة مرنة وقابلة للتغيير. توصَّلت كثير من الأبحاث المعروضة، في هذا الكتاب، إلى أن التحيزات العنصرية متجذِّرة في مناطق دماغية كانت قد نشأت في وقت مبكر من مراحل تطورنا كبشر، إلا أنها توصَّلت أيضًا إلى أن قشرتنا الدماغية حديثة التطوُّر تعمل على تنظيم دوافعنا التلقائية، وتساعدنا على تحقيق أهدافنا، مثل: التعامل بإنصاف مع الأشخاص الذين ينتمون إلى أعراق وإثنيَّات مختلفة عنا. والأهم، أن هذه الأبحاث ستعيد تذكيرنا بأن العنصرية لا تبدأ ولا تنتهي في الدماغ، بل في الخارج، في البنى والترتيبات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تعيد إنتاج التمايزات بين البشر (نحن وهم)، وتدفع بكثير من المتعصِّبين إلى اختزال وجود البشر الأفراد من لحم ودم ومشاعر وكرامة ومعرفة إلى كياناتهم الجماعية الكبرى

كأعراق وإثنيات وطوائف وجماعات دينية وأنواع اجتماعية (رجال ونساء) وطبقات وجهويات... إلخ، بحيث يكون التعامل مع الفرد على أنه نسخة مصغَّرة من هذه الكيانات الجماعية المنمَّطة. والمفارقة هنا أن وجود هذه الكيانات الجماعية يعتمد على تحويلنا كأفراد إلى تروس -مجرد تروس- في آلاتها الضخمة، إلا أن علينا، في المقابل، أن نتلقَّى كامل الضربات التي ستنهال على رؤوسنا باسم هذه الكيانات، وكامل الشرور التي تتولَّد أصلًا عن هذه الكيانات الجماعية (بما إننا مجرد نسخ مصغَّرة ومستنسخة) من العنصرية إلى الطائفية إلى الأبوية الذكورية إلى التعصُّب الطبقي والمناطقي والقومي (الشوفيني).

ثالثًا: على الرغم من أهمية هذه الأبحاث، فإنها عادة ما ترتكز على نوعين من المغالطات: «المغالطة البيولوجية»، و«المغالطة الطبيعية»، أي الافتراض بأن كل ما له أصل بيولوجي وكل ما يحدث في الطبيعة فهو جيِّد وينبغي أن يسود بين الجميع، أو ينبغي أن نعتمده كعيار للتفضيل بين الناس. إن الجيِّد (أو الخيِّر) مقولة أخلاقية، بينما تدخل مسألة اعتماد معيار معيَّن كأساس للتفضيل بين الناس في صميم مجالات تنظيم المجتمعات وتسيير الدول، وهذه مجالات تختلف عن البيولوجيا (تصميم أجسامنا وبرمجة أدمغتنا). إذا كانت أجسامنا مصمَّمة بطريقة معينة، وأدمغتنا مبرمجة بطريقة محدَّدة، فهذا شيء ينبغي أن نأخذه بعين الاعتبار، لكن الأخلاق وتنظيم المجتمعات وتسيير الدول شيء آخر تمامًا. بل عادة ما يكون مجال الأخلاق (أو ما ينبغي أن يكون) على الطرف النقيض

من البرمجة البيولوجية لأجسامنا وأدمغتنا (أو ما هو كائن فينا). قد تكون ثمة جينات مسؤولة عن مستويات الذكاء عندنا، وبالتأكيد يوجد أفراد أكثر ذكاءً من غيرهم، لكن هذه حقيقة بيولوجية (أو عقلية) لا تحدِّد بالضرورة ما هو جيد (خير) وما هو سيئ (شر). نعم، يمكن أن نوافق على أن هذه الحقيقة تعني أن هذا الشخص ذا الذكاء المرتفع يصلح أكثر من غيره ليتخصَّص في الرياضيات، وهنا قد يصبح من المقبول أن تكون اختبارات الذكاء شرطًا أساسيًّا في قبول طلبة الجامعات في مجال الرياضيات، إلا أن هذا لا يعني أن على الدولة -على سبيل المثال- أن تضمن لهذا الشخص الذكيِّ أن يتزوج ليتكاثر في حين ينبغي حرمان الأشخاص الأقل ذكاءً من الزواج والتكاثر (تحسين النسل اليوجيني). وقد يوجد شخص ورث جينات تمنحه طولًا أكثر من المتوسِّط (يصلح ليكون لاعب كرة سلة أو طائرة)، أو جينات تجعله سريع الركض (يصلح ليكون عدَّاء في المسافات الطويلة)، أو جينات تمنحه طلاقة لغوية استثنائية (يصلح ليكون خطيبًا مفوَّهًا) إلا أن هذا لا يترتَّب عليه حقٌّ ما، فوراثة هذه الجينات لا تعني أن يكون لك أفضلية أمام القانون، ولا أفضلية عامة على حساب الآخرين (وهذا يختلف عن كون المجتمع يمنح هذا أو ذاك مكانة اجتماعية رفيعة أو دنيئة)، كما أن جيناتك الثمينة لا تعني أن لك الحق في قتل أي شخص يعترض طريقك مهما كان غبيًّا أو قصيرًا أو بطيئًا أو وضيعًا. وفي هذا السياق، هناك الكثير من الجدل دار وما زال يدور حول أن أجسام الرجال مصمَّمة للتعدد الجنسي (الاقتران بأكثر من امرأة)،

في حين أن أجسام النساء مصمَّمة للتوحُّد الجنسي (الاقتران بشريك واحد)، أو أن بعض الرجال (أو النساء) يمتلكون جينات معينة تجعلهم شهوانيين على نحوٍ مَرَضي. ولكن، هل يعني هذا أن على جميع الدول والمجتمعات في العالم أن تسمح بالزواج المتعدِّد أو بالتحرُّر الجنسي للرجال على حساب النساء؟ وهل معنى هذا أن الخيانة الزوجية ينبغي أن تكون مقبولة ومبرَّرة إذا جاءت من الرجال على خلاف النساء؟ وهل هذا يعني أن من حقِّ الرجال الشهوانيين (والنساء الشهوانيات) أن يغتصبوا من يشاؤون ومتى يشاؤون؟ والجدل ذاته تقريبًا يدور حول الموقف القانوني والأخلاقي من الزواج المثليّ والنشاط الجنسيّ المثليّ إذا ثبت أن له أصلًا بيولوجيًا.

إن الحقائق البيولوجية شيء، والقيم والحقوق الإنسانية شيء آخر. وإذا كانت أدمغتنا مصمَّمة بطريقة ما، فإنها مصمَّمة، كذلك، لتكون مرنة وقابلة للتغير والتعلُّم حتى من مجال القيم والحقوق التي ربما لم يكن لها أصل بيولوجي في أدمغة صمِّمت لتتحكَّم وتحفظ حيوات بشر عاشوا في جماعات صغيرة ومعزولة وبائسة وترتعب من كل ما يهدِّد حياتها وسط غابات السافانا من الثعابين إلى البشر الآخرين المختلفين عنهم في ألوانهم أو أشكال أنوفهم وشعورهم. ربما كانت حقوق الإنسان مجرد نظام متخيَّل اخترعته جماعة متفوِّقة من البشر في العصر الحديث، إلا أن هذا النظام المتخيَّل صار مُلزِمًا للجميع، وصار على أدمغتنا -كما على دولنا ومجتمعاتنا- أن تتكيَّف معه، وتتعلَّم منه الكثير، تتعلَّم منه أننا نوع واحد في الأصل (هذه

واحدة من أهم الحقائق البيولوجية التي عادة ما ننساها ولا نعيرها اهتمامًا)، وأننا متساوون، وأن مصيرنا مشترك.

# ملاحظة المحرِّرين

«هل نولد عنصريين؟» ليس كتابًا أكاديميًّا، مع ذلك فإنَّ معظم المقالات الواردة في هذا العمل مُستَنِدة إلى دراسات علمية خضعت للتحكيم ومراجعة الزملاء ونُشِرت خلال السنوات العشر الأخيرة. ولأن المحرِّرين فضَّلوا عدم إضافة حواشٍ ختامية، فإنَّ المهتمين من القُرَّاء يمكنهم البحث عن المصادر والدراسات المُختارة (كثير منها متاحٌ بشكل مجانيٍّ على الإنترنت) المذكورة في نهاية الفصول التي كتبها عُلماء بُغية فهم الاكتشافات والمنهجيات التي هي جوهر هذه المساهمات.

# القسم الأول

# سيكولوجية جديدة للعنصرية

# مُقدمة المحرِّرين

في العام ٢٠٠٧، توصَّل الخبيران الاقتصاديان جوزيف برايس وجاستن وولفرز إلى أن الحكَّام التابعين للرابطة الوطنية لكرة السلَّة أكثر ميلًا إلى إصدار أحكام تقضي بارتكاب اللاعبين المنتمين إلى أعراق مختلفة عن عرقهم أخطاءً قانونية. بيد أن ما توصَّل إليه برايس ووولفرز قد لاقى رفضًا شديدًا وسط الرابطة، إذ شدَّد رود ثورن، نائب رئيس عمليات كرة السلة بالاتحاد سابقًا: «أنا لا أصدِّق الأمر»، بينما عقَّبَ مايك جيمز، أحدُ اللاعبين المخضرمين: «إن كان هذا الأمر يحدث، فهناك حاجة إلى التعامل معه... لكنني لم أرَ هذا الأمر قطُّ».

يُقدِّم جيمز وجهة نظر سديدة، وهي أن تمييز مثل هذه الأدلة الإحصائية بالعين المجرَّدة عادةً ما يكون شديد الصعوبة في كثير من الأحيان، ومن ثَمَّ يكون هناك ميل تُجاه نبذ هذه البيانات على اعتبار أنها مجرد مصادفة. بيد أن المقصد مما تم التوصُّل إليه ليس في أنه يمثِّل الألعاب الفردية أو المُحكَّمين الفرديين أو اللاعبين الفرديين،

بل إنه يمثِّل التوجُّهات الثابتة المُلَخِّصة لسلوك العديد من الأفراد، وسط عدد ضخم من الأخطاء القانونية التي يتم إصدارها، وهي في هذه الحالة تزيد على نصف مليون خلال ١٣ موسمًا احترافيًّا. في العام ٢٠٠٧، انتهى تحليل مشابه كان قد تم إجراؤه على بيانات متعلِّقة بدوري كرة البيسبول إلى نتيجة مشابهة على نحو مدهش، وهي أن احتمالية تعامل الحَكَم مع الهجمة على أنها ضربة يتزايد إذا كان مُرسلُ الكرة من العرق نفسه، وقد شملت قاعدة البيانات تلك ما يزيد على مليون ضربة على مدار موسمين، ومن ثَمَّ يصبح عزو الأمر إلى الصدفة أمرًا صعبًا.

وتُعنى هذه الدراسات بما هو أكثر من التسديدات وإصدار أحكام بارتكاب أخطاء قانونية، ذلك أنها معنية بالطبيعة التي تتسم بها العنصرية في يومنا هذا، فهي غير ملحوظة، ومنتشرة، ومستمرة. وتُرغِمُنا الدراسات على التفكير في بعض الأسئلة المزعجة: إن كان الحُكام المُدربون تدريبًا احترافيًّا على تفادي الانحياز لا يزالون عرضة للعنصرية، فماذا بقي لنا من أمل؟ هل العنصرية متجذِّرة في النفس البشرية بعمق أكبر مما نودُّ أن نعترف به؟ هل حقًّا نولد عنصريين؟

تلك هي الأسئلة التي تمنح هذا الكتاب الحياة، وهي الأسئلة التي تسوق أحدث الأبحاث إلى مصادر التحيُّزات ونتائجها. يضم «هل نولد عنصريين؟» مقالات من مجلة «جريتر جود» (www.greatergoodmag.org)، وهي مجلة صادرة عن مركز «جريتر جود ساينس» بجامعة كاليفورنيا في «بيركلي» تُعنى بما تخلص إليه

الاكتشافات العلمية الحديثة عن طبيعة التحيُّزات وكيفية التغلُّب عليها، ذلك أننا نولِي عناية خاصة بالتحيُّزات القائمة على العِرق، على الرغم من أن معظم الأبحاث الواردة في هذه المختارات تسري أيضًا على التحيُّزات المبنية على صفات أخرى تشمل السِّن والنَّوع والدِّين والمَيل الجنسي.

يجمع «هل نولد عنصريين؟» بين الكُتَّاب والعلماء من أجل مساعدتنا على فهم العلم الناشئ المعني بالتحيُّزات العنصرية، إذ تتضمن هذه الدراسات نتائج -توصَّل إليها علم الأعصاب- تكشف عن الآليات الدماغية وراء ردود أفعالنا تُجاه الأشخاص المنتمين إلى أعراق مختلفة، فضلًا عمَّا خلص إليه علم النفس الإيجابي من نتائج تبرز دوافعنا المتساوية في قوتها وراء التعاطف والشفقة والعدالة. وعلى الرغم من أن هذه المسارات البحثية ربما تبدو غير متوافقة في بداية الأمر، فإن نظرةً فاحصة تكشف عن وجود تأثير متبادل ومتشابك ومدهش بين التعصُّب ومبدأ المساواة. وهو ما يمنحنا سببًا لاستكمال المعركة ضد العنصرية. ووفقًا لما تطرحه إسهامات سوزان فيسك وكريم جونسون وديفيد آموديو، فإن علم الأعصاب قد خلص إلى أن التحيزات العنصرية متجذِّرة في مناطق دماغية كانت قد نشأت في وقت مبكر من مراحل تطور الإنسان، وأن هذا لا يزال يتحكَّم في غرائزنا إلى اليوم. بيد أن الدراسة قد توصَّلت أيضًا إلى أن قشرة الدماغ -التي تطورت تطورًا كبيرًا حديثًا- تعمل على تنظيم دوافعنا التلقائية، وتساعدنا على تحقيق أهدافنا مثل: تناول شريحة واحدة فقط من كعكة الشوكولاتة،

أو وضع خطة بالطريقة الأفضل لطلب زيادة الراتب، أو التعامل بإنصاف مع الأشخاص المختلفين عنا.

وإذا كان علم الأعصاب يقدِّم لنا أدوات فهم أدمغتنا، فإن علم النفس الإيجابي يكشف عن الطاقات الإنسانية التي يمكن الاستفادة منها لبناء مجتمع متعدد الثقافات على نحو أصيل. ومن خلال مزج أحدث الأبحاث في هذه الميادين الفرعية ودمجها، يطرح «هل نولد عنصريين؟» زاوية جديدة لنقاشات عملية معنية بالتميز وعدم المساواة. ولطالما لعب العلم دورًا خاصًّا في تشكيل مواقفنا وسلوكياتنا تُجاه من ينتمون إلى أعراق أخرى، لكنه للأسف لم يكن دورًا إيجابيًّا على الدوام، إذ بدءًا من قياسات محيط الرأس، ومرورًا بعلم تحسين النسل، ووصولًا إلى مناقشات حول توزيعات معدلات الذكاء، فإن العلم كثيرًا ما يُسهم ويدعم التمييز. والآن، أصبح الوقت مواتيًا لتجنيد أحدث الأبحاث العملية في الحرب ضد العنصرية.

وبالطبع، يجب أن تبقى هذه الحرب متعددة الأوجه؛ لأن العنصرية لا تبدأ وتنتهي في الدماغ. والأمثلة على حالات العنصرية ذات الطابع الهيكلي في كل مكان من حولنا. إن شركاتِ السجائر ومُصنِّعي الكحوليات يجعلون الأحياء التي يغلب عليها الدخل المنخفض وأصحاب البشرة السوداء هدفًا للَّوحات الإعلانية والمتاجر، بينما يُمَثَّل أصحابُ المنازل من الأقليات تمثيلًا زائدًا في سوق القروض العقارية ذات الفائدة المرتفعة، في حين لا تزال هناك تفاوتات عرقية ضخمة في جودة التعليم الذي يتلقاه الطلاب،

وكذلك في مستويات النجاح التي يصلون إليها. ومن الواضح أن نطاق هذه الأوجه المُنظَّمة من عدم المساواة يتسع لِما هو أكثر من الحالات الفردية للتعصُّب، لكنها على الرغم من ذلك باقية ومستمرة من خلال قرارات الأفراد وأفعالهم. وتركِّز المقالات الواردة في هذا الكتاب على السيكولوجية الكامنة وراء التعصُّب، أي على الأفعال الفردية والتفاعلات الشخصية -مثلما وصفها الكثيرون بأنها أخطاء قانونية وهجمات- التي تصبح مثل كرة ثلج تتشكّل تدريجيًّا وبقوة لتصبح نماذج لا لبس فيها من العنصرية.

على شاكلة المُحَكَّمين ومسؤولي الرابطة الوطنية لكرة السلة، عادة ما يقاوم الناس الفكرة القائلة باحتمالية ممارستهم التعصُّب. وكثيرًا ما تستند مقاومتهم إلى الافتراض المبدئي بأن التعصُّب والعنصرية إما أن يكونا صفتين موجودتين بشكل مطلق، وإما أن يكونا غير موجودين على الإطلاق، أي إن الفرد إما أن يكون عنصريًّا أو لا يكون. بيد أن هذا الافتراض لا يدع مجالًا للاحتمالية القائلة بأن الفرد من الممكن أن يتبنَّى بصدق أهدافًا تدعم مبدأ المساواة، وأن يكون عرضة لممارسة العنصرية في الوقت نفسه. عُد بالذاكرة إلى الاعتراف الذي أدلى به جيسي جاكسون خلال لقاء أجراه في العام ١٩٩٣: «في هذه المرحلة من حياتي، لا يوجد ما هو أكثر إيلامًا من أن أسير في الطريق، وأسمع صوت أقدام، وتتبادر السرقة إلى ذهني، ثم أنظر حولي وأرى شخصًا أبيض وأشعر بالارتياح». بهذا الاقتباس، يعترف جاكسون بأن التفكير المبني على تحيُّزاتٍ ربما يحدث خارج سيطرتنا في بعض الأحيان، وهي ظاهرة

عابرة للفئات العرقية كما في مساهمة الكاتبة رونا فِرناندِز في هذا الكتاب.

والحقيقة أن هذا الافتراض المتعلّق بالطبيعة المطلقة للعنصرية (إما أن تكون عنصريًا أو لا تكون) يجعل احتمالية التعصُّب التلقائي أو التعصُّب اللاواعي شديدة الخطورة، وخصوصًا إذا كانت المساواة إحدى قيمنا الأساسية. كذلك، تُظهر الأبحاث أننا بارعون جدًّا في التقليل من شأن المعلومات التي تُهدِّد أقدس معتقداتنا وقيمنا (بما في ذلك المعلومات المتعلِّقة بأنفسنا). وعلى هذا، نجد من المفارقات أن الأشخاص الذين يتزايد اعتزازهم بالمساواة ربما يكونون أكثر عرضة لإنكار استمرارية العنصرية، مثلما يناقش رودولفو مِندوزا-دينتون في دراسته «عبر التحدث يفهم الناس بعضهم بعضًا».

بيد أن أحد أسوإ طرق إحراز تقدُّم في المعركة ضد العنصرية هو إنكار احتمالية بقائها المستمر، إذ لا يمكننا أن نتصدَّى أو نتحكَّم في السلوك الذي نزعم أنه غير موجود. إن التغلُّب على التعصُّب الخفيِّ أمرٌ ممكن، لكن علينا أن نعترف باستمرارية المشكلة أولًا.

في القسم الأول من هذه المختارات «السيكولوجية الجديدة للعنصرية»، يُلقي العُلماء الضوء على الأسباب والكيفية التي تُشكِّل بها أدمغتنا أحكامًا مسبقة، وكيف تضر العنصرية بصحتنا؟ ويقترحون الخطوات التي يمكن أن نتبعها للتخفيف من الغرائز العنصرية. وفي القسم الثاني «التغلب على التحيُّزات»، يُطبِّق الصحفيون والباحثون أحدث أدوات علم النفس للتغلب على الانحياز في المدرسة والعمل،

وكذلك في تفاعلاتنا الشخصية. بعد ذلك في الجزأين الثالث والرابع «تقوية مجتمعنا متعدد الأعراق»، نطلب من الكُتَّاب وعلماء الاجتماع التأمل في تضمينات البحث من أجل الحياة اليومية، والوصول بالمناقشة إلى المستوى التالي، ألا وهو: كيف يمكننا أن نترعرع لنتقبَّل التنوُّع الذي نراه حولنا، وبداخلنا أيضًا؟ كيف يمكننا أن نذهب إلى ما هو أبعد من مجرد التسامح، إلى الاحتضان الحقيقي للاختلافات الثقافية والعِرقية؟

ربما يبدو ذلك هدفًا يوتوبيًّا، لكننا نؤمن بأن علم الأعصاب الجديد المعني بالتعصُّب يطرح طرقًا جديدة للحياة، وينبغي لهذه الاكتشافات أن تستثيرنا جميعًا للتفكير في المرحلة المقبلة من تطوُّرنا كأفرادٍ ومجتمع.



# هل نولد عنصريين؟

سوزان ت. فيسك

## إلى أي مدًى أنت متحيِّز؟

يذهب معظم الناس إلى الاعتقاد بأنهم أقل تحيُّزًا من المتوسط. لكن مثلما لا يمكننا جميعًا أن نكون أفضل من المتوسط، فلا يمكننا جميعًا أن نكون أقل تحيُّزًا من المتوسط. وعلى الرغم من أن نجاح حملة باراك أوباما الرئاسية يُبشِّر ببلد يتجاوز الانقسامات العرقية التقليدية والتحيُّزات، فإنه ربما يكون من الآمن الافتراض بأننا جميعًا نُضمِرُ تحيُّزات أكثر مما نعتقد.

يقترح العلم أن أغلبنا لا يعرف حتى نصف هذه التحيزات، ذلك أن كشفًا عمره عشرون عامًا من البحث في مجال علم الأعصاب الاجتماعي أوضح بالضبط كيف تعمل التحيزات بطريقة غير واعية وتلقائية. وعلى الرغم من أن أغلب الأمريكيين يحملون نوايا طيبة باعتبارهم أفراد مجتمعٍ يتحلى بمُثُل قائمة على المساواة، فإن بحثًا جديدًا أشار إلى أن أدمغتنا ودوافعنا جميعًا كثيرًا ما تخوننا، وهذا هو الجانب السيِّئ.

أمَّا الجانب الجيد فهو ما أظهره بحثٌ أحدث، وهو أن تحيزاتنا ليست حتمية، وإنما طيِّعة إلى حد بعيد، بل إنها تتشكَّل عبر خليط دائم التغيُّر من المعتقدات الثقافية والظروف الاجتماعية. كذلك، فإن إمكانية تجاهل أسوأ دوافعنا وتقليل هذه الأحكام تتصدَّى للاحتمالية القائلة بأننا مبرمجون على أن نُضمر بداخلنا تحيُّزات ضد أولئك الذين يبدون مختلفين أو غير مألوفين. بيد أن القيام بذلك يتطلب أكثر من مجرد نوايا فردية طيبة، إذ يتطلب جهودًا اجتماعية عريضة لتحدي الأفكار النمطية وحثِّ الأفراد على العمل معًا عبر حدود المجموعات. ومع ذلك، فإن التعرُّف على الجذور البيولوجية والسيكولوجية للتحيُّزات خطوة أوَّلية مهمة.

## التحيُّزات الحديثة

التحيزات الحديثة ليست تحيزات أجدادك؛ هذا هو أول شيء عليك أن تفهمه.

كانت التحيزات قديمة الطراز معروفة لأن الأفراد كانوا يصرِّحون بما يفكرون فيه على الأغلب؛ فالسود كسالى، اليهود خبثاء، النساء حمقاوات أو متسلطات. إن المعادل الحديث لهذه التحيزات مستمرٌّ بكل تأكيد؛ انظر إلى التصورات الحالية القائلة بأن المهاجرين المكسيكيين مجرمون (في حين أن الحقيقة هي أن معدلات الجريمة في الأحياء اللاتينية أقل من تلك الخاصة بمجموعات عرقية أخرى في مستويات اجتماعية اقتصادية مماثلة). وتشير معظم التقديرات إلى أن مثل هذا التعصب الخاطئ والصارخ مستمرٌّ فقط

وسط ١٠٪ من مواطني الديمقراطيات الحديثة. وعادةً ما يُسفر التحيز الصارخ عن جرائم كراهية، إلا أنها نادرة الحدوث لحسن الحظ (على الرغم من أنها ليست نادرة بما يكفي). ويمكننا، على أقل تقدير، أن نحدِّد المتعصبين المتبجِّحين.

وغالبًا ما تأخذ تحيزاتنا وتحيزات أولادنا وأحفادنا، إذا لم نتصدَّ لها، شكلًا أكثر مكرًا وغير مفحوص، ذلك أن علم الأعصاب قد كشف عن قدرة الأفراد على تحديد العمر والنوع والعِرق الظاهرينَ على شخص آخر في غضون أجزاءٍ من الثانية، إذ تنشط في طرفة العين شبكة معقدة من الصور النمطية والتحيزات المرتبطة بالمشاعر والدوافع السلوكية. وعلى الرغم من أن ردود الفعل العصبية هذه لا تتطلب تعصبًا واعيًا، فإنها تزداد سوءًا بسببه.

في مختبري الشخصي، على سبيل المثال، أتينا بعشرات الصور الخاصة بطوائف مجتمعية يمكن التعرف عليها في لحظة؛ أشخاص ذوي إعاقة، وكبار السنِّ، والمشرَّدين، ومدمني المخدِّرات، ورجال أعمال أثرياء، ورياضيين أولمبيين أمريكيين. وسألنا المشاركين عن المشاعر التي أثارتها هذه الصور في أنفسهم، ومثلما توقَّعنا فقد أوردوا شعور الشفقة (نحو المعاقين وكبار السن)، والاشمئزاز (نحو المشرَّدين ومدمني المخدرات)، والحسد (نحو رجال الأعمال)، والفخر (نحو الرياضيين).

أخضعنا، بعد ذلك، مشاركين آخرين للتصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي (fMRI)، من أجل مراقبة الكيفية التي تنشط

بها أدمغتهم وهم ينظرون إلى هذه الصور المُحرِّكة للمشاعر. وعلى سبيل المثال: أطلقت أدمغة الأشخاص سلسلة ردود أفعال تتسم بالاشمئزاز والصدود بعد لحظة واحدة من رؤيتهم رجلًا مشردًا على نحوٍ واضح. ذلك أن المناطق النشطة قد اشتملت على فص الجَزيرَة في الدماغ الذي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمشاعر الاشمئزاز الموجهة نحو القمامة والمخلَّفات البشرية. بشكل ملحوظ، فشِلَت صور المشردين في تحفيز مناطق دماغية عادةً ما تنشط عند تفكير الأشخاص في غيرهم أو في أنفسهم، إذ إن هذه المناطق قد عجزت ببساطة عن الإضاءة عند التعرض للمشردين (ومدمني المخدِّرات)، هكذا كما لو كان المشاركون قد تعثَّروا بكومة قمامة.

إننا لم ندهش من علامات الاشمئزاز الواضحة، بل من سهولة الوصول إليها. وعلى الرغم من أنها في نهاية الأمر كانت مجرد صور لا أشخاص متطفلين وذوي رائحة مزعجة، فقد رأينا السهولة التي يمكن من خلالها أن تستثير الصفاتُ الجسديةُ ردودَ أفعالٍ انفعالية قوية وفورية وراسخة.

وتنطوي مثل هذه النتائج على تحيُّز عنصري واضح، والذي غالبًا ما يكون نتيجة سمات سطحية مماثلة، والحقيقة أن كثيرًا من البحوث الحديثة قد أظهرت كيف تكون تحيزاتنا المتعجلة موجهة نحو أفراد من أعراق أخرى.

وقد توصَّل بحثٌ قامت به إليزابيث فيلبس، عالمة نفس بجامعة نيويورك، بمساعدة زملائها، إلى أنه حتى الصور الباهتة

التي توضع في الكتاب السنوي yearbook من الممكن أن تثير ردودًا عصبية قوية. فعندما تعرَّض رجال ذوو بشرة بيضاء -محل الدراسة- بشكل سريع، لوجوه غير مألوفة لذكورٍ ذوي بشرة سوداء، ارتفع نشاط أدمغتهم في منطقة تُعرف باسم لوزة المخيخ، وهي منطقة مرتبطة بمشاعر الحذر بشكل عام وبردود الأفعال المنطوية على خوف بشكل خاص، وتضيء لوزة المخيخ عند مواجهة أشخاص أو أحداث نقضي بأنها خطرة. وقد كشفت مختبرات عديدة أخرى، بما في ذلك مختبري، عن علاقة مماثلة بين لوزة المخيخ والتصورات السائدة التي يحملها ذوو البشرة البيضاء عن الوجوه السوداء.

كشف بحثٌ آخر عن المزيد من أشكال التحيز العنصري المستترة، إذ عرضت جرَّاحة الأعصاب ألكسندرا جولبي مع زملائها على المشاركين صورًا لوجوه بيضاء وسوداء، فأظهرت أدمغة المشاركين ذوي البشرة البيضاء نشاطًا في منطقة معنية بالتعرُّف على الوجوه أكبر من ذلك الذي أظهرته عند تعرُّضها لوجوه سوداء، وقد حدث الأمر نفسه عندما رأى مشاركون ذوو بشرة سوداء وجوهًا سوداء. لكن لسبب ما، لم يتم تسجيل الوجوه المنتمية إلى عرق آخر كوجوه بشرية بنفس الطريقة التي حدثت مع الوجوه المنتمية إلى العرق نفسه. وعندما تعرَّض جميع المشاركين في وقت لاحق لسلسلة من الوجوه البيضاء والسوداء التي كان بعضها جديدًا وكان بعضها الآخر قد عُرض على المشاركين أثناء القيام بالأشعة المغناطيسية، أثبت المشاركون أصحاب البشرة البيضاء

والسوداء على حدٍّ سواء قدرة أكبر على تذكُّر الأشخاص المنتمين إلى أعراقهم بدون شك.

أما العمل الذي قامت به جينفر إيبرهارت، عالمة نفس من ستانفورد، بمساعدة زملائها، فقد خلص إلى أن هذه التصورات السريعة غير الواعية التي يتم تكوينها عن الوجوه ربما تتسبب في نتائج مدمِّرة. وعلى هذا، فقد طلب الباحثون من المشاركين تحليل صور رجال أمريكيين منحدرين من أصول إفريقية ومدانين بتُهمِ ارتكاب جرائم قتل، وتقييم القدر الذي بدت عليه معالم وجوه الرجال «السود بصورة نمطية». وعلى الرغم من أن بعض الرجال كان محكومًا عليهم بالإعدام، بينما كان الآخرون محكومين بأحكام أخفَّ، فإن المشاركين لم يميِّزوا بين الاثنين. وعلى الرغم من التحكُّم في المتغيرات ذات الصلة، مثل جسامة عملية القتل والجاذبية التي يتمتع بها وجه المدَّعى عليه والحالة الاجتماعية الاقتصادية وأحكام الإدانة السابقة، فقد اتضح أن الرجال ذوي البشرة السوداء الذين رأى المشاركون في الدراسة أن ملامح وجوههم «سوداء بطريقة نمطية» تزداد أرجحية أنهم محكوم عليهم بالإعدام إلى أكثر من مرتين. (ومع ذلك، لم يحدث هذا التضارب إلَّا عندما كان الضحية أبيض البشرة، أما احتمالية أن يتلقَّى المدَّعى عليهم حكمًا بالإعدام فقد كانت تتراجع إذا كانت الضحية ذات بشرة سوداء أيضًا).

وفي الوقت ذاته، أظهرت دراسات محاكية للكيفية التي تتعامل بها الشرطة مع المشتبه بهم جنائيًّا، قام بها جوشوا كوريل، عالم نفس بجامعة شيكاغو، بمساعدة زملائه، أظهرت أن ضباط الشرطة

وأفراد المجتمع والطلبة الذين يمارسون ألعاب الفيديو يُظهِرون سرعة أكبر في «قنص» المسلحين ذوي البشرة السوداء، من تلك التي يظهرونها مع المسلحين ذوي البشرة البيضاء، فضلًا عن إظهارهم سرعة أكبر في تجنُّب قنص رجل أبيض غير مسلَّح، من تلك التي يظهرونها مع رجل أسود غير مسلح. (لمزيد مما يتعلق بهذا المنحى البحثي، يمكنك الاطلاع على مقال أليكس ديكسون «تحيُّز أعمال الشرطة» لاحقًا في هذه المختارات). إن التصورات النمطية الثقافية والتحيزات المتعلقة بالانفعالات تُسجَّل في الدماغ في ⅕ من الثانية، وهو وقت كافٍ لتحديد مصير المشتبه به، يبقى على قيد الحياة أم يموت.

## «مَن هم منَّا» في مواجهة «مَن هم ليسوا منَّا»

قبل سنواتٍ من هذه النتائج التي توصَّل إليها علم الأعصاب، كان علماء النفس الاجتماعي قد قاموا بتوثيق الروابط اللحظية (المؤسفة) التي يكوِّنها الأشخاص تُجاه «المجموعات الخارجية» التي لا يعتبرونها جزءًا من مجموعتهم. وسواء كان الاختلاف من ناحية العمر أو العِرق أو الدين أو الحزب السياسي، فإن الأفراد يفضلون مجموعتهم الخاصة على غيرها من المجموعات، ويفعلون ذلك بطريقة تلقائية. لقد كانت لدينا دائمًا شِفرات: (أناس أمثالنا)، (على غير شاكلتنا يا عزيزتي)، الجماعة، الرجل أو الإنسان، ذلك أن كل ثقافة تحتوي على من هم «منها»، ومن هم «ليسوا منها». لكن يبدو أن هذا طبيعة بشرية، إذ أظهرت دراسات عديدة، مدى

السهولة التي يمكننا من خلالها تحفيز هذا النوع من التمييز النفسي بين «المجموعات الداخلية» و«المجموعات الخارجية».

في واحدة من أشهر تلك الدراسات، قام عالم النفس الاجتماعي هنري تاجفل بعرض رسومات الفنانيِن؛ بول كلي ووازلي كاندينسكي على فتيان مراهقين، مستفسرًا عن الفنان الذي يفضلونه. ثم أتاح لهم بعد ذلك فرصة توزيع نقود على غيرهم ممن فضَّلوا الفنان نفسه أو أولئك الذين أحبوا الفنان الآخر. فكان فتيان «كلي» أكثر ميلًا إلى إعطاء النقود لغيرهم من مُريدي «كلي» بدرجة كبيرة، وكذلك كان فتيان «كاندينسكي» أكثر ميلًا إلى مشاركة «كاندينسكيين آخرين» على نحوٍ ملحوظ. وعليه، فقد أثبتوا دون شك ولاءهم للمجموعة التي ينتمون إليها، على الرغم من أنهم لم ينتسبوا إلى تلك المجموعة إلَّا منذ دقائق معدودة، ولم يعلموا شيئًا آخر عن زملائهم في المجموعة، وعلى ما يبدو لم يكن هناك ما يجنونه من الانتماء إلى المجموعة.

وقد أظهرت دراسات مشابهة أن الأفراد يميلون ميلًا كبيرًا إلى مَن يرتدون قمصان فريق كرة القدم الأمريكية الذي يفضلونه، ومن يشاركونهم أعياد ميلادهم، ومن يشبهونهم من الداخل، ناهيك عن أولئك الذين ينتمون إلى سلالتهم أو عرقهم. إننا دائمو البحث عن دلالات تساعدنا على إصدار أحكام مبكرة على الآخرين، متأثرين بآلاف السنوات من الحروب القَبائليَّة والتنافس الشرس على موارد محدودة.

ولسوء الحظ، وبسبب انجذابنا إلى المألوف والمماثل، فإننا كثيرًا ما نعتمد على صفات جسدية من أجل تحديد ما إذا كان الشخص من داخل مجموعتنا أو من خارجها، ومن ثَمَّ لا يكون من الصعب في ضوء ذلك فهم أسباب توجيه الكثير من التحيزات نحو الأشخاص استنادًا إلى أعراقهم.

وعلاوة على ذلك، يجب علينا جميعًا أن نتصدَّى للدور المؤثر الذي تلعبه ثقافتنا في تشكيل التحيزات، إذ إن أعوامًا، بل أجيالًا، من الرسائل الثقافية المُعلَنة والخفية -المكتسبة من الآباء، والإعلام، والتجربة المباشرة، وغيرها من المصادر التي لا حصر لها- تقوم بربط مظاهر جسدية محدَّدة بمجموعة من الصفات الإيجابية والسلبية، وذلك لأن جذور هذه الرسائل من الممكن أن تعود إلى قرون خَلَت كما هو الحال مع العنصرية تُجاه الأشخاص المنحدرين من أصول إفريقية في الولايات المتحدة، وجذور ذلك التي ترجع إلى عصر العبودية. إن مؤسسات ثقافتنا وأفرادها تمتصُّ مثل هذه الرسائل، وتقبلها، وتعمل على استمراريتها، بدون وعي في أغلب الأحيان، وبهذه الطريقة تصبح التحيزات تلقائية وواسعة النطاق بدرجة كبيرة.

### معركة يمكننا الفوز بها

يميل الأفراد إلى الاعتقاد بأن علم الأحياء هو القَدَر. بيد أن قدرتنا على الربط بين الدوافع الدماغية والتحيزات لا تعني أننا مُبرمَجون على بُغض مدمني المخدِّرات والمشرَّدين، أو أن قدر المنتمين إلى أعراق مختلفة هو الخوف وفقدان الثقة بعضهم تُجاه الآخر.

ففي دراسات علم الأعصاب المَعنية بالأعراق على سبيل المثال، تتفاوت ردود أفعال لوزة المخيخ (المرتبطة بالحذر) بين الأفراد بما يتوافق مع دلالات أخرى من التحيزات. ذلك أن لوزة المخيخ تُظهر استجابة أكبر لدى الأشخاص الذين تصدر عنهم سلوكيات أو مواقف على درجة أكبر من التحيزات. أما تحذيرات لوزة المخيخ عند أصحاب البشرة البيضاء، فلا تحدث لها استثارة تجاه الوجوه السوداء المشهورة. وعلى هذا، تعتاد أدمغتهم على وجوه سوداء جديدة بعد تكرار التعرُّض.

حتى إن وليام كننجهام -باحث في ولاية أوهايو- وجد أن الوجوه السوداء تُحفز نشاط لوزة المخيخ بدرجة أكبر فقط عند عرضها على أشخاص ذوي بشرة بيضاء لفترة زمنية قصيرة جدًّا تعادل التعرُّض اللاواعي (ثلاثون مِلِّي ثانية). وعندما أتيحت الفرصة لذوي البشرة البيضاء أن ينظروا إلى وجوه سوداء لفترة زمنية أطول (٥٢٥ مِلِّي ثانية) ويتفاعلوا معها بصورة واعية، لم يرتفع نشاط لوزة المخيخ إلى درجة غير معتادة. ومع ذلك، أظهرت مناطق دماغية مرتبطة بالصدِّ والتحكُّم في النفس نشاطًا متزايدًا كما لو كانت أدمغتهم -في أقل من ثانية واحدة- تردع تحيزات غير مرغوب فيها.

تُدلل الدروس الأكثر أهمية في كل هذه الموجات البحثية على طبيعة التفاعلات المعقدة بين علم الأحياء والبيئة. خُذ النتائج المتصلة بلوزة المخيخ والأعراق مثالًا: عندما أدخل الباحثون تغييرات طفيفة على الإطار الاجتماعي الذي يَعرض من خلاله

الأفراد صورًا لأعراق أخرى، رأينا تغيرات في الطريقة التي تتفاعل بها أدمغتهم مع هذه الوجوه.

في مختبري الشخصي على سبيل المثال، عرضنا على أشخاص ذوي بشرة بيضاء ممن شاركوا في الدراسة سلسلة صور لوجوه بيضاء وأخرى سوداء، وأمهلناهم ثانيتين للإجابة على أحد ثلاثة أسئلة خاصة بالأشخاص الذين يظهرون في تلك الصور: ما إذا كانت أعمارهم تتجاوز الواحد والعشرين؟ وما إذا كانت هناك نقطة رمادية على وجوههم؟ وما إذا كانوا يحبون نوعًا معينًا من الخضراوات؟ فكانت النتيجة أننا شاهدنا تصاعدًا في نشاط لوزة المخيخ عندما تعيَّن على المشاركين تحديد ما إذا كانت أعمار الأشخاص الذين يظهرون في الصور تتجاوز الواحد والعشرين عامًا، وذلك مقارنة بالدراسات السالف ذكرها. أما عندما تعرَّضوا لهذه الوجوه من أجل تحديد نوع الخضراوات المحتمل أن يحبها شخص ما، أو عندما كانوا يبحثون عن نقطة رمادية، استقرَّ نشاط لوزة المخيخ على الوضع نفسه الذي كانت عليه لدى رؤيتهم وجوهًا بيضاء.

وبتعبير آخر، استقبل المشاركون في الدراسة الوجوه السوداء بطريقة مختلفة عن تلك التي استقبلوا بها الوجوه البيضاء، عندما تعيَّن عليهم تصنيف الآخرين اجتماعيًّا؛ حتى إن كان ذلك التصنيف مبنيًّا على السِّن وليس العِرق. ومع ذلك، فقد أظهر تمرين النقطة الرمادية أن الأشخاص من ذوي البشرة البيضاء من الممكن أن ينظروا إلى وجوه سوداء دون أن يقعوا تحت ذلك التأثير. بيد أن الأمر الأكثر أهمية في التعاملات اليومية هو أن ردود أفعال

المشاركين تجاه الوجوه السوداء لم تكن مختلفة عن ردود أفعالهم تجاه الوجوه البيضاء، وذلك عندما دُفعوا إلى الحكم على هؤلاء الأشخاص باعتبارهم أفرادًا؛ أفرادًا لهم تفضيلاتهم وأذواقهم الشخصية الفريدة.

وعلى نحو مماثل، تشير أحدث نتائج الفحوصات الدماغية الصادرة عن مختبري إلى أن الأشخاص يمتنعون عن تجريد المشردين ومدمني المخدرات من إنسانيتهم عندما يُطلب منهم تخمين ما يودُّ هؤلاء الأشخاص تناوله من طعام؛ كما لو كان المشاركون في الدراسة يديرون مطعمًا للفقراء.

ما يوضحه هذا البحث هو أن البيئة من الممكن أن تتفاعل مع الطبيعة البشرية لِما فيه الخير أو الشر، ذلك أن الأوضاع الاجتماعية من شأنها أن تقلل التحيزات تمامًا مثلما يمكنها أن ترعاها أو تجعلها أسوأ.

يُشير كلٌّ من العلم والتاريخ إلى أن الناس يتغذون ويتصرفون وفقًا لتحيزاتهم بأسوإ الطرق عندما يتعرضون إلى توتر وضغط زملاء لهم، أو عندما يتلقون استحسانًا من رموز السلطة نحو القيام بذلك. ويظهر ذلك في جرائم الكراهية الموجهة ضد المشردين، ومن يُنظر إليهم باعتبارهم مثليين أو مثليات، والمنتمين إلى جميع الأعراق. وقد جادلت أنا وتلميذاي السابقان؛ لاسانا هاريس وإيمي كادي بأن هذه العمليات تكمن في جذر الإساءة التي تعرَّض لها المساجين في أماكن مثل أبو غريب.

ومن محاسن الصدف أن البحث قد أظهر أيضًا أنواع الأوضاع الاجتماعية التي من شأنها أن تقلل التحيزات. فعلى سبيل المثال، تشير سلسلة طويلة من أبحاث سابقة كنتُ قد أجريتها إلى أن دمج الأشخاص ضمن فريق واحد يساعد في التغلب على التحيزات عبر الوقت. وقد وجدتُ أنا وتلميذي السابق ستيف نيوبيرج، في إحدى الدراسات، أن المشاركين في الدراسة يحملون مشاعر سلبية تجاه مريض فصام كان قد خرج حديثًا من مصحة نفسية، وذلك قبل إعلامهم بضرورة العمل معه من أجل نيل فرصة للفوز بجائزة نقدية كبيرة، فقاموا حينها بملاحظته والحكم عليه بشكل أكبر من خلال صفاته الفردية المميزة وليس من خلال الصفات المرتبطة بجماعته الموصومة.

تُردد النتائج التي توصلنا إليها صدى تجربة «كهف اللصوص» الشهيرة التي قاد عملية إجرائها مُظفر شريف، أحد مؤسسي علم النفس الاجتماعي؛ حيث جاء شريف بمجموعتين من الفتيان إلى أجزاء مختلفة من معسكر تخييم، وحثَّ كل مجموعة على توطيد العَلاقات فيما بينهم كونهم يمثِّلون فريقًا واحدًا، ولم يخبرهم بوجود المجموعة الأخرى في بداية الأمر؛ وفور أن أدركت كل مجموعة وجود الأخرى، تولَّدت بينهما منافسة شرسة. ومن ثم وضع شريف وزملاؤه أمام المجموعتين سلسلة من التحديات التي ما كان لإحدى المجموعتين أن تتجاوزها دون مساعدة الأخرى، وعليه فعندما بدؤوا العمل معًا تبدَّدت التوترات التي كانت بينهم سابقًا، وتمكنوا من تكوين روابط عبر حدود المجموعة.

تأتي هذه النتائج ضمن سلسلة بحثية طويلة تدعَم ما يُعرف بفرضية الاتصال، التي تفيد بأن الاتصال بين أفراد المجتمعات المختلفة من شأنه أن يقلل النزاعات والتحيزات إذا ما توفرَّت الظروف الصحيحة. وتدعم هذه الفكرة عقود من الأبحاث المعنية بإنهاء التمييز العنصري في المدارس التي قام بتوثيقها الأستاذ الفخري بسانتا كروز توماس بيتجرو في جامعة كاليفورنيا، وعالمة النفس بأمرست ليندا تروب في جامعة ماساتشوستس.

وقد وجد كلٌّ من بيتجرو وتروب أن الدمج داخل المدارس من شأنه في حقيقة الأمر أن يحدَّ من التحيزات بين الطلبة المنتمين إلى مجموعات مختلفة، إلَّا أن دمج هؤلاء الطلبة معًا لا يكفي ببساطة ليجعلهم ينسلخون عن تحيزاتهم المسبقة، وينظرون بعضهم إلى بعض كأفراد. بل علينا أيضًا أن نحاول مساعدتهم في تقاسم أهداف مشتركة يتعيَّن عليهم التعاون فيها من أجل النجاح، وأن نضمن تلقيهم معاملة متساوية، وتمتعهم بعلاقات إيجابية غير تنافسية بعضهم مع بعض، وأن نُظهِر دعم رموز السلطة لعَلاقتهم الخارجة عن إطار المجموعة. وهكذا، تزداد أرجحية أن يتغلب الأفراد على تحيزاتهم مع تنفيذ المزيد من هذه العوامل. ولم يقتصر ثبوت صحة ذلك في المدارس وحسب، بل في مجموعة متنوعة من المؤسسات الاجتماعية الأخرى؛ بداية من المؤسسات العسكرية إلى مشروعات الإسكان العام. ما يعني أن تحيزاتنا لا تكون مُبرمجة إلى حد كبير في نهاية المطاف، إذا ما حظيت بالهندسة الاجتماعية الصحيحة.

ونحن -كمجتمع- ننخرط في الهندسة الاجتماعية طوال الوقت، وإن كان عن طريق الصدفة ودون قصد أو حتى توقُّع للنتائج في أغلب الأحوال. وعلى سبيل المثال، نُلحِق الرياضيين وأبناء الخرِّيجين بكليات تحت مِظلة غير مفحوصة من التمييز الإيجابي التي من شأنها أن تُقزِّم التمييز الإيجابي العنصري. كذلك، تمارس الكليات التمييز الإيجابي مع فتيان المدارس الثانوية الذين تنخفض درجاتهم ونتائج اختباراتهم عن الفتيات، إذا ما قورِنت بالمتوسط. ذلك أن التمييز الإيجابي المستنِد إلى العِرق هو شكل من أشكال الهندسة الاجتماعية الخاضعة لفحص أكبر، لكنه يظل شكلًا واحدًا وسط أشكال عديدة.

أما أشكال الهندسة الاجتماعية الأخرى التي يمارسها سماسرة العقارات المنحازون ومن يُجرون مقابلات قبول الوظائف، فتبقينا معزولين عرقيًّا داخل أحيائنا وأماكن عملنا، وهذا ثابت حتى بعد مراعاة الطبقة الاجتماعية. وكنتيجة لذلك، يُحرم الأشخاص من تفاعلات يومية مع آخرين يبدو من مظهرهم أنهم مختلفون، والحقيقة هي أنهم يتشاركون القيم والآمال والمخاوف ذاتها.

ومثلما وثَّق زوجي عالم الاجتماع دوج مايسي، فإن كل شيء آخر يأتي تباعًا عندما نسمح لمجتمعاتنا بأن تبقى منفصلة هكذا؛ إذ يصبح الأقل حظًّا عُرضة للعنف والاضطرابات، ويتلقى تعليمًا متدنيًا، ويحصل على فرص توظيف محلية أقل، وتقل القدوة البنَّاءة. في حين أنه بمجرد أن نفهم كيف يشعر الأفراد تلقائيًّا بخوف تجاه الاختلاف، وكيف ينزعون الإنسانية من الأقل حظًّا، ويشوهون

صورة الآخر (أو «من ليسوا منا»)، يكون بوسعنا أن نُحْسِن تقدير كيف يمكن لهذه الأشكال من الفصل أن تُطيل أمد نفسها؟ ولماذا يجب أن نتصدى لها؟ إن علم التحيزات الإنسانية يقترح أن هذه معركة يمكننا الفوز بها إذا كنا مستنيرين ومثابرين.

## المزيد من القراءات


• Fiske, S. T., H. Bergsieker, A. M. Russell, and L. Williams. 2009. Images of Black Americans: Then, «them» and now, «Obama!» Du Bois Review: Social Science Research on Race 6:83–101.

• Macrae, C. N., and G. V. Bodenhausen. 2000. Social cognition: Thinking categorically about others. Annual Review of Psychology 51:93–120.

• Pettigrew, T. F., and L. R. Tropp. 2006. A meta-analytic test of intergroup contact theory. Journal of Personality and Social Psychology 90:751–83.

• Phelps, E. A., K. J. O'Connor, W. A. Cunningham, E. S. Funayama, J. C. Gatenby, J. C. Gore, and M. R. Banaji. 2000. Performance on indirect measures of race evaluation predicts amygdala activation. Journal of Cognitive Neuroscience 12:729–38.

• Wheeler, M. E., and S. T. Fiske. 2005. Controlling racial prejudice: Social cognitive goals affect amygdala and stereotype activation. Psychological Science 16:56–63.

# التحيُّزات في مقابل التفكير الإيجابي

كريم جونسون

أظهرت اكتشافات في علم الأعصاب الاجتماعي أن الفئات العرقية هي أول ما نلاحظه في شخص جديد، وذلك قبل أعمارهم، ونوعهم، أو أي صفات اجتماعية أخرى. لكن، مثلما توضِّح سوزان فيسك في المقالة الأولى من هذا الكتاب، فإن الأبحاث تشير أيضًا إلى أن فعل التركيز نفسه على الفئة العرقية لشخص ما، من الممكن أن يشوِّه مفهومنا عن الوجوه التي نراها. إن هذا التركيز يؤثر حتى في الطريقة التي تستقبل بها أدمغتنا الوجوه، فعندما نرى وجه شخص من عرق مختلف، لا تستجيب أدمغتنا مثلما تفعل عندما نرى وجه شخص ينتمي إلى عرقنا. كما لو أن أدمغتنا موصولة بطريقة تعمل على نزع الإنسانية من وجوه الأشخاص الذين ينتمون إلى عرق مختلف.

إنها الحالة ذاتها حيث يمكن لوجوهنا أن تضلِّل التحيز، حتى عندما لا نرغب في ذلك، حيث تعكس تعبيرات وجوهنا وإيماءاتنا ما يحدث في أدمغتنا، وفي المقابل تؤثر تلك التعبيرات والإيماءات فيما يحدث في عقول الأشخاص الآخرين.

وباعتباري أمريكيًّا من أصول إفريقية وكائنًا بشريًّا، أجد أن العديد من النتائج التي خرجت عن هذه الدراسات مفزعة. ومع ذلك، فباعتباري عالم علم نفس اجتماعيٍّ، فأنا أعلم أن للقصة بقية (هناك خبايا للقصة). وقد اكتشفت أنه على الرغم من أن تأثير الفئات العرقية والصور النمطية هائل، فإن التغلُّب عليه ليس مستحيلًا. إن التحيزات ليست كل ما يمكن للجسد أن يكشف عنه. لقد اكتشف الباحثون أيضًا في إيماءتنا وتعبيراتنا رغبة قوية في أن نكون مؤيِّدين للمساواة حقًّا. وقد وجدت، في دراساتي الشخصية، أن التصورات والدوافع المنحازة من الممكن أن تتبدَّد عن طريق شيء بسيط مثل الابتسامة.

## يفضحه الجسدُ والدماغ

اضطلع مبدأ المساواة والتسامح العرقي، في صحوة نجاحات حركة الحقوق المدنية، بدور أكبر في أخلاقياتنا. لقد أصبح مصطلح عنصري لقبًا في معظم أجزاء المجتمع الأمريكي. ومن النادر وغير المعتاد لشخص أن يبلِّغ صراحة عن مشاعر تعصب. وعلى الرغم من أن هذا تغير مرحَّب به، فإنه قد تسبَّب في مشكلة بسيطة لعلماء النفس الذين يدرسون كيف تؤثر الأفكار النمطية والتحيزات في السلوك. وفي العقد الماضي، تم تخصيص قدر كبير من البحوث لقياس الأفكار والمشاعر المتعلقة بالعرق التي من شأنها أن تقبع تحت السطح. إن الاختبارات النفسية التي تقيس هذه التوجهات العنصرية الأكثر ضمنية عادةً ما تفحص، كذلك، مدى السهولة

التي يتم فيها ربط أشخاص من عرق مختلف بكلمات أو موضوعات إيجابية أو سلبية.

كان الباحثون، منذ خمسينيات القرن الماضي، يفحصون الاختلافات بين ما نقوله أثناء اللقاءات بين الأعراق وما يمكن أن نشعر به بالفعل خلال تلك اللقاءات. وتفحص دراسات في علم النفس الفسيولوجي كيف تستجيب أجسادنا للضغط والانفعالات. إن اختبار كشف الكذب أو جهاز كشف الكذب مثال شائع. فعندما يقوم شخص ما بمحاولة تضليل، فإنه سيشعر غالبًا بضغط ناتج عن الخوف من أن يتم كشفه. بالطبع، لن يخبرك هذا الشخص بذلك، لكن جسده سيكشفه: ربما تبدأ يداه في التعرُّق أكثر، وربما ينبض قلبه أسرع، وربما تتسارع أنفاسه، ربما ليس بشكل غير كافٍ لأن تلاحظ ذلك بعينك المجردة، لكن الجهاز بإمكانه أن يلاحظ الفرق. وقد وجدت الدراسات المبكِّرة التي تستخدم علم النفس الفسيولوجي لفحص المواقف بين الأعراق أنه خلال تفاعلات بين الأعراق حقيقية أو مُتَخيَّلة، غالبًا ما يُظهر الأشخاص علاماتٍ جسدية من الضغط غير متسِّقة مع مواقفهم العرقية المُعلَنة صراحةً.

بدأت تلك الدراسات منذ أكثر من خمسين عامًا مضت، لكنَّ بحوثًا جديدة كثيرًا ما تُظهر الشيء ذاته. وعلى سبيل المثال، استخدم عالم النفس إيريك فانمان، حاليًّا في جامعة كوينزلاند، مِجسات مخطط كهربية العضل الوجهي (EMG) لفحص تعبيرات الوجه الخفية أثناء تخيُّل المشاركين في الدراسة تفاعلًا بين الأعراق. ووجد أن الطلبة البيض يقيِّمون باستمرار الشركاء السود المحتملين على

أنهم مفضَّلون أو أكثر تفضيلًا من الشركاء البيض المحتملين، لكن ما ذكروه صراحة كان في كثير من الأحيان يتعارض بشكل مباشر مع تعابير وجوههم. وعند تخيُّل التفاعل مع شريك أبيض، كان من المرجَّح أن يبتسم الطلاب قليلًا، أما عند تخيل التفاعل مع شريك أسود، فإنهم كانوا أكثر ميلًا إلى أن يعقدوا حواجبهم، كتعبير متصل بالرفض.

في دراسة أخرى فحص عالمُ نفس جامعة يايل جون دوفيديو وزملاؤه كيف أن مواقف الأشخاص العرقية توقعت سلوكًا لفظيًّا وغير لفظي خلال تفاعلات من العرق نفسه وعابرة للأعراق. وعندما قام بتسجيل فيديو لسلسلة من التفاعلات، ولاحقًا جعل فريقه البحثي يقدِّر مدى ودِّية التفاعل، وجد أن التوجهات العرقية التي ذكرها الأشخاص بشكل واضح في استطلاع قد توقَّعت كيف كانوا ودودين لفظيًّا خلال التفاعل. كان القوقازيون الذين يحملون مزيدًا من الأفكار المساواتية قد حظوا بمحادثات أكثر ودِّية مع شركاء تفاعل أمريكيين من أصول إفريقية.

ثم أعاد دوفيدو أشرطة الفيديو الخاصة بالتفاعلات بدون أي صوت، ومن ثَمَّ كان بوسعه أن يقيِّم مدى الودِّ الذي كانت عليه التفاعلات فيما يخصُّ لغة الجسد غير اللفظية. وبغض النظر عن توجهاتهم العرقية الواضحة، فقد تنبأت التحيزات العرقية المستترة بسلوكيات غير لفظية. إن الأشخاص الذين أرادوا أن يقدِّموا أنفسهم على أساس أنهم غير خاضعين للتحيزات اختاروا كلماتهم

بعناية ليكون التفاعل ودودًا، لكن لغة جسدهم كشفت مشاعر كامنة من الضغط وعدم الراحة.

## الابتسامُ مقابل التحيُّزات

هل يعني هذا أننا محكوم علينا أن نكون عنصريين؟ على الرغم من أن هذا يبدو قاتمًا من الوهلة الأولى، فإن علماء النفس الاجتماعيين يكتشفون أيضًا أنه يمكننا، تحت الظروف الصحيحة، تجنُّب تأثير الصور النمطية التلقائية وغير الواعية.

أظهر عمل حديث في مختبري الشخصي أن السياق الاجتماعي المناسب من الممكن أن يبدِّل الانحيازات العرقية المسترة. وأظهر كيث باين في جامعة كارولاينا الشمالية في تشابل هيل أن الأشخاص يكونون أسرع في التعرُّف على الأشياء السلبية مثل البنادق بعد رؤية وجوه ذكور سود بسبب الروابط القوية بين الرجال السود والاعتداءات والجريمة. ومع ذلك، وباستخدام نسخة معدَّلة من افتراض باين المتعلِّق بالتعرُّف على السلاح، أظهر مختبري حديثًا أن هذا الارتباط من الممكن أن يتبدَّل عن طريق تعبيرات الوجه الظاهرة على الوجوه. ووجدنا أن النزعة إلى رؤية الأسلحة قد اختفت عندما كانت الوجوه السوداء الظاهرة تبتسم. ويبدو أن الارتباطات الإيجابية بتعبيرات مثل الابتسام كانت كافية لإضعاف الارتباطات الفورية بين الرجال السود والأسلحة.

هناك طريقة أخرى يمكن للابتسامات أن تساعد في تقليل

الانحيازات المستترة. في دراسة ذكية قامت بها تيفاني إيتو وزملاؤها في جامعة كولورادو، بولدر، أُجبِر المشاركون في البحث على الابتسام دون علمٍ عندما كانوا ينظرون إلى صور وجوه غير مألوفة لقوقازيين وأمريكيين من أصول إفريقية. كيف تجعل شخصًا يبتسم دون علم؟ الأمر سهل، فبينما كان المشاركون يطالعون الوجوه، وُجِّهت تعليمات إليهم بأن يمسكوا قلم رصاص بين أسنانهم ولا يدعوه يلمس شفاههم. اذهب وجربها بنفسك. وعلى الرغم من أن هذه ليست ابتسامة حقيقية، فإن التعبير الذي تظهره بينما تمسك قلم الرصاص بين أسنانك يشبه الابتسامة. وقد وجد البحث السابق أن هذا النوع من الاستجابة الوجهية، رَسْمَ ابتسامةٍ، من الممكن أن يكون كافيًا لإنتاج انفعالات إيجابية، ومن الممكن أن يقود إلى مزيد من التقييمات الملائمة عن أشخاص آخرين.

وجدت إيتو وزملاؤها أن المشاركين الذين «ابتسموا» عندما طالعوا مجموعة من وجوه أمريكية من أصول إفريقية أظهروا تحيُّزًا عرقيًّا أقل بشكل ملحوظ لاحقًا في اختبار التوجُّهات المسترة. وعلى ما يبدو، فإن فعل الابتسام أثناء مطالعة الوجوه سمح بمزيدٍ من الروابط الإيجابية مع الوجوه السوداء، الأمر الذي أدَّى إلى المزيد من المواقف الإيجابية المسترة.

وحديثًا، طوَّرت صوفي ليبرشت من جامعة براون وجيم تاناكا من جامعة فيكتوريا، كولومبيا البريطانية، طريقة تدريبية من الممكن أن تضعف الانحيازات العرقية المسترة، وتحسِّن الاعتراف

بالوجوه من الأعراق الأخرى. في بداية الدراسة، قام كلٌّ من ليبرشت وناناكا بقياس التوجُّهات العرقية المسترة للمشاركين القوقازيين، وقدرتهم على الاعتراف بوجوه غير مألوفة من عرق مختلف. ومن ثم جعلوا مشاركين قوقازيين يمارسون التعرُّف على الوجوه باعتبارهم أفرادًا أو ممارسة تصنيف الوجوه وفقًا للعرق. ووجدوا أنه بعد عدة جلسات من محاولة رؤية الوجوه كأفراد، أظهر المشاركون أوجه تحسُّن ملحوظة في قدرتهم على التعرُّف على الوجوه من أعراق أخرى، بالإضافة إلى تحيُّزات عرقية مسترة منخفضة. وتشير النتائج التي توصَّلوا إليها إلى أن كلًا من التحيزات العرقية المسترة والتعرُّف الضعيف على وجوهٍ من أعراق أخرى من الممكن أن يَنتُج عن نزوعنا إلى استعراض الأشخاص المنتمين إلى عرق مختلف باعتبارهم فئات بدلًا من كونهم أفرادًا. ومع ذلك، تشير نتائجهم أيضًا إلى أنه بإمكاننا أن نتعلَّم رؤية الأشخاص كأفراد، ويمكن لهذا أن يساعدنا في التغلُّب على تلك الانحيازات.

لقد أظهر بحثي الشخصي أن تأثير الفئات العرقية من الممكن أن يتم التغلب عليه حتى دون تدريب. وبالتعاون مع باربرا فريدريكسون من جامعة كارولينا الشمالية في شابل هيل، فحصت تأثير الحالات العاطفية فيما يتعلق بالقدرة على التعرُّف على العرق نفسه أو وجوه الأعراق الأخرى. وجعلت مشاركين قوقازيين يطالعون فِلمًا قصيرًا لجعلهم يمتلؤون بهجة أو خوفًا أو حيادًا قبل أن يقدَّم لهم اختبار تمييز الوجوه.

كانت النتائج مذهلة. فعلى الرغم من أن المشاركين الذين

أُجبروا على الشعور بالحياد أو بالخوف أظهروا النمط المعتاد لأن يكونوا أقل قدرة على تمييز وجوه تنتمي إلى عرق آخر، فإن المشاركين الذين امتلؤوا بالفرحة لم يُظهروا أيَّ اختلاف على الإطلاق في تمييز الوجوه من العرق نفسه أو من عرقٍ آخر. لم يكن التدريب ضروريًّا. فقد ألغى تحفيز شعور إيجابي قوي قبل مهمة التمييز ذلك التأثير العابر للأعراق، هكذا ببساطة. وظهر كما لو أن المشاعر الإيجابية سمحت للأشخاص بأن ينظروا إلى الوجوه المنتمية إلى أعراق أخرى مثل الفئات بشكل أقل، وكأفراد بشكل أكبر.

في دراسة أخرى، تفحصت ما إذا كان من الممكن للمشاعر الإيجابية أن تقلل الانتباه تجاه الفئات العرقية. فجعلت المشاركين يشاهدون مقاطع مؤثرة من أفلامٍ قبل الخضوع لمهمة التصنيف العرقي. واستخدمت أنا وزملائي مِجسات تخطيط العضلات لتتبع تكرارية تعبير المشاركين عن ابتسامات حقيقية خلال المقاطع الفِلمية. ووجدنا علاقة مباشرة بين عدد المرات التي ابتسم فيها أحد الأشخاص ودرجة التركيز على الفئات العرقية بعد مشاهد مقطع الفِلم. إن الأشخاص الذين تكررت ابتسامتهم كانوا أقل إدراكًا بشكل ملحوظ لعلامات الفئة العرقية بعد فترة قصيرة، مقارنة بأولئك الذين لم تتكرر ابتسامتهم. ومجددًا، لم يكن التدريب ضروريًّا. ومن الممكن أن يتم التغلُّب على تأثير الفئات العرقية ببساطة عن طريق الابتسام (مرارًا).

إن الروابط بين الابتسام والتمييز العرقي بدأت من فورِها في الظهور، وعلى هذا، وفي هذه النقطة، فليس من الواضح بشكل

كلي ما إذا كان الابتسام نفسه يقلل التصنيفات العرقية أم أن هناك شيئًا متعلّقا بشخصيات الأفراد المبتسمين التي تجعلهم أيضًا يعيرون انتباهًا أقل للفئات العرقية. إلا أن بعض الأدلة المبكِّرة تشير إلى أن الإكثار من الابتسام من الممكن أن يساعد على تقليل التصنيفات العرقية، وفي أي حدث، فإن الابتسام لا يضرُّ بالتأكيد. إن التراجع في التصنيفات العرقية الذي لاحظته لم يكن ببساطة بسبب كيف شعر الأشخاص بسعادة أو بإيجابية خلال التجربة. وفي الحقيقة، فإن الابتسام كان له تأثير مستقل ومميز في مساعدتنا على رؤية أنفسنا (نحن والآخرين) كأفراد.



## خسائر التحيُّز

أن تجعل الابتسام ذا مغزًى هي طريقة أكثر سرورًا في مواجهة النزعات العنصرية من المحاولة المستمرة للتحكُّم في سلوك الفرد؛ إذ تبين أن محاولة تقديم التعويض عن الانحيازات السلوكية من الممكن أن يتسبَّب في خسائر. وعندما جعلت عالمة نفس جامعة نورثويسترن جينفر ريتشسون وزملاؤها طلبةَ جامعةٍ بيضًا وسودًا يتفاعلون مع محاور أبيض أو أسود، وجدوا أنه بعد التفاعل مع شخص من عرق مختلف، واجه الطلبة صعوبة أكبر في مطابقة الكلمات مع الألوان، وهي مهمة تتطلب الكثير من التركيز. ويبدو أنه خلال التفاعلات العابرة للأعراق، كان الطلبة يحاولون ضبط إيماءاتهم، وتعبيرات وجوههم، والسلوك حتى لا يبدو أن لديهم تحيُّزات، وهذا على نحوٍ غير مفاجئ أرهقهم.

ومع ذلك، فإن تغيرًا بسيطًا في وجهة النظر من الممكن أن يحسِّن هذا النوع من الخسائر النفسية. وفي دراسة أخرى -مفضلة بالنسبة إليَّ- أعطت ريتشسون وزملاؤها الطلبةَ تعليماتٍ مختلفة قبل أن يشاركوا في تفاعل عابر للأعراق: وبعضٍ المشاركين لم يعطوا أية تعليمات. وتم إبلاغ آخرين بأن يحاولوا تجنُّب أن يبدون متحيِّزين. وتم إبلاغ المجموعة الأخيرة فقط بأن عليها أن تحاول أن يكون لديها تفاعل إيجابي. بعد التفاعل، وتم اختبار قدرة المشاركين على ضبط أنفسهم، مثلما هو الحال في دراسة ريتشسون الأخرى، طلب إليهم أن يربطوا بين الكلمات والألوان.

أظهرت النتائج أن المجموعة التي لم توجَّه إليها أية تعليمات، والمجموعة التي تم إبلاغها بمحاولة تجنُّب إظهار أن لديها تحيُّزات، أن أفراد هاتين المجموعتين واجهوا صعوبة في إكمال المهمة. إن التراجع في ضبط النفس -الحفاظ على التركيز والاهتمام- كان نفسه تقريبًا للمجموعتين، وهو ما يشير إلى أن المجموعة التي لم توجَّه إليها أية تعليمات ربما كانت تحاول تجنب أن يظهر عليها أن لديها تحيُّزات بشكل تلقائي. ومع ذلك، فإن المجموعة التي تم طَلب أن يكون لديها تفاعل إيجابي لم تُظهِر تراجعًا ملحوظًا فيما يتعلق بضبط النفس. إن التعامل مع التفاعل باعتباره تفاعلًا فقط، بدلًا من القلق بشأن حقيقة أنه كان تفاعلًا عابرًا للأعراق، كان هو كل المطلوب لتجنُّب الإنهاك المعتاد للموارد الذهنية.

كانت قضايا العنصرية والتحيُّزات مصدر كفاح عبر التاريخ، وتلك القضايا بالتأكيد لن تختفي فجأة إذا فقط ابتسمنا جميعًا أكثر

قليلًا، أو حاولنا أن نكون أكثر تفاؤلًا قليلًا. ومع ذلك، تكشف الأبحاث أن هناك اتصالات عميقة بين مشاعرنا وتوقعاتنا وتصوراتنا. وعندما نلتقي أشخاصًا من عرق مختلف يمكن للتوقعات والمشاعر المتعلَّمة سابقًا أن تشوِّه ما نراه. ويشير هذا المنحى البحثي إلى أنه إذا استطعنا استقبال تلك المقابلات بابتسامة وبعض التفاؤل الصادق، فلربما نكون قادرين على أن نرى بشكل أفضل الأشخاص كما هم عليه بالفعل. إن الابتسامات والتصورات الإيجابية من الممكن ألَّا تجعل كل دافع أو حالة تحيُّز تختفي، لكن كل خطوة فردية إلى الأمام لا تزال خطوة أقرب إلى المكان الذي نَودُّ أن نكون فيه.

## المزيد من القراءات


• Dovidio, J. F., K. Kawakami, and S. L. Gaertner. 2002. Implicit and explicit prejudice and interracial interaction. Journal of Personality and Social Psychology 82:62–68.

• Ito, T. A., K. W. Chiao, P. G. Devine, T. S. Lorig, and J. T. Cacioppo. 2006. The influence of facial feedback on racial bias. Psychological Science 17:256–61.

• Johnson, K. J., and B. L. Fredrickson. 2005. We all look the same to me: Positive emotions eliminate the own-race bias in face recognition. Psychological Science 16:875–81.

• Trawalter, S., and J. A. Richeson. 2006. Regulatory focus and executive function after interracial interactions. Journal of Experimental Psychology 42:406–12.

# القولبة!

# فَهمُ فجوات الإنجاز

رودولفو مِندوزا ـ دينتون

في أحضان التلال الضبابية الذهبية فوق خليج سان فرنسيسكو، تحديدًا في فناء قاعة لورنس للعلوم، وهو متحف علمي مخصص للأطفال بجامعة كاليفورنيا في بيركلي، تستقرُّ منحوتة تصوِّر شريط الحمض النووي بحجمٍ يفوق حجمه الفعلي ٢,١ مليار مرة. ابني، البالغ من العمر عامين، مغرمٌ بتسلُّق كل جزء من هذه النسخة المقلَّدة المصنوعة من البلاستيك والصلب. ودائمًا ما أبتسم من عبقرية أن يكون هذا اللولب المزدوِج على شكل لعبة، إذ طالما بدت لي الأبعاد الضخمة للمنحوتة ملائمة بالنظر إلى أن اكتشاف الحمض النووي يُعدُّ أحد أكبر الإنجازات في تاريخ العلم.

وعلى الرغم من أن كثيرين لن يجادلوا بشأن أهمية الحمض النووي الكبرى، فإن هناك جدلًا كبيرًا حول دوره في تحديد السِّمات والسلوكيات والمهارات التي تميز كل واحد منا. ويحتدم هذا الجدال عندما يتركز في الاختلافات بين المجموعات، لا سيما إذا تطرق إلى مسائل من قبيل: الذكاء والتحصيل الأكاديمي.

وفي الخريف الماضي، قررت إحدى الهيئات العالمية الرائدة في مجال الأحماض النووية أن تدلو بدلوها في هذا الجدال القائم. ومن ثمّ، قام جيمس د. واتسون، الذي مكَّنه عمله في تحديد بنية الحمض النووي من نيل جائزة نوبل في العام ١٩٦٢، بتركيز اهتمامه في واحدة من أكثر الجوانب الشائكة في هذه المسألة، وهي العَلاقة بين العِرق والذكاء. وأوضح واتسون، في لقاء مع التايمز (لندن)، أن «المشهد الإفريقي تشاؤميٌّ على نحو جذري»، مستطردًا:

«إن جميع سياساتنا الاجتماعية معتمدة على حقيقة أن ذكاءهم هو ذكاؤنا نفسه، في حين أن جميع الاختبارات تنفي صحة ذلك، وأن الأشخاص الذين يتعين عليهم التعامل مع موظفين ذوي بشرة سوداء يجدون ذلك غير صحيح».

ربما يكون نبذ مثل هذه التعليقات وتسخيفها أمرًا سهلًا لو كانت صادرة عن شخص آخر. لكن عندما يخبرنا أحد مكتشفي اللولب المزدوِج أن الأفراد المنتمين إلى أحد الأعراق يأتون -بالوراثة- في مرتبة أدنى من غيرهم، فإن تجاهل تعليقاته لا يكون أمرًا على القدر نفسه من السهولة. ومع هذا، هل يمكن أن نتعلم أي شيء من تعليقات واتسون؟

الإجابة هي نعم. ومع ذلك، فإن الدرس الذي يمكننا تعلُّمه لا يكمُن في كلامه بقدر ما يكمُن في الافتراضات المختبئة وراءه، أي في الافتراضات المتعلِّقة بكيف ولماذا يتفاوت أداء الجماعات المختلفة؟

كان واتسون محقًّا بشأن ما أظهرته الاختبارات من اختلافٍ في الأداء بين مجموعات عرقية وإثنية. وفي الولايات المتحدة، يُشار إلى اختلاف الأداء هذا باسم «فجوات الإنجاز»، إذ إن بعض الجماعات (أوروبيين وأمريكيين من أصول آسيوية) دائمًا ما تتفوق على غيرها (أمريكيين من أصول إفريقية ولاتينية) في الاختبارات الموحَّدة. إن هذه الفجوات المستمرة على نحوٍ محيِّرٍ موجودة في جميع المستويات الدراسية: بدايةً من درجات التقييم الوطني للتقدم التعليمي في المرحلة الابتدائية NAEP، ومرورًا بدرجات اختيار الالتحاق بالجامعة في المرحلة الثانوية SAT، ووصولًا إلى اختبارات المدارس المهنية كاختبارات سجل الخريجين GRE أو امتحان القبول بكلية الحقوق LSAT. بيد أن الكيفية التي نُفسر بها هذه الاختلافات تلعب دورًا حيويًّا في تحديد سبل مواجهتها، وهنا تحديدًا شرد واتسون بعيدًا. لقد أرجع الاختلافات إلى أصلٍ وراثي، وهو أمرٌ نَفَت الأبحاث صحته. إنها حقًّا نتاج التحيُّزات.

## الانتباه إلى الفجوة

إن تلميحات واتسون إلى إمكانيَّات الأفارقة (وأصحاب الأصول الإفريقية) «المشؤومة على نحوٍ جذري» تستند إلى افتراضين خاطئين: الأول هو أن القدرات الفكرية أمرٌ ثابتٌ وخِلقي مثله مثل لون الشعر أو شكل الأنف، والثاني هو أن يُنظر إلى أدوات قياس هذه القدرة -مثل اختبارات الذكاء والاختبارات الموحدة- باعتبارها أدوات دقيقة دقةَ ترمومتر عند قياس درجة الحرارة.

إن واتسون ليس وحده من يتمسَّك بهذه القناعات، لأن الثقافة الأمريكية لا تتورَّع كثيرًا عن المصادقة عليها واستخدامها بفعالية. إن نظامنا التعليمي يضع الطلبة في مساراتهم وفقًا لمستويات «القدرة». ومسؤولو البَتِّ في طلبات الالتحاق بالكليات والمدارس الثانوية الخاصة يعتمدون -بشكل كبير- في اتخاذ قراراتهم المتعلِّقة بالقَبول أو الرفض على نتائج الاختبارات الموحَّدة. إن النتيجة التي توصَّل إليها واتسون من خلال هذه الافتراضات هي أنه إذا كانت الاختبارات تشير إلى اختلافات معتمدة على الجماعة، فمن الحتمي أن تكون هذه الاختلافات مترسِّخة بعمق في هوياتنا. كذلك اعتبر لورانس سمرز، أحد رؤساء هارفارد السابقين، أن «قضايا الكفاءة الجوهرية» هي جذر الاختلافات الجندرية (النوع الاجتماعي) في الإنجازات المتعلِّقة بالرياضيات.

بيد أن أبحاث علم النفس تفيد بأن هذه الاختبارات ليست مُحصَّنة من الآثار السلبية للتحيزات، فعلى سبيل المثال عرض عالما النفس؛ كلود ستيل وجوشوا آرونسان أسئلة مشابهة لتلك الأسئلة التي ربما يجدها المرء في الاختبارات الموحَّدة، على طلبة أمريكيين وأوروبيين وأفارقة. وفي الحالة الأولى، أخبر الباحثون المجموعة أن الاختبار مصمَّم لقياس قدرتهم الفكرية. وفي الحالة الثانية، عُرِضَت الأسئلة ذاتها على مجموعة أخرى من الطلبة، بيد أن الباحثين أخبروهم بأن كل ما يهتمون به هو العملية النفسية الداخلة في حلِّ المشكلات وليس قياس قدرة المشاركين.

كشفت النتائج عن تحقيق الطلبة الأمريكيين من أصول

أوروبية درجات متكافئة في كلتا المجموعتين. وبينما كان أداء الطلبة الأمريكيين من أصول إفريقية أسوأ من أقرانهم الأمريكيين من أصول أوروبية في الحالة الأولى، كان أداؤهم على القدر نفسه من الكفاءة في الحالة الثانية. وهذا يعني أن النتائج قد تأثرت بالطريقة التي تقوولبت بها الاختبارات. إن مجرد التلميح إلى أن الاختبار يُمحِّص «القدرة الفطرية» بطريقة ما، كان كافيًا لإحداث اضطراب كبير في أداء الطلبة الأمريكيين من أصول إفريقية إلى حدٍّ ذوبان اختلافات الأداء بين المجموعتين مع اختفاء القالب أو التأطير.

إن هذه النتيجة ليست استثنائية، إذ تُظهِر تجارب أخرى متعلِّقة بالجندر نتائج مشابهة. فعلى سبيل المثال، إذا خضعت مجموعة من الرجال والنساء إلى اختبار في الرياضيات وقيل لهم إن الاختبار مصمَّم لإظهار الفروق النوعية، فعلى الأغلب سيكون أداء النساء أضعف من الرجال. لكن إذا قيل لهم إن الغرض من الاختبار هو ببساطة قياس المهارات الحسابية، فستختفي هذه الاختلافات فجأة. وبالنظر إلى أن هذه التجارب معتمدة على اختبارات موحَّدة، فإن النتائج تتعارض تعارضًا تامًّا مع الفكرة القائلة بأن القدرات الحسابية مختلفة اختلافًا فطريًّا بين الرجال والنساء. ذلك أنه إذا كان هذا هو الوضع، فلن يتمكن الباحثون من محو الاختلافات في نتائج الاختبار بطريقة بسيطة مثل تغيير الطريقة التي يتم تقديم الاختبار بها إلى الطلبة.

كيف يمكن لإدخال تغيرٍ طفيف على الإطار الذي نضع فيه الاختبار أن يؤدي إلى مثل هذه الاختلافات الهائلة في الأداء؟

ولماذا يشعر بعض الطلبة من الأقليّات والنساء (على الأقل فيما يتعلق بالرياضيات) بحساسية أكبر تجاه مثل هذه الأطر؟ رجَّح ستيل وزملاؤه أن تكون مثل هذه الأُطر محفِّزة لـ«تهديدات الصور النمطية»، التي يتسبَّب بموجبها هاجس التعرُّض للتقييم السلبي، أو حتى تأكيده، في قلق وتعطيل لقدرة الشخص على التركيز. تخلَّص من هذه التهديدات، وستتلاشى اختلافات الأداء.

ويرى هذا البحث أن الصور النمطية والتحيزات من الممكن -بطرقٍ خفيَّة ولكنها قوية- أن تؤثر في البيانات التي ستُستخدم لاحقًا كـ«دليل» على أن الصور النمطية موجودة بالفعل. وبتعبير آخر، يستشهد أشخاص مثل جيمس واتسون بالنتائج السيئة للاختبارات التي تؤكد تحيزاتهم ضد الأمريكيين من أصول إفريقية. إن هذه التحيزات تُسهم في خروج النتائج السيئة التي تُعزز التحيزات بدورها. وتتجلَّى هذه الدائرة الخبيثة في نطاق عريض ومتنوع من السياقات. ويمكن للصور النمطية السلبية أن تؤثر في الأشخاص بطرق تبدو مؤكِدة لهذه الأنماط المحددة، بغض النظر عمّا إذا كان هذا الفرد شخصًا مسنًّا يحاول تعلُّم تشغيل الحاسوب، أو اِمرأة تتعلم عملية علمية حديثة، أو أمريكيًّا من أصول إفريقية يخضع لاختبار تحديد مستوى القَبول في الدراسات العليا.

### أهمية الهوية

تكمن إحدى المفارقات المُحبِطة والناشئة عن ظاهرة تهديدات الصورة النمطية في الأشخاص الأكثر تضررًا.

تخيَّل أن هناك فتاة اسمها فينسا تجذبها الأرقام والألغاز الرياضية منذ صغرها. ويُترَجَم اهتمامها وحماسها في الدرجات الجيدة التي تحصل عليها في الرياضيات خلال المرحلتين الابتدائية والإعدادية، وحتى الصفَّين التاسع والعاشر: السن الذي يبدأ معه الشباب في سؤال أنفسهم: من أنا؟ ما الذي أريد أن أكونه؟ وعندئذٍ تبدأ فينسا في تخيُّل نفسها عالمة رياضيات، أو مهندسة، أو حتى عالمة صواريخ. وتضع هذه الهوية نصب عينيها، وتحاول متمهلةً الاستثمار أكثر فأكثر في أدائها.

ومع ذلك، تساورها شكوكٌ ـ يتردد صداها لدى أقرانها، وبعض مدرسيها، ومستشاري الكليات، والإعلام الذي يعزز دائمًا فكرة قصور النساء في الرياضيات (حسب ما قالته دمية باربي في العام ١٩٩٢، فإن «فصل الرياضيات صعب!»). كذلك، يتزايد تبادر هذه الشكوك إلى الذهن مع التعرُّض للتطور الطبيعي لموضوعات أكثر صعوبة في مجال دراستها. وتبدأ تلاحظ أن أساتذة الجامعات المتخصصين في الرياضيات والعلوم ممن تتطلع إليهم، أغلبهم من الرجال، ولأنها تحديدًا منخرطة انخراطًا كبيرًا في المجال، فإنها تتساءل بدرجة أكثر إلحاحًا ما إذا كان بوسعها كامرأة أن تدخل هذا المجال؟ وتشعر بمزيد من الضغط والتوتر عند خوض الفحوصات التأهيلية واختبارات الكفاءة، وتجعلها هذه التوترات المُضاعفة أكثر عرضة لأداء سيئ.

وهنا تكمن المفارقة، والدائرة الدائمة من انعدام المساواة التي تُخلِّدها الصور النمطية. لقد أظهرت الأبحاث أن الأشخاص الأكثر

حرصًا على أدائهم -أولئك الذين يراهنون على هوياتهم في أحد مجالات الإنجاز- هم أنفسهم الذين يبدون أكثر تأثرًا بالصور النمطية المرتبطة بالأداء السلبي في ذلك المجال. وكثيرًا ما يكون الانخراط الكبير فيما تقوم به عاملًا أساسيًّا من عوامل النجاح. بيد أنه عندما يكون مقرونًا بتهديدات الصور النمطية فإن هذا الحرص الكبير على التعريف بالهوية الذاتية قد يتسبَّب في جعل الأفراد أكثر عرضة للأداء السيئ!

وبشكل جزئي، تساعد هذه النظرة المتعمقة على توضيح كيف يمكن أن تتزايد فوارق الإنجاز بين النوعين، وبين الجماعات الإثنية/ العِرقية، كلما صعد المرء على درجات السُّلم التعليمي؟ الأمر الذي يأتي على خلاف المتوقَّع بأنها ستتناقص استنادًا إلى فرضية أن الأكثر موهبة وحماسة هم من يملؤون المراتب العليا. وتساعدنا هذه النظرة أيضًا في أن نرى كيف يمكن أن يعمل هذا الوضع على زيادة ترسيخ انعدام المساواة، بسبب تأثيره غير المتكافئ في الأشخاص، أمثال فينِّسا، الأكثر امتلاءً بالحماسة تجاه النجاح وتحدي الصور النمطية؟

وعندما يبدأ الطلبة الممتلئون بالحماسة -أمثال فينِّسا- في التعثُّر مع تزايد صعوبة المنهج، يكون من السهل أن تُعزى معاناتهم إلى أنها على الأرجح دليل قوي على تأصُّل الاختلافات في القدرة. إن الأمر يشبه تلك الجدلية التي تقول إن أي شخص بوسعه أن يسبح في حوض السباحة المخصص للأطفال، بيد أن السبَّاحين «الحقيقيين» هم من يستطيعون الطفو في المحيط. إلَّا أن هذه النظرة المتهكمة

تُغفل مرة أخرى النقطة الأساسية التي تشير إلى أن اختلافات الأداء طيِّعة، بل شديدة الحساسية تجاه الصور النمطية.

يُذكِّرنا علماء النفس مارجريت شيه، وتود بيتنسكاي، وناليني آمبادي، بهذه النقطة في دراسة مذهلة تبحث في أداء النساء الأمريكيات من أصول آسيوية في الرياضيات. وقبل إجراء اختبار في الرياضيات، سُئِلت مجموعة من النساء عن اللغة التي يتحدثن بها في المنزل، وعن عدد أجيال عائلاتهن التي عاشت في الولايات المتحدة، وهي أسئلة مُصمَّمة لتحفيز مشاعر الطالبات تجاه هوياتهن الأمريكية-الآسيوية، وتذكيرهن بها. فيما سئلت مجموعةٌ أخرى أولًا عمَّا إذا كُنَّ يُفضِّلن الطوابق السكنية المختلطة أم المنفصلة، وعن الأسباب التي ربما يُفضِّلن من أجلها الطوابق التي تفصل بين الذكور والإناث، وهي أسئلة مُصممة لتحفيز هذه المجموعة تجاه هوياتهن النوعية.

أمَّا مجموعة النساء الأمريكيات من أصول آسيوية اللاتي لم يُسألن عن أيٍّ من هوياتهن، فقد أبلين بلاءً حسنًا حيث كنَّ مسلحات بهوياتهن الأمريكيةِ - الآسيوية (التي توافق صورة نمطية إيجابيَّة متعلِّقة بالرياضيات)، أمَّا هؤلاء النسوة المُدركات لهوياتهن النوعية (التي توافق صورة نمطية سلبيَّة متعلِّقة بالرياضيات) فكان أداؤهن أسوأ. إن حقيقة انتماء جميع المشاركات انتماءً ظاهريًّا إلى المجموعة نفسها يعزِّز من صعوبة لصق القدرة بانتماء معين، أو حتى افتراض قدرتنا على تبيان تلك القدرة. إن الأمر لا يتعلق بحساسية هذه القدرة تجاه القولبة وحسب، بل في كوننا جميعًا نمثِّل توليفة فريدة من أعضاء المجموعة المختلفة أيضًا.

ربما يكون من الصعب جدًّا، لا سيما داخل ثقافتنا، أن نُقدِّر حقيقة أن الأداء الفكري من الممكن أن يكون طيِّعًا جدًّا. ففي المجلات والمواقع الإلكترونية، ننجذب كثيرًا إلى اختبارات تحديد مستوى الذكاء التي تَعِد بالكشف عن قدر ذكائنا «الفعلي». ونفشل رغم ذلك، مثلنا مثل واتسون وسامرز، في الانتباه إلى الكيفية التي يمكن للتحيزات والتوقعات السلبية أن تساعد في تحديد نتائج هذه الاختبارات.

توصلتُ أنا وزملائي، في بحثٍ خاص، إلى أن المفاهيم المرتبطة بالقدرة الفطرية لا تُحِّد من أداء الجماعات التي تلتصق بها صور نمطية سلبية، بل تمتد إلى ما هو أسوأ من ذلك. فمثلما حدث مع النساء الأمريكيات من أصول آسيوية اللاتي حُفِّزت داخل ذاكراتهن براعة آسيوية مُفترَضة في الرياضيات، وجدنا أن الصور النمطية تُعزِّز بالفعل من أداء الجماعات التي تلتصق بها أفكار نمطية إيجابية. وعندما يُدفع الأفراد نحو تصديق أن قدراتهم تُحدَّد عند مولدهم، يشعر أفراد الجماعات التي تلتصق بها صور نمطية إيجابية بقلق أقل عند اضطرارهم إلى تأدية مهمة معينة، نتيجة شعورهم بالاطمئنان إلى أن انتماءهم إلى تلك الجماعة يضمن لهم قدرة عالية. وبتعبير آخر، لا تُخلِّد هذه الصور النمطية فجوات الإنجاز وحسب، بل تزيد من حدَّتها.

## التفكير بطريقة مختلفة

إذًا، ما الذي يمكننا فعله حيال أيٍّ من هذا؟ كثيرًا ما يُصدِّق الأفراد أن قدراتنا الفكرية وتحيُّزاتنا مُتجذِّرة بعمق في تركيبنا الوراثي، وأن تغييرها أمرٌ غير وارد. ومرة أخرى، وعلى خلاف هذا، تظهر الأبحاث أن تحيزاتنا طيِّعة إلى حد كبير، وأن الظروف الاجتماعية تحدِّدها بدرجة كبيرة.

وعندما كنتُ طالبًا، وحتى عندما أتممتُ تدريبي كمُعلِّم، كان يتبادر إلى سمعي أن القراءة والكتابة والحساب هي ضرورات النجاح الثلاث. وهي ضرورات تُناقِض التركيز الذي يصبُّه المجتمع على مهارات يمكن قياسها وتقديرها عن طريق الاختبار باعتبارها أساس التعليم. بيد أن البحث يشدِّد على أهمية عنصر رابع وهو العَلاقات. إن تكوين عَلاقات اجتماعية مع مجموعات متنوعة من الأشخاص يُحِد من التحيُّزات والتوتر الاجتماعي، ويساعد على خلق تجارب إيجابية بين هذه المجموعات. وعلى هذا، تكون العَلاقات عاملًا رئيسيًّا في تكوين تحيزاتنا، وردود أفعالنا تجاه الوصم، وإنجازاتنا الأكاديمية.

وتشير الدراسات إلى أن الصداقات التي تتكَّون بين جماعات مختلفة تكون ذات فعالية في تحسين العَلاقات بين هذه الجماعات على نحوٍ خاص. فعلى سبيل المثال، يُظهر بحث قامت به المتخصصة في علم النفس الاجتماعي، ستيفانيا باوليني، بالاشتراك مع زملائها، أن الأشخاص الذين يكوِّنون صداقات مع أفراد ينتمون إلى

جماعات مختلفة من المُرجَّح أن تزداد قدرتهم على تكوين مواقف إيجابية تجاه تلك الجماعات، حتى لو كانوا أشخاصًا قد واجهوا عنفًا نتيجة نزاع بين تلك الجماعات.

لكن هل تؤثر هذه الصداقات على توجُّهات الأشخاص فعلًا؟ أم أن الأشخاص الذين يحملون قدرًا أكبر من التوجُّهات الإيجابية تجاه الجماعات الأخرى هم من تزداد احتمالية تكوينهم صداقات مع أشخاص من تلك الجماعات؟

توصلتُ أنا وزملائي، في بحثٍ خاص، إلى دليل على وجود تأثير فعلي للصداقات التي تنشأ بين الأعراق المختلفة. جِئنا بمشاركين كانوا قد واجهوا تحيزات بسبب أعراقهم في بادئ الأمر، وسهَّلنا عملية تكوين صداقات بينهم وبين أشخاص ينتمون إلى أعراق أخرى. وبمتابعة تواصل المشاركين مع المجموعات العرقية الأخرى مع مرور الوقت، أفاد المشاركون بأنهم يقضون وقتًا أكبر مع أشخاص ينتمون إلى أعراق أخرى. وفي الوقت ذاته، وعندما سهَّلنا تكوين صداقات بين مشاركين سبق لهم مواجهة تحيزات بسبب أعراقهم وبين آخرين ينتمون إلى العِرق نفسه، أكد المشاركون عدم حدوث تغيرات في تواصلهم مع أفراد الجماعات الأخرى. وحديثًا، وجدنا أن الطلبة المنتمين إلى الأقليات يشعرون بانتماء ورِضًا أكبر تجاه جامعاتهم عند تكوين صداقات مع أفراد ينتمون إلى جماعات أخرى.

يتعامل الكثيرون مع «الانتماء» باعتباره أمرًا من غير المُفترض أن

يُشكِّل أهمية كبرى للمهارات المدرسية الصعبة التي يسهل الترويج لها باعتبارها الأشياء الداخلة في الاختبارات الموحَّدة (تذكَّر ضرورات النجاح الثلاث). إلَّا أن الانتماء مهم، وخصوصًا لمن لديهم أسباب تجعلهم يشكُّون في أنهم غير مقبولين، أو في أنهم بالكاد مشمولون كرموز، بسبب نوعهم أو عِرقهم.

وحديثًا، قام عالما النفس جريجوري والتون وجيفري كوهين بتطبيق هذه الرؤية الثاقبة على برنامج تعليمي موجَّه إلى طلبة جامعيين أمريكيين من أصول إفريقية في جامعة نخبوية اشتهرت على مدار التاريخ بطلابها أصحاب البشرة البيضاء (تذكر مفارقة أن طلبة الأقليات الأكثر نجاحًا هم الأكثر عرضة لآثار تهديدات الصور النمطية). تم إخبار طلبة السنة الأولى أن القلق حيال الانتماء داخل الحرم الجامعي يساور جميع الطلبة بصرف النظر عن أعراقهم، وأن هذه المخاوف تقل مع الوقت. وهذه «المعلومة الاستدلالية الجديدة» على اقتضابها، ساعدت على تقليل المخاوف المتعلِّقة بالانتماء لدى الطلبة، وجعلها مؤقتة ومعيارية بما يكفي لأن يتزايد المعدل التراكمي لهؤلاء الطلبة في الفصل الدراسي الثاني، ويتناقص نظيره لدى الطلبة الأمريكيين من أصول إفريقية ممن لم يشاركوا في الأنشطة على نطاق الحرم الجامعي.

ومثلما يوضح عديد من المشاركين في هذه المختارات البحثية، فإن زيادة احتمالية خلق بيئات تعزز الانتماء والصداقات بين الجماعات المختلفة تتطلب ظروفًا معينة. وجزء من هذه الظروف هو مباركة وتأييد السلطات أو الهيئات، مثل أن تتبنى الجامعات

سياسات أو تتخذ خطوات مدروسة تجاه تيسير هذه العلاقات عن طريق تعيين أفراد ينتمون إلى الأقليات أو تنظيم فعاليات اجتماعية مُصممة لوضع الجماعات في تواصلٍ بعضها مع بعض. والجزء الآخر هو أن يتمتع أفراد الجماعات المختلفة بمكانة متساوية، بمعنى أن يشعر الجميع بأنهم يحظون بالمستوى نفسه من التقدير والترحيب في كيان اجتماعي معين.

ومن المثير للسخرية أن ما تفعله مدارسنا من تتبعٍ وترتيب للطلبة لا يعمل على ترسيخ التصورات المتعلقة بالقدرة الفطرية فحسب، بل يُشعِر بعض الطلبة بقيمة أكبر من تلك التي يعطونها لغيرهم، ويوصِّلون لهم أن المتواجدين في مواقع السلطة لا يتساهلون مع التواصل بين التكتلات المبنية على المسارات أو القدرات. وبهذا، لا تُقدم ممارسات التتبع والتراتبية عاملًا سامًّا واحدًا فحسب، بل اثنين يُسمِّمان جهود المساواة، وهي رسالة تنطوي على تأييد السلطة لعدم المساواة، وعلى أن الإجحاف مترسِّخ.

ومن حسن الحظ أن الطريقة التي ننظر بها إلى قدرتنا ليست محفورة في جيناتنا إلى الأبد، وفي مقدورنا أن نغير الكيفية التي ينظر بها الطلبة في بلادنا إلى القدرة والذكاء، إما باعتبارهما ثوابت أو أشياء يمكن تحسينها بالمجهود والعمل الجاد. وقد أجرت عالمة النفس ليسا بلاكويل، بالتعاون مع زملائها، تجربة عظيمة حول هذه المسألة، وأظهرت لطلبة الصف السابع الكيفية التي ينمو بها المخ مُكَوِّنًا روابط جديدة عند التعلم، مثل العضلات التي تتم تقويتها. لقد ذكَّر التمرين الطلبة أن بوسعهم تنمية ذكائهم. وفي اختبار

لاحق، تمكّن الطلبة من تحسين إنجازاتهم المتعلِّقة بالرياضيات من خلال الانتقال الصعب إلى المدرسة الإعدادية، في حين أظهرت مجموعة أخرى لم تتلقَ دروس بلاكويل تراجعًا.

في دراسة أخرى تركَّزت على فجوات الإنجاز بين المراهقين بشكل خاص، لجأت عالمة النفس كاثرين جود وزملاؤها إلى منهج مشابه يُعلِّم الطلبة أن المهارات المتعلِّقة بالرياضيات طيِّعة وغير ثابتة، وقد توصلت هذه الدراسة إلى اختفاء الفوارق النوعية في الأداء.

إن الجيد في الموضوع هو وجود إمكانية لتقليل فجوات الإنجاز عن طريق توعية الطلبة بإمكانية تحسين قدراتهم الأكاديمية، وأن هذا غير محددة بالأحماض النووية. والأفضل من ذلك هو أن هذه الأنشطة تبدو كما لو أنها «تنهض بالجميع» ـ بمعنى أن إنجازات الجميع تبدو مفيدة. أما الأفضل على الإطلاق، فهو أن تغيير التصورات الذهنية لدى الطلبة حول القدرة المحددة، ربما يُرسي هو نفسه أساس تقليل التحيُّزات: إذا لم تتحكم الجينات وحدها في قدر الذكاء الذي نتمتع به، فمن غير المنطقي أن نعتقد أن قدرات الأفراد تعتمد على عرقهم وإثنيتهم ونوعهم. نحن مدينون لجميع طلابنا بعوامل النجاح، وليس من نفترض نجاحهم وحسب.

وخارج قاعة لورنس للعلوم في بيركلي، يبدو كما لو أن هناك اتفاقًا بين الأطفال على أن الهدف من تسلُّق منحوتة الحمض النووي هو الصعود من أحد الأطراف وصولًا إلى الطرف الآخر دون لمس

الأرض، وهو عمل صعب ومخادع، نظرًا إلى أن الجزيئات تدور داخل لولب مزدوج. لم يتمكن ابني الصغير من تحقيق ذلك الهدف بعد، لكني أحاول تذكيره بأنه لم يولَد على علم بكيفية التسلُّق. إن عثراته وسقطاته لا تعني أنه لا يستطيع القيام بالأمر، بل تعلُّم كيفية القيام بذلك.

## المزيد من القراءات


• Mendoza-Denton, R., K. Kahn, and W. Chan. 2008. Can fixed views of ability boost performance in the context of favorable stereotypes? Journal of Experimental Social Psychology 44 (4): 1187–93.

• Shih, M., T. L. Pittinsky, and N. Ambady. 1999. Stereotype susceptibility: Identity salience and shifts in quantitative performance. Psychological Science 10 (1): 80–83.

• Steele, C. M., and J. Aronson. 1995. Stereotype threat and the intellectual test performance of African Americans. Journal of Personality and Social Psychology 69 (5): 797–811.

• Walton, G. M., and G. L. Cohen. 2007. A question of belonging: Race, social fit, and achievement. Journal of Personality and-Social Psychology 92 (1): 82–96.

# عندما تجعلنا العنصرية نمرض

إيڤ إيكمان وجيرمي آدم سميث

يقع مركز صحة باي فيو لرعاية الطفل خلف الشارع الثالث؛ الشارع الرئيسي بحيٍّ باي فيو هانترز بوينت في سان فرانسيسكو. على جانبي الشارع، تصطف حانات، ومتاجر صغيرة لبيع المشروبات الكحولية والخَضراوات، ومنافذ صرف شيكات، وحوانيت رهونات صامدة أمام عوامل الطقس. وينتظر العاملون في مجال النظافة وغيرهم من العاملين في الوظائف التي تقتضي ارتداء زيٍّ رسمي، ينتظرون المواصلات العامة متجهين إلى أشغالهم في وسط المدينة، في حين يتسكع الشباب والشابات عند النواصي في ملابس فضفاضة مثل التي يرتديها مطربو الهيب هوب. وعلى الرغم من أن باي فيو هانترز بوينت يمتلك أعلى تركُّز عائلي في سان فرانسيسكو، فإن مركز صحة باي فيو لرعاية الطفل ليس إلَّا مركزًا واحدًا من بين حفنة قليلة من عيادات الأطفال الموجودة في الحيِّ.

يُعاني مجتمع باي فيو الذي يغلب على سكانه الأمريكيون من أصول إفريقية من مجموعة مشكلات صحية. إن الانعزال الجغرافي

عن بقية سان فرانسيسكو يجعل من باي فيو بؤرة ساخنة من العنف والجريمة المُحاطة بمخاطر سُمِّية ناجمة عن صناعة بناء السفن بالحيِّ. وفقًا لتقييم صحيٍّ أجرته سان فرانسيسكو في العام ٢٠٠٤، فقد ظهرت زيادات في حالات التعرُّض للنوبات القلبية، والربو، واستخدام سيارات الإسعاف، بالإضافة إلى أن عدد الأطفال المولودين بوزنٍ منخفض عند الولادة في باي فيو يفوق أيَّ حيٍّ آخر في المدينة، ناهيك عن أن مُعدَّل وفيَّات الرُّضَّع في باي فيو هو الأعلى في كاليفورنيا كلها. بيد أن سوء الأحوال الصحية لسكان باي فيو لا يمكن عزوه فقط إلى العنف ورداءة نوعية الهواء ونقص الرعاية الصحية الملائمة والمخاطر البدنية الأخرى، ذلك أنها تواجه خطرًا آخر؛ خطرًا لا يقل إضرارًا بصحتهم حتى وإن كان تقديره أصعب: الشعور الدائم بالعجز.

ووفقًا لنادين بِرك، مديرة الشؤون الطبية في مركز صحة باي فيو لرعاية الطفل، فإن العيش في باي فيو يعني الشعور بعدم سيطرتك على قَدَرِك، وأنَّ حيَّك أضعف اقتصاديًّا واجتماعيًّا من المجتمعات المُحيطة. تقول بِرك: «يلعب النفوذ دورًا كبيرًا في عملي؛ فالمضمون اليومي هنا ينطوي طوال الوقت على انعدام أهميتك ونفوذك. وعندما تكون مُعرَّضًا يومًا بعد يوم لظروف معيشية سيئة وعنف وانعدام عدالة بيئية، فسيتسلل إليك شعور بانعدام أهميتك، وبأن صوتك غير مسموع، ويصبح من السهل أن تشعر بعدم امتلاكك أيَّ نفوذ».

لقد ربط البحث مشاعر العجز هذه بأنواع المُشكلات الصحية

التي يعاني منها سُكان باي فيو وغيرها من المجتمعات حول العالم، فأظهر أن أفراد المجتمعات الفقيرة لا يواجهون مستويات أعلى من العنف وحسب، بل يصبحون أكثر عُرضة لارتفاع ضغط الدم وتكرار التعرُّض لتزايد معدلات ضربات القلب؛ الأمر الذي يسهم في زيادة معدلات الوفيات. والأكثر من هذا، فإن الكائنات غير البشرية مثل الرئيسيَّات الأقل قوة تتعرَّض لمُشكلات صحية مشابهة. وإجمالًا، تخلُص هذه النتائج وغيرها إلى أن نفسية العجز من الممكن أن تُلحِق ضررًا بأشخاص يقعون عند درجة منخفضة على عمود الطوطم[1] في أي هيكل اجتماعي.

يقول روبرت م. سابولسكي، أستاذ علم الأعصاب بجامعة ستانفورد، إن «الفقر والحالة الصحية السيئة للفقراء متعلِّقان بأمور أبعد كثيرًا من بساطة عدم امتلاك ما يكفي من النقود، كعوامل الضغط التي يتسبَّب فيها مجتمع يتسامح مع ترك العديد من أفراده بعيدًا خلف الركب».

## معاناة العجز

لقد بلغ بحث سابولسكي أهمية كبرى في الكشف عن الرابط بين الشعور بالعجز والمشكلات الصحية طويلة الأمد، حيث وجد سابولسكي ومجموعة من زملائه، في سلسلة من الدراسات، أن البابون وغيره من الرئيسيات غير البشرية التي تأتي في مرتبةٍ دنيا

(١) عمود منحوت مزدان برسوم طوطمية (رموز مقدسة) يقيمه بعض الهنود الحمر أمام منازلهم.

في السُّلم الاجتماعي للفئات المنتمية إليها، تواجه مخاطر مستمرة من العنف الطبقي والتنمُّر على يد من يعلونهم. وتتلقى أجسادهم هذا الضغط بإفراز هرمون الكورتيزول، الذي يمنح الجسم دفقة زائدة من الطاقة تساعده في الركض والعراك قصير الأمد؛ وهو رد الفعل المعروف بـ«الكرِّ أو الفرِّ» أو «قاتل أو اهرب».

وعلاوة على ذلك، يشير سابولسكي إلى أن الرئيسيات بإمكانها تحفيز استجابات الإجهاد استنادًا إلى أسبابٍ نفسية بحتة؛ مثل أن نتذكر تهديدات سابقة، أو عندما يعترينا خوفٌ قديم يُصور لنا احتمالية تعرضنا لهجمة في أي وقت. وبالنسبة إلى حيوان رئيسي حَدَثَ أن كان ضحية في الماضي، فيمكن لأقل إثارة أن تُحفِّز استجابة إجهاد غير متناسبة مع حجم الضغط؛ مثل أن تتدفق كمية كبيرة من الكورتيزول.

وفي حين يمكن للكورتيزول أن يساعد الرئيسيات على مواجهة الخطر المباشر أو تجنبه، فإنه يتسبب، رغم ذلك، في ارتفاع ضغط الدم، وزيادة معدلات السكر في الدم، وإضعاف جهاز المناعة. وعلى هذا، تصبح الرئيسيات التي تشعر بتوتر على نحوٍ مستمر أكثر عُرضة لأمراض مثل ارتفاع ضغط الدم والتهاب الشرايين والسُّكر المقاوم للأنسولين، وتزداد قابليتهم لحدوث مشكلات في أجهزتهم المناعية والتناسلية، فضلًا عن تعرُّضهم للاضطرابات النفسية.

ومع أن الإنسان لا يواجه خطر العنف الدموي بالقدر نفسه الذي يواجهه البابون الواقع في مرتبةٍ دُنيا، فمن الممكن أن تُشعرنا

عوامل عديدة أخرى بالاستضعاف. لقد تمكّنت دراسات عديدة حول العالم من توثيق التفاوتات الصحية؛ ليس فقط بين الموسرين والمعوزين، ولكن أيضًا بين المتعلمين والأقل تعليمًا، والأغلبية الإثنية والأقليات، وغيرها من الجماعات التي يُحددها اختلال موازين القوى. وكشفت هذه الدراسات عن قِصَر الفترات العمرية لأفراد الجماعات المحرومة، في كل حالة، مقارنةً بمن يمتلكون نفوذًا أكبر داخل المجتمع. فعلى سبيل المثال، نجد أن معدل تعرُّض الرجال الأمريكيين من أصول إفريقية إلى السكتات الدماغية يزيد بمعدل ثلاث أو أربع مرات عن الذكور أصحاب البشرة البيضاء. وكذلك، تزيد نسبة تعرُّض أصحاب البشرة السوداء للوفاة بسبب السرطان عن أقرانهم من أصحاب البشرة البيضاء بمعدل ٣٠٪.

تُسمي أرلين جيرونيماس، مُحللة السلوك الصحي بجامعة ميشيجان، هذا الأمر بـ«تأثير التجوية». ووفقًا للتوثيقات التي شملها البحث الذي أجرته، فإن معدل إصابة أصحاب البشرة البيضاء والسوداء بضغط الدم المرتفع يكون متقاربًا وهم في سنِّ العشرين، بينما يصبح أصحاب البشرة السوداء أكثر عرضة للمرض عند وصولهم إلى منتصف العمر. وعلى نحوٍ مشابه، تميل الحالة الصحية للمهاجرين من أصول لاتينية إلى التدهور مع بقائهم في أمريكا، حتى مع زيادة دخولهم. وترى جيرونيماس أن الحالة الصحية للأقلية التي تعيش في مجتمع متحيِّز تضعف مع الوقت، ومع تراكم الضغوطات، وتَولُّد شعور بالعجز.

يؤيد بحثٌ آخر الأمر، مضيفًا أن المسألة لا تقتصر على عوامل

محيطة مثل قلة فرص الحصول على الرعاية الصحية أو الطعام الطازج. فعندما قام إيشيرو كاواتشي وزملاؤه بتحليل شريحة تمتدُّ على مدى عامين من بيانات تعداد الولايات المتحدة، وتغطي وفيات ما يقرب من أربع مئة ألف شخص، انصبَّ تركيزهم على الوفاة جراء أمراض ليس لها دواء أو علاج أو طرق وقائية معروفة. وبما أن المعافاة من هذه الأمراض لا يمكن شراؤها بأي مبلغ مالي، فقد افترض كاواتشي أنها ربما تصيب من يمتلكون النفوذ ومن لا يمتلكونه بالدرجة نفسها، بصرف النظر عن الدخل. ومع ذلك، فقد وصل تحليله إلى نتائج مختلفة وهي زيادة احتمالات وفاة الأشخاص الواقعين في أدنى درجات السُّلم الاجتماعي والاقتصادي، وذلك على الرغم من أن القدرة على تحمُّل الرعاية الصحية والحصول عليها ما كان ينبغي لها أن تشكِّل أيَّ ميزة. وقد لفت ذلك نظر كاواتشي إلى أن الشعور بالنفوذ ربما يؤثر في الصحة أكثر من المنافع المادية المرتبطة بالدخل المرتفع.

وإذا كان كاواتشي استدلَّ على النفوذ من خلال الوضع الاجتماعي والاقتصادي، فإن دراسات أخرى وجدت أن التفاوتات الصحية ربما تكون نابعة من الشعور بالتمييز. وترى فيكي مايز، رئيسة قسم صحة الأقليات بجامعة كاليفورنيا في لوس آنجلوس، أن التمييز والشعور به من الممكن أن يكونا مؤثرين بنفس درجة تأثير وقوع المرء في مرتبةٍ دنيا من السُّلم الاجتماعي الاقتصادي، بما يتبعه ذلك من آثار سلبية مشابهة لتلك التي توصَّل إليها سابولسكي مع البابون. وفي ورقة بحثية منشورة في الحوليَّة السيكولوجية *Annual*

*Review of Psychology* الصادرة في العام ٢٠٠٧، راجع مايز والكُتّاب المشاركون مجموعة من الأدلة التي تُظهِر كيف يمكن للتمييز الملحوظ أن يُنشِّط استجابة الإجهاد التي تُتَرجَم إلى تدهورٍ في الحالة الصحية لضحايا ذلك التمييز. وعلى سبيل المثال، تخلُص الورقة إلى أن النساء الأمريكيات من أصول إفريقية في أعلى قمة السُّلم الاجتماعي الاقتصادي يواجهن خطرًا أكبر فيما يتعلق بإنجاب أطفال بأوزان منخفضة عند الولادة، مقارنةً بالنساء الأمريكيات البيضاوات.

يمكن للضغط الناتج عن التمييز أن يؤدي، كذلك، إلى سلوكيات خطرة. فعلى سبيل المثال، تتبَّع فريق من علماء الأوبئة ٣٣٠٠ شخص بالغ، من البِيض والسود، في أربع مدن أمريكية على مدار ١٥ عامًا، وتوصلوا إلى أن ٨٩٪ من السود، و٣٤٪ من البيض شعروا في نقطة معينة بتعرضهم للتمييز، وأن هؤلاء الأفراد كانوا أكثر عُرضة للتورط في سلوكيات خطرة كالشرب والتدخين وتناول العقاقير غير القانونية.

وجدت الدراسة أيضًا أن احتمالية الإقرار بالتعرض للتمييز تزداد مع الأمريكيين من أصول إفريقية من المتعلمين والمُوسِرين، على خلاف البيض. وتقول لويزان. بوريل، المؤلفة الرئيسية للدراسة وأستاذة علم الأوبئة بجامعة كولومبيا، إن «هذا منطقي بسبب تزايد احتمالية تفاعل الأمريكيين الفقراء من أصول إفريقية مع أشخاص يشبهونهم»، مشيرة إلى تزايد احتمالات تفاعل الأمريكيين من أصول إفريقية الموسرين والمتعلمين تعليمًا عاليًا مع أشخاص ذوي بشرة بيضاء، الأمر الذي يُسهِّل شعورهم بالاختلاف، ويزيد من

حساسيتهم تجاه التميز. وفي الوقت ذاته، كثيرًا ما يأتي أصحاب مستويات الدخول الأكثر انخفاضًا من ذوي البشرة البيضاء ضمن الأقليات داخل مجتمعاتهم، ومن ثم يتلقون «ضربة مزدوِجة»: الشعور بالفقر وانعدام الانتماء العرقي.

يشير روبرت سابولسكي إلى أن الظروف الاجتماعية والاقتصادية المنخفضة، كثيرًا ما تسهم في خلق آثار مشابهة، جنبًا إلى جنب مع التميز العرقي، ويوضح: «تصبُّ الظروف الاجتماعية والاقتصادية والتميز العرقي في العوامل ذاتها المُسبِّبة للضغوطات النفسية؛ وتحديدًا فقدان السيطرة والتوقُّع، والافتقار إلى وسائل التكيف والأنظمة الثابتة التي تترك مساحة صغيرة للتفاؤل».

ووفقًا للبحث المُشار إليه أعلاه، فإنه لا توجد صيغة بسيطة يمكن من خلالها تحديد مستوى النفوذ الذي يحظى به شخص معين؛ إن الأمر ليس سهلًا سهولة اعتماد الأمر على عامل واحد كالظروف الاجتماعية الاقتصادية، بل إن الشعور بالنفوذ الشخصي يتشكَّل بتأثير مجموعة متنوعة من العوامل البيئية والاجتماعية المُختَبَرة ذاتيًّا. تقول بوريل بأن الظروف الاجتماعية تأخذ حجمها وفقًا لرؤية صاحبها، موضحة: «إن معرفة المسافة التي تفصل بينك وبين الشخص المجاور لك على السُّلم هو ما يؤثر عليك ويخلق الضغط».

ودعمًا لهذه الحجة، تلفت بوريل النظر إلى بحث معنيٍّ بعلاقة الدخل بالسعادة الشخصية. فمثلًا، وجدت دراسة صادرة في العام

٢٠٠٥، كان عالما الاجتماع جلين فايرباو ولورا تاك قد أجرياها، أن مستوى السعادة الذي يقرُّ به الأفراد في الولايات المتحدة لا يعتمد على مستوى دخل الفرد بقدر اعتماده على مستوى دخلهِ مقارنةً بما يجنيه أقرانه في الفئة العمرية ذاتها؛ إن التفاوتات الكبيرة في دخول الأفراد من الممكن أن تجعلهم غير سعداء وتحت الضغط، حتى عندما تكون الدخول الصافية مرتفعة نسبيًّا.

## إنجاح الأمر

ما الذي يمكن فعله لمواجهة هذه التفاوتات الصحية؟ تُجادِل بوريل بأنه لا يوجد الكثير الذي يمكن للمتخصصين الصحيين القيام به؛ بحكم أن طبيعة المشكلة سياسية ومجتمعية، موضحة: «إن الأمر يتجاوز المستوى الفردي، وبحاجة إلى مواجهة من هيكل المجتمع».

وهو ما يتفق معه إيشورو كاواتشي، عالم الأوبئة بجامعة هارفارد، والذي وضع مجموعة سياسات اجتماعية من شأنها أن تكون فعَّالة في الوصول إلى قدر أكبر من المساواة الاقتصادية الاجتماعية، ومن ثم إلى صحة أفضل، إذ يقول: «يمكنك مثلًا الاستثمار في التعليم من أجل منح الأفراد بداية ملائمة للحياة. ويمكننا تقديم إعانات رعاية طفل، بما أن هذا الأمر يُشكل ضغطًا كبيرًا على الأمهات ذوات الدخول المنخفضة؛ لا سيما اللاتي يقمن برعاية أطفالهن وحدهن. ويمكننا زيادة تأمين البطالة وتوسيع نطاق القدرة على الوصول إلى الرعاية الصحية. إن هذا الأمر مثير

للجدل في الولايات المتحدة دون غيرها؛ لأن المجتمعات الأخرى تتعامل مع الرعاية الصحية باعتبارها حقًّا إنسانيًّا أساسيًّا».

يلفت كاواتشي إلى أن التصدي للتفاوتات الصحية يستلزمُ من مسؤولي الصحة تجاوز مكاتبهم وعياداتهم والدخول إلى عوالم السياسات الحكومية والاجتماعية، مشيرًا إلى أنه «يتعيَّن على المتخصصين في مجال الصحة أن يكونوا من بين أولِ مَن يبادر بتعليم السياسيين وواضعي السياسات وعامة الناس؛ في وُسع الطب أن يسهم إسهامًا كبيرًا في مواساة الأفراد. إن التفاوتات الصحية داخل مجتمعنا تعود في جوهرها إلى فشلٍ يعتري السياسات الاجتماعية».

نادين بِرك التي لا تنتهي حدود عملها عند مركز صحة باي فيو لرعاية الطفل، تتبع هذا النهج بالمشاركة في عدد لا يُحصى من اللجان وجلسات الاستماع والتخطيط، فضلًا عن التزامها الشغوف تجاه امتلاك عيادة تعكس قوام المجتمع المحيط واحتياجاته.

وتشدد بِرك على ضرورة أن يضع المجتمع نفسه خطة تغيير تتصدى للتفاوتات الصحية الناشئة عن اختلافات القوى، لافتة إلى وجود «انقطاع في التواصل» بين أفراد المجتمع والخبراء الذين يعملون على دراستهم، والذين يمكن لتوصياتهم ومعالجاتهم أن تؤجج مشاعر العجز. وتوضح: «من ينخرط في محاولات إيجاد حلول لا يُشترط أن يكون قادرًا على فهم المشكلات بطريقة تُمكِّنه من مواجهتها على النحو المناسب».

وفي الوقت الذي تسعى فيه بِرك إلى تمكين مجتمعها عبر مكتبها

الطبي، يحاول نشطاء مجتمعيون تغيير موازين القوى في أحيائهم؛ ومن بين هؤلاء إسبانولا جاكسون التي يُطلَق عليها أحيانًا لقب «أم باي فيو». وعلى مدار ثلاثين عامًا، قادت جاكسون حملات تدافع عن قضايا مختلفة، بداية من الإسكان ميسور التكلفة إلى الخروج في حشود مُطالِبة بتوفير فرص تدريب مهني وتعليمي. أما اليوم فمعركتها الأولى هي تنظيف حوض بناء السفن المُسمَّم والملوَّث إشعاعيًّا في باي فيو، والذي تسبب في مرض العديد من سكان باي فيو هانترز بوينت. لقد لاحظت جاكسون أن الشعور بالعجز يضرب صحة المجتمع؛ وهي التي ترى أن التغلب على اللامبالاة وتشكيل قوة سياسية هما السبيل إلى صحة أفضل، إذ تقول: «يجب أن يتخلى الجميع عن تقاعسه، وعن ترك السياسيين يقررون نيابة عنهم ما هو الأفضل»، مشيرة إلى أن ٢٠ ألف شخص فقط من بين ٦٠ ألف ناخب مُحتَمَل في باي فيو هم من يُدلون بأصواتهم. وتوضح جاكسون أننا «بحاجة إلى تلك القوة» لتحسين الصحة في باي فيو.

تُدرك بِرك أن المشكلات الناجمة عن العجز لن تنتهي بين ليلة وضحاها، وتعتبر عملها جزءًا من مجهود طويل الأمد يسعى إلى خلق نفوذ للمجتمع. وتقول: «من المهم أن يكون لنا عيادتنا هنا في باي فيو، بالنظر إلى ما عانته من فقر وفقدان أمل كبيرين. إن البقاء هنا وإنجاح الأمر هو أحد أكثر الأشياء المهمة التي يمكنني القيام بها، وأعتقد أن هذا يبعث رسالة قوية تفيد بأن لدينا نحو عائلاتنا ما يكفي من التقدير الذي يجعلنا حريصين على توفير أعلى مستويات الجودة من الموارد؛ لأنهم يستحقونها».

# العنصري غير الصحّي

إليزابيث بيدج-جولد




عند التفكير في ضحايا العنصرية، فعادة ما يتبادر إلى أذهاننا الأهداف المباشرة للتعصب العرقي؛ وهم أولئك الذين عانوا التمييز والقهر. بيد أن بحثًا جديدًا أشار إلى وجود ضحايا آخرين لا يخطرون على البال - وهم العنصريون أنفسهم.

إن تجنب محادثة أفراد ينتمون إلى أعراق أخرى يكاد يكون مستحيلًا في المدن العملاقة بكندا والولايات المتحدة، وإذا كان جسدك يُصدر ردود فعل عصبية حادَّة في كل مرة تتعرَّض فيها لمثل تلك المواقف، فلك أن تتخيَّل كيف ستكون النتيجة: تدفُّق هرمونات التوتُّر، وضخ أقوى من قلبك، وانقباض في أوعيتك الدموية؛ وهي أمور تعيق تدفُّق الدم إلى مخك وأطرافك.

وعلى الرغم من أن هذا النوع من الاستجابات الجسدية يكون مفيدًا في المواقف التي تشكِّل خطرًا حقيقيًّا، فقد توصَّلت دراسات حديثة إلى أن الأشخاص المتحيِّزين عنصريًّا يختبرون هذا النوع من الاستجابات حتى خلال التفاعلات الاجتماعية البسيطة مع

أشخاص ينتمون إلى أعراق مختلفة؛ ما يعني أن مجرد التواجد في محل البقالة والمقهى أو بيئة العمل العصرية ربما يكون مُجهِدًا لهم. وإذا كان الشخص العنصريُّ مضطرًّا إلى مواجهة هذه الأمور بصفة يومية، فيمكن للضغط أن يصبح مشكلة مزمنة؛ الأمر الذي يُعرِّضه أو يُعرِّضها لزيادة احتمالات الإصابة بالمرض في فترة لاحقة من الحياة.

يبدو أن إضمار التحيُّز ربما يكون ضارًّا بصحتك.

## تحدٍّ أم تهديد

على الرغم من أن جسم الإنسان يتكيَّف مع الظروف الضاغطة بشكل لا يصدقه عقل، فإن استجابة أجهزتنا العصبية إزاء الظروف الضاغطة التي ننظر إليها باعتبارها تحديات تختلف عن تلك التي نستقبلها باعتبارها تهديدات. وهو اختلافٌ، على المدى الطويل، يمكن أن يكون اختلافًا بين الحياة والموت لمن يُضمرون هذا التحيُّز العنصري.

وفي الوقت الذي تُحفِّز فيه التحديات سلسلة من الاستجابات الفسيولوجية التي تنقل المزيد من الدم إلى العضلات والمخ؛ محسنةً بذلك أداءنا الذهني والبدني، فإن التهديدات تعمل، في المقابل، على إثارة استجابات فسيولوجية تعيق تدفُّق الدم وتتسبَّب في إفراز هرمون الكورتيزول الذي يفتِّت الأنسجة العضلية ويعطِّل عملية الهضم حتى يتمكَّن الجسم من استجماع طاقته التي يحتاجها

لمواجهة التهديد سريعًا. وبمُضي الوقت، تتسبب هذه الاستجابات في إرهاق العضلات، بما في ذلك القلب، وتُدمِّر الجهاز المناعي.

وبتعبير آخر، فإن مواجهة التحديات أمرٌ جيد لك، في حين أن مواجهة التهديدات غير جيدة. وعلى حسب الطريقة التي تستقبل بها التفاعلات العرقية، تحديًا أو تهديدًا، ربما يكمن جوهر الازدهار في المجتمعات متعددة الثقافات.

في إحدى الدراسات، قامت ويندي بيري مِندز وجيم بلاسكوفيتش، وزملاء لهما، بدعوة رجال أمريكيين من أصول أوروبية إلى المختبر، للمشاركة في تجربة اجتماعية بمعِيَّة رجال أمريكيين من أصول إفريقية أو آخرين من العرق نفسه الذي ينتمون إليه. وتمَّ توصيل المشاركين بجهاز يقيس استجابات أجهزتهم العصبية اللاإرادية وهم يلعبون بِوَجلٍ مع شركائهم أصحاب البشرة البيضاء أو السوداء. وفي أثناء التعاملات التي جرت بينهم وبين الأمريكيين من أصول إفريقية، كان الرجال أصحاب البشرة البيضاء يستجيبون كما لو كانوا يواجهون تهديدًا فسيولوجيًّا، إذ ظهر ذلك في الدم المتضائل الذي يُضخ عبر القلب وفي انقباض الجهاز الدوري. وعلى الجانب الآخر، كان الأمريكيون من أصول أوروبية ممن سبق وكانت لديهم تجارب جيدة مع أمريكيين ينحدرون من أصول إفريقية، هؤلاء كانوا يستجيبون كما لو كانت اللعبة تُمثل تحديًا، الأمر الذي أسهم في زيادة ضخ الدم عبر القلب وفي تمدد الجهاز الدوري.

هذه ليست نتيجة استثنائية؛ ففي إحدى الدراسات التي أجريتُها مع رودولفو مِندوزا- دينتون وليندا تروب، قمتُ عشوائيًا بحشد مشاركين لاتينيين وأمريكيين من أصول أوروبية، وتكوين مجموعات على شكل أزواج من العرق نفسه ومن أعراق أخرى، وجعلنا بعضهم يُفضي بمعلومات شخصية إلى بعض. وقد قدَّم المشاركون، في بداية التجربة الاجتماعية ونهايتها، عينات لُعاب لقياس استجابات الكورتيزول تجاه التفاعلات الاجتماعية. وأظهر المشاركون اللاتينيون والأمريكيون من أصول أوروبية ممن يقفون عند نقطة عالية على مقياس التحيُّز التلقائي -النقطة التي يتم عندها ربط مجموعات إثنية محددة بتوصيف «سيئ» و«جيد»- أظهروا زيادات في إفراز الكورتيزول خلال التعاملات الودودة مع شريك المجموعة المنتمي إلى عِرق آخر، ونسبة أقل عند التعامل مع شريك ينتمي إلى العِرق نفسه. وفي المقابل، لم يتعرض المشاركون الواقفون عند مستوًى منخفض من التحيُّز إلى الضغط خلال تعاملاتهم مع الأعراق الأخرى أو مع العِرق نفسه.

وبتعبيرٍ آخر؛ استقبل المتحيِّزون شركاءهم المنتمين إلى عِرق مختلف باعتبارهم تهديدًا ماديًّا، وذلك على الرغم من أنهم كانوا في نطاق مختبر آمن، وكانوا يتشاركون مهمة تهدف إلى تعزيز التقارب بين المجموعات الزوجية المشاركة. الأمر يسري على المتحيِّزين اللاتينيين والأمريكيين من أصول أوروبية على حدٍّ سواء. تخيَّل هؤلاء الأفراد أنفسَهم وهم يحاولون التفاوض على مشهد في شارع متعدد الأعراق أو على اجتماع عمل.

في دراسة أخرى؛ دعت ويندي مِندز وزملاءُ لها، أمريكيين ينحدرون من أصول أوروبية إلى المشاركة في استطلاع إلكتروني لقياس مستويات التحيُّز التلقائي ضد الأمريكيين من أصول إفريقية. وفيما بعد، دُعيَ هؤلاء المشاركون إلى مختبر يقوم بعملية التقييم فيه أمريكيون من أصول أوروبية أو إفريقية؛ هكذا كما لو كانوا في مقابلة وظيفية. ومرة أخرى، ومثلما حدث في الدراسة التي أجريتُها مع زملائي، تزايد إفراز الكورتيزول لدى المشاركين المتعصبين نسبيًّا ـ وفي الوقت نفسه، أفرزت أجسامهم مستويات منخفضة من DHEA-S؛ وهو هرمون يساعد على معالجة تلف الأنسجة الناتج عن استجابة «الكرِّ أو الفرِّ» المُرهِقة. وعلى الجانب الآخر، أظهر المشاركون الذين يتسمون بقدر أكبر من المساواة -ممن يقفون عند مستويات دنيا من التحيُّز التلقائي- زيادة في إفراز DHEA-S بدرجة أكبر من الكورتيزول؛ ما يشير إلى أنهم استقبلوا التقييم باعتباره تحديًا صحيًّا أكثر منه تهديدًا.

## مجتمع صحي؟

خلاصة القول واضحة: إضمار العنصرية في مجتمع متعدد الثقافات يتسبَّب في ضغطٍ يومي؛ الضغط الذي يمكن أن يؤدي إلى مشكلات مزمنة مثل السرطان وارتفاع ضغط الدم وسكري النوع الثاني. وعلى الرغم من أن التفاعلات بين الأعراق المختلفة ليست أمرًا ضاغطًا في طبيعته، فإن الأشخاص الأقل تحيُّزًا يُظهِرون استجابات فسيولوجية مختلفة اختلافًا ملحوظًا عند التعامل مع

أعراق أخرى. وفي هذه الدراسات الثلاث، كان الأشخاص الذين يحملون توجهات إيجابية تجاه غيرهم من المنتمين إلى أعراق أخرى يستجيبون بطرق سعيدة وصحية ومتكيِّفة عند التعامل مع أعراق مختلفة.

إن هذه التوجهات الإيجابية يمكن اكتسابها؛ فالأشخاص المتحيِّزون ليس محتومًا عليهم أن يكونوا على هذه الشاكلة إلى الأبد. وفي دراسة خاصة أجريتُها على مشاركين لاتينيين وأمريكيين من أصول أوروبية، قمنا عشوائيًّا بتكليف المشاركين -أولئك الواقعين تحت ضغط ملحوظ نتيجة إجراء محادثات بسيطة مع أعراق أخرى- بإتمام سلسلة مهام تهدف إلى بناء صداقات خلال عدة أسابيع مع أشخاص ينتمون إلى عرق آخر. وعلى مدار الأسابيع العديدة التالية، لاحظنا تراجع معدلات الكورتيزول لدى المشاركين المتحيِّزين؛ وهو توجُّه استمر خلال جلسات تكوين الصداقات. وعلاوة على ذلك، خلال الأيام العشرة التي تلت آخر جلسة صداقة، سعى المشاركون المتحيِّزون الذين كوَّنوا صداقة مع شخص ينتمي إلى عِرق آخر داخل المختبر نحو المزيد من التعاملات اليومية مع أعراق أخرى لاحقًا.

إن الأمر في غاية البساطة: يبدو أن تكوين صداقات مع أشخاص ينتمون إلى أعراق أخرى يمنع الشعور بالضغط غير الصحي، ومن ثَمَّ، يمكن استقبال كل تفاعل جديد باعتباره تحديًا وليس تهديدًا. وفي المجتمعات متعددة الأعراق، يتميز أولئك الذين

يشعرون براحة مع أشخاص ينتمون إلى أعراق أخرى عن غيرهم ممن لا يشعرون براحة. ولهذه النتائج انعكاسات كبيرة الأثر على الطريقة التي نصمِّم بها أحياءنا ومؤسساتنا، فهي بالفعل تلفت إلى احتمالية أن يكون لسياسات الخلط بين الأعراق -التمييز الإيجابي على سبيل المثال- أثر جيد على أصحاب البشرة البيضاء مثلما هو الحال بالنسبة إلى الأشخاص أصحاب البشرة الملوّنة. إن مستقبل صحة الأشخاص المتعصبين ليس منقوشًا على حجر؛ لكن إذا كانوا على استعداد للمبادرة بالخطوة الأولى والتواصل مع أشخاص ينتمون إلى جماعات أخرى بطريقة ودودة، فربما يتعلمون الازدهار داخل مجتمع شديد التنوع.

## المزيد من القراءات


• Blascovich, J., W. B. Mendes, S. B. Hunter, B. Lickel, and N. Kowai-Bell. 2001. Perceiver threat in social interactions with stigmatized others. Journal of Personality and Social Psychology 80:253–67.

• Mendes, W. B., H. M. Gray, R. Mendoza-Denton, B. Major, and E. S. Epel. 2007. Why egalitarianism might be good for your health: Physiological thriving during stressful intergroup encounters. Psychological Science 18:991–98.

• Page-Gould, E., R. Mendoza-Denton, and L. Tropp. 2008. With a little help from my cross-group friend: Reducing anxiety in intergroup contexts through cross-group friendship. Journal of Personality and Social Psychology 95 (5): 1080–94.

# العقل المساواتي

ديفيد أموديو

مثلما توضح سوزان فيسك وكريم جونسون في أول مقالتين من هذه المختارات، فقد توصَّلت أبحاث جديدة في علم الأعصاب الاجتماعي إلى أن ردود الأفعال المتحيِّزة مرتبطة بتركيبات متسارعة النشاط في المخ، وهي تركيبات كانت قد شهدت تطورًا منذ أمدٍ طويل عبر تاريخ تطورنا؛ فهل يعني هذا أن العنصرية مُبرمَجة داخل دوائرنا العصبية؟

وبمعزل عن هذا، فإن أحد الأمور التي نعرفها من علم الأعصاب هو أن مخ الإنسان مُصمَّم ليكون مَرِنًا فيما يخصُّ الكيفية التي نستجيب بها لبيئتنا الاجتماعية. وعلى الرغم من أن الاستجابات الطبيعية التي تُعزِّز أماننا ووجودنا من الممكن أن تؤدي إلى تحيُّزات غير مقصودة؛ متسببة في ردود أفعال تلقائية من الذعر والارتياب عند لقاء شخص ينتمي إلى مجموعة عِرقية أخرى، فهنالك ما هو أكثر من الخوف في مخ الإنسان، ذلك أننا أيضًا مُهيؤون للتعاون والإنصاف. إن إجراء بحوث عن التحيز

من منظور علم الأعصاب يكشف لنا، بطريقة متزامنة، عن جذور المساواة والطرق الجديدة التي يمكن للمخ من خلالها أن يتغلَّب على الانحيازات والمخاوف الأولية.

## غمضة عين

لفَهم علاقة التحيُّز بالمخ، يجب أن يتعامل المرء مع المخ (والعقل) على حقيقته وهي أنه: وسيلة نجاة. ذلك على الرغم من أن هذه ربما لا تكون الطريقة الأكثر رومانسية لوصف العضو الذي هلَّل له شُعراء، مثل: إيميلي ديكنسون بوصفه «أوسع من السماء» و«أعمق من البحر». لكن، وفي الوقت الذي يمكن فيه لوعينا أن ينشغل بأفكار عظيمة، يستمر عمل المخ في الخلفية مثل مساعد شخصي يهتم بالتفاصيل حتى لا نضطر نحن إلى التفكير فيها بشكل واعٍ.

يشمل هذا بالطبع الأمور البسيطة، مثل: التنفس وتنظيم معدل ضربات القلب أو تحويل النظر إلى أشياء خطرة، ويشمل إلى جانب ذلك استجاباتنا التي تظهر عند التهديدات، وتنطوي على تسارع التنفس وتزايد معدل ضربات القلب وتحوُّل مسار الدم إلى العضلات الأكبر؛ استعدادًا للكرِّ أو الفرِّ. وعلى الرغم من أن هذه الاستجابات طبيعية وتعزز أماننا ووجودنا، فإنها للأسف ربما تقودنا في بعض الأحيان إلى تحيزات وسلوكيات قائمة على التمييز.

بيد أن القصة لا تقف عند ذلك الحد، ذلك أن فهم الكيفية التي يتغلب بها المخ على ردود الأفعال الأولية تجاه العِرق يتطلب وضع

تاريخ تطوره في الاعتبار. لقد كانت الآليات الأساسية المُتحَكِّمة في ردود الأفعال الأولية والأحكام السريعة موجودة في أدمغة أجدادنا القدماء، ولا يزال التكوين هو نفسه في أدمغتنا إلى اليوم، وتحديدًا تحت القشرة المُخيَّة. وتكون هذه الآليات البسيطة نسبيًّا التي تكشف من ينتمي إليـ«نا» ومن ينتمي إليـ«هم» -ومعاملة الآخرين تلقائيًا باعتبارهم تهديدًا- مفيدة إلى حد كبير للكائنات التي تعيش في مجتمعات أوَّلية لا تتطلب تعاونًا مع مجموعات خارجية.

إلَّا أنه مع كل خطوة من خطوات تطورنا؛ كانت الشبكات الاجتماعية للرئيسيات تنمو وسط تعقيدات، وكانت المطالبات الضمنية بوجود تفاعلات اجتماعية تتزايد بصورة هائلة. وجنبًا إلى جنب مع هذه التغيرات، حدثت زيادات ضخمة في حجم المخ. وحاليًّا، يعيش البشر في مجتمعات متعددة الثقافات تربطها أحياء وأماكن عمل وتراتبية سياسية، وولايات ودول وأقاليم دولية - ويعتبر التكافل السِّلمي هو مفتاح استمرارنا في الحياة. ووسط هذه التعقيدات المجتمعية الجديدة، لا تعود آلية العقل الأساسية -التي عززت بقاء أجدادنا المتطورين- متكيفة بدرجة كبيرة في القرن الحادي والعشرين.

إن حجم المخ لم يتزايد خلال عملية التطور بسهولة، إذ طوَّر هياكل جديدة كليًّا. وعلى نحو محدد، قام مخ الثدييات بتطوير قشرة مخية جديدة -طبقة «المادة الرمادية» الخارجية للمخ- نمت فوق القشرة المخية القديمة (يُطلق عليها أحيانًا: مُخ «الزاحف»).

وتُقدِّم القشرة المخية الجديدة آلية لتحسين وتعزيز مهام الهياكل تحت القشرية، مثل تزويد السيارة بنظام توجيه آلي ووقود لتحسين أدائها.

بالقياس مرة أخرى على السيارة: تخيَّل أن المخ يوجه السلوك مثلما يقود الفرد السيارة؛ تخيَّل أن مراهقًا في درسٍ لتعليم القيادة هو القشرة المخية، وأن مُعلمته الخبيرة التي تجلس إلى جانبه بمِقودها الخاص وكوابحها هي القشرة المخية الجديدة. يُبلي التلميذ بلاءً حسنًا في أغلب الحالات، لكن عندما يحين الوقت لصَفِّ السيارة بمحاذاة الطريق -وهي حركة متقدمة- ربما يتعين على المُعلمة تولي زمام القيادة. لا يحدث تعارض بين السائقين، لأن هدف الاثنين هو صفُّ السيارة. بيد أنه من أجل تأدية هذه المهمة المعقدة على نحوٍ فعَّال، يحتاج الطالب إلى مساعدة معلمته. وعلى هذا الأساس، يمكن القول: إن مهمة القشرة المخية الجديدة هي التحكُّم في سلوكيات الأفراد من خلال السيطرة على ردود أفعالهم الفورية -التي أحيانًا ما تكون غير ملائمة- تجاه الأشخاص المنتمين إلى جماعات أخرى.

## علم أعصاب المساواة

كيف تحتفظ القشرة المخية الجديدة بتحيُّزاتنا بعيدًا؟ ربما يتفق معظم الأشخاص على أن السلوك غير المتحيِّز هو الذي ينطوي على معاملة الأشخاص بطريقة متساوية، بصرف النظر عن الجماعة التي ينتمون إليها. وفي الحقيقة، فإن ما نعنيه فعلًا بـ«السيطرة على

التحيزات» هو التمسك بهدف الفرد من التواصل -سواء كان ذلك التواصل بغرض معرفة الطريق أو تقييم شخص مُتقدم إلى وظيفة- دون التأثر بعرق (أو نوع، أو ميول جنسية، أو غير ذلك).

وفي الوقت الذي تُشير فيه الدراسات إلى أن الأشخاص غير قادرين بشكل عام على تجاهل شعور قوي أو فكرة نمطية بشكل متعمد، فإنهم يمتلكون قدرة شديدة الفعالية على الاستجابة تجاه هذه الأفكار أو المشاعر بطريقة تُخفي تعبيرات التحيز الحقيقية. وبتعبير آخر، يمكن أن يتغلب الأشخاص على العنصرية بالتركيز في المكافأة. وكذلك، لا يمكن للمخ أن يكون مناهضًا للعنصرية في حد ذاتها، ذلك أنها لا تنفك تكشف عن اختلافات وتُصنِّف الأفراد إلى فئات. إلَّا أنه هدف يستحق السعي إليه؛ وإذا كان الهدف هو إصدار أحكام دون الالتفات إلى العِرق، فيمكن للعقل أن يفعل ذلك مع أنه ربما يتطلب بعض المجهود والممارسة.

وفي سلسلة من التجارب التي أجريتُها أنا وزملائي، قمنا بدراسة الآليات العصبية التي تُمكننا من التحكم في السلوك ضد نوازع التحيز التلقائي. وفي إحدى هذه الدراسات، قمنا بمراقبة نشاط المخ لدى المشاركين خلال تأديتهم مهمة حاسوبية تتطلب السيطرة على النوازع المنمَّطة. وكانت المهمة عبارة عن عرض صور متنوعة لمسدسات ومعدات يدوية على مشاركين بيض، وكان المطلوب من المشاركين هو تصنيف هذه العناصر إلى مسدسات وأدوات من خلال الضغط على أزرار في لوحة المفاتيح، بيد أن صورة لوجه شخص أبيض أو أسود كانت تظهر لوهلة قصيرة

على الشاشة قبل ظهور صورة الأداة أو المسدس. وبما أن الصورة النمطية عن الأمريكيين من أصول إفريقية هي أنهم خَطِرون، فإن الظهور اللحظي لوجه شخص أسود يُهيئ المشاركين لتوقُّع ظهور مسدس وليس أداة. ومن ثم، يتوجهون سريعًا نحو المسدس وتتزايد أخطاؤهم عند ظهور أداة بدلًا من مسدس. ولكي يتمكن المشاركون من تأدية المهمة بدقة، كان عليهم أن يتغلبوا على تأثير الأنماط العِرقية. وكنا نأمل -عن طريق قياس التغيرات الكهربية باستخدام رسم المخ- إلقاء الضوء على العمليات النفسية الداخلة في السيطرة على التحيز.

وقد توصَّلنا إلى أن نشاط قشرة الفص الجبهي من ناحية اليسار -وهي منطقة مرتبطة بتحكم أكبر في النفس- شهد تزايدًا لدى المشاركين الذين يُضمِرون توجهات إيجابية نحو أصحاب البشرة السوداء، وذلك خلال تأديتهم المهمة. إلَّا أن الأمر الأكثر إثارة هو أن هذه الزيادة التي حدثت في نشاط القشرة الأمامية بدت وكأنها تضبط مناطق أخرى في الدماغ بحيث تستقبل الوجوه البيضاء والسوداء بطريقة مختلفة. وفي نهاية الأمر، ساعد ضبطُ الانطباعات هذا، المشاركين على الاستجابة بطريقة أكثر حرصًا ودقة خلال عملية تصنيف الصور (مسدسات وأدوات). ونتيجة لذلك، كانت ردود أفعالهم أقل تأثرًا بالصور النمطية العنصرية التي يستثيرها ظهور الوجوه.

وبتعبير آخر، إن الأشخاص الأقل تحيّزا يكونون أكثر انتباهًا إلى المستثيرات العنصرية، وهي مسألة تساعدهم على ضبط سلوكياتهم

وتكوين استجابات غير متحيِّزة. وتتشابه هذه النتائج مع إحدى الدراسات التي أجرتها سوزان فيسك، إذ استخدمت التصوير الوظيفي باستخدام الرنين المغناطيسي (fMRI) لرصد نشاط اللوزة الدماغية عند تكوين ردود أفعال تجاه الوجوه السوداء، مقارنةً بالوجوه البيضاء، وذلك خلال تأدية المشاركين مجموعة من المهام المختلفة. وعندما كانت مهمة المشاركين هي تصنيف الوجوه وفقًا للعرق، لاحظ الباحثون نشاطًا أكبر للوزة الدماغية في مواجهة الوجوه السوداء؛ ما يمكن أن يشير إلى استجابة عاطفية أقوى تجاه السود. ومع ذلك، عندما كانت مهمة المشاركين غير متصلة بالعرق، مثل: البحث عن نقطة رمادية على الصورة أو محاولة تخمين نوع الخضراوات التي يفضلها الشخص الموجود في الصورة، اختفت الاستجابة المتباينة للوزة المخيخ في مواجهة الوجوه السوداء، مقارنةً بالوجوه البيضاء. تعزز هذه النتائج أيضًا الفكرة القائلة بإمكانية التغلب على آثار العنصرية المستترة عن طريق التركيز في المهمة الرئيسية غير المتصلة بالعِرق.

كيف يؤثر ذلك في الحياة الواقعية؟ لنفترض أن طالبة ذات بشرة بيضاء تتواصل مع مُعلمتِها ذات البشرة السوداء لتسألها عن فروضها. إذا انصبَّ تركيزها على أسئلتها -الهدف من التواصل- فستقل احتمالية أن تؤثر الصور النمطية المتعلِّقة بعِرق المُعلمة في تواصلها. أو تخيَّل شخصًا قد انتهى فورًا من ماراثون، ويشعر بالظمأ. وعندما يسير نحو منضدة المشروبات طالبًا زجاجة مياه، وفي هذه الأثناء، ربما كان تركيزه وهدفه الحصول على مشروب

قوي جدًّا إلى درجة أنه لم ينتبه إلى أن الصرَّاف عربي؛ والعرب جماعة ترتبط بالإرهاب في أمريكا. ولأن هذه الأهداف غير متصلة بالعِرق، فإن التركيز القوي على الهدف يمنع ظهور أي صور نمطية أو تحيُّزات في المشهد.

## تصحيح مسار

لكن، ما الذي قد يحدث إذا انتبه عداء الماراثون فجأة إلى عِرق الصرَّاف العربي وهو يشرع في دفع النقود؟ يمكن بسهولة أن يشعر العدَّاء بالخوف يسري في أحشائه ويتجمَّد لحظيًّا في مكانه نتيجة كل هذه السنوات من التعرُّض للصورة النمطية للعرب كإرهابيين. عند هذه النقطة، يكون المخ بحاجة إلى ملاحظة أن هذه الاستجابة التلقائية غير متسقة مع الهدف الرئيسي (شراء زجاجة مياه)، ومن ثم بذل المزيد من الجهد لاستعادة سلوكه النابع من هذا الهدف.

توجد منطقة في القشرة الأمامية تسمى القشرة الحزامية الأمامية تساعد في مراقبة هذه المعركة الدائرة بين الاستجابات الآلية المستمرة والنوايا السلوكية لدى المرء. فإذا كنت تلعب كرة سلة وتشحذ طاقتك تجاه السلة، فستعمل القشرة الحزامية الأمامية جاهدة للتأكد من أن انتباهك وحركاتك مُنصبَّة على التسديدة دون الالتفات إلى المشتتات. ومع رصد درجة التفاوت بين النية والاستجابة -مثل ألَّا ترفع ذراعاك كرة السلة عاليًا بدرجة كافية- يزداد النشاط في القشرة الحزامية الأمامية، مُنبِّهًا القشرة الجبهية

(وسط مناطق أخرى) إلى وجود حاجة أكبر إلى التحكم العلوي - السفلي، وضبط وضع ذراعيك من أجل التسديد.

لقد ظهر الدليل على هذه العملية فيما يتعلق بالعِرق في سلسلة من الدراسات. فمثلًا، كان المشاركون في مهمة المسدس/ الأداة المذكورة أعلاه، بحاجة إلى السيطرة على تأثير الصورة النمطية المتعلِّقة بالأمريكيين من أصول إفريقية في بعض التجارب دون غيرها. وبشكل محدد، أدَّى التنميط إلى نزوعٍ لتصنيف المسدس رغم أن الهدف كان اختيار التصنيف الصحيح للأداة، وذلك نتيجة ظهور وجه شخص أسود قبل صورة الأداة. وفي سلسلة من الدراسات التي تستعين برسم المخ، لاحظنا أن النشاط في القشرة الحزامية الأمامية يتزايد عندما يلوح التحيُّز في الأفق وتتولد الحاجة إلى إحكام السيطرة.

وعلاوة على ذلك، كان المشاركون الذين يُظهِرون دقة أكبر في سلوكياتهم هم أيضًا الذين تشهد قشرتهم الحزامية الأمامية نشاطًا أقوى عند التعرض لهذه النزاعات المتعلّقة بالتحيُّز العِرقي. ذلك أنهم أكثر فعالية في منع تأثير الصور النمطية والتركيز في المهمة المطلوبة. وبشكل عام؛ أظهر من يمتلكون محفزات شديدة القوة للتعامل دون تحيُّز حساسية عصبية أكبر تجاه تحفيز الصور النمطية العِرقية، الأمر الذي ساعدهم على تجاوز الصور النمطية في سلوكياتهم.

وعلى الرغم من أن المخ كثيرًا ما يكون قادرًا على تصويب ردود أفعالنا قبل ارتكاب أخطاء، فإنه ستأتي أوقات ويفشل فيها

الأمر بكل تأكيد. تصف باتريشيا ديفاين، عالمة النفس بجامعة ويسكونسن، العملية التي يمر بها العديد ممن يعتبرون أنفسهم من أتباع المذهب المساواتي بعملية «كسر عادة التحيُّز». وعلى الرغم من قناعاتهم وجهودهم الحثيثة، فإنهم يَزِلُّون من وقتٍ إلى آخر. ومع ذلك، تشير بحوثٌ أخرى إلى أن مثل هذه الهفوات تعمل على تجديد الجهود المبذولة للتعامل دون تحيز وبمزيد من الحيطة في المواقف الوارد أن يقع فيها التحيز. وبشكل محدد، ومثلما تلْفِت عالمة النفس بجامعة بيردو مارجو مونتيت إلى أن ردود الأفعال المتحيِّزة التي تصدر بشكل غير متعمَّد عن مشاركين أقل تحيُّزًا تؤدي إلى أن الأفراد يصبحون أكثر انتباهًا إلى المستثيرات العنصرية، ويُظهِرون ردود أفعال تتسم بحرص أكبر في مواقف مستقبلية. وبكلمات أخرى، فإن المساواتية مهارة، ويمكن للأشخاص أن يتعلَّموا من تجاربهم الاستجابة دون تحيُّز.

لقد توصلتُ، في بحثي الخاص، إلى أنه بعد وقوع مثل هذه الهفوات فإن الأشخاص الأقل تحيُّزا يختبرون نشاطًا متزايدًا في القشرة الأمامية من ناحية اليسار –وهي منطقة مرتبطة بعملية استقبال أكثر إحكامًا– وأن هذا التغير في نشاط المخ يتنبأ بأن تكون جهودهم أقل تحيُّزا في سلوكياتهم المستقبلية. وفي جانب منه، يوضح هذا العمل أن التعرض لفشل في التصرف دون تحيُّز من الممكن أن يُحفز جهودًا أقوى لتنظيم سلوك الفرد في مواقف مستقبلية بين الجماعات.

لنقل مثلًا إنك مازحت زميلك بدعابة جاءت عنصرية دون

قصد: «مرحبًا، أُفَضل دائمًا أن يكون معي في فريق كرة السلة رجلٌ أسود!» بعدها، ينتابك شعورٌ بالذنب ـ وهو مرتبط بالعمليات العصبية التي تساعدك مستقبلًا على التفكير مرتين قبل التحدُّث. وبالنسبة إلى من يشعرون بقلق إزاء النوازع العنصرية غير الواعية، تُقدم هذه القدرة على التعلُّم من أخطائنا سببًا للتفاؤل.

## التحكُّم في التحيُّز

هل هناك أي طريقة للحد من تلك الاستجابات التلقائية الأولية التي تخرج كردٍّ فعل على الاختلاف العنصري؛ تلك الاستجابة التي تُدخِل اللوزة الدماغية البدائية في حالة تأهب قصوى؟ تشير الأبحاث التي تتناول الاشتراط الكلاسيكي في الفئران إلى أنه بمجرد تشكُّل ارتباط عاطفي في الدوائر تحت القشرية؛ يكون من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، محو ما تمَّ تعلمه.

ومع ذلك، ربما يساعد الاطلاع على معلومات جديدة على تقليل الاستجابات العاطفية الأولى؛ فقد توصلتْ أبحاث قديمة كنتُ قد أجريتُها أنا وآخرون إلى أن اللوزة الدماغية تشهد نشاطًا أقوى عندما ينظر الأشخاص إلى وجوه آخرين ينتمون إلى جماعات عِرقية أخرى. بيد أن عملًا أكثر حداثة يُرجِّح إمكانية أن تغير المعلومات الجديدة المتعلِّقة بالانتماء الجماعي. هذا النمط، فمثلًا عرضت دراسة أجراها جاي فان بافيل من جامعة نيويورك صورًا لأشخاص ذوي بشرة سوداء، وآخرين ذوي بشرة بيضاء، على مشاركين بيض. وقيل للمشاركين إنهم سيلعبون لعبة، وأن بعض

الأشخاص سيكونون ضمن فريقهم، بينما سيكون آخرون ضمن الفريق المنافس. وعندما قام فان بافيل بعمل مسح لأدمغة المشاركين بينما ينظرون إلى الوجوه، كانت لوزاتهم الدماغية أكثر نشاطًا وهم يعرضون وجوه الفريق المنافس بغض النظر عن العِرق؛ ذلك أن الارتباطات السلبية القديمة التي تكوَّنت مع السود بدت وكأنها قد مُحيت بمجرد أن عَلِم المشاركون أن بعض الأشخاص أصحاب البشرة السوداء كانوا ضمن فريقهم، ومن ثم افترضوا ودَّهم.

إن نتائج هذه الدراسة (وغيرها من الدراسات المشابهة) قوية، إذ ربما نكون قادرين على تقليل التحيُّز التلقائي بمجرد إقناع الأشخاص بأنهم جميعًا ضمن الفريق نفسه؛ سواء كان فريقًا رياضيًّا أو شركة أو بلدًا أو كوكبًا. وتُسمى هذه الفكرة، التي يناصرها عالما النفس ساميول جارتنر وجون دوفيديو، بنموذج هوية المجموعة. وقد كان لدى كورت فونيجت فكرة مشابهة في كتابه «صافرات إنذار تيتان» الصادر في العام ١٩٥٩، إذ يقوم ملياردير غريب الأطوار بالترتيب لهجمة من المريخ من أجل توحيد الدول على كوكب الأرض في مواجهة عدو مشترك وتعزيز السلام العالمي خلال ذلك.

وعلى الرغم من أن اجتثاث التحيُّزات ربما يكون أمرًا شديد الصعوبة، فإنه يمكننا تصميم مؤسسات، ووضع إجراءات لتغيير الكيفية التي نستقبل بها الأشخاص المنتمين إلى جماعات عِرقية أخرى. وتُرجِّح السيكولوجيا الجديدة للعنصرية أن ردع التحيز ببساطة -أو محاولة اجتثاثه مباشرة خلال نشاطه في المخ- لن ينجح في نهاية المطاف. وبدلًا من ذلك، يجب أن ندع اللوزة الدماغية

تؤدي مهمتها، وأن نُدرِّب أنفسنا على مساعدة القشرة الجديدة في أن تؤدي مهمتها. إننا حقًّا لا نمتلك خيارًا، إذ تعتمد العديد من نواحي الحياة الأخرى على ردود أفعالنا السريعة وأحكامنا الفورية، وهو نظام مُصمَّم ليكون نسبيًّا مضادًّا للتلاعب.

إن تقاريرنا المتعلِّقة بـ«أدمغتنا العنصرية» تحمل عناوين مسروقة، معتبرةً البشر ضحايا للتحيُّزات غير الواعية والمتوارية وراء المنعطفات المظلمة الموجودة داخل أدمغتنا. بيد أن القصة الأوفى تُصوِّر مخ الإنسان باعتباره مزودًا بخبرة تمكِّنه من التغلُّب على التحيزات التلقائية وبناء عَلاقات اجتماعية إيجابية. لقد اكتسبنا، من خلال البحوث المعنية بعلم الأعصاب المتعلق بالتحيز، حسًّا أفضل لاستشعار الكيفية التي يمكن أن تنجح بها النوايا المساواتية، وكذلك إخفاقها. وبمعرفة أن التحيزات تنجح سريعًا في التأثير في القرارات الفورية، فإنه يمكن للأشخاص تحديد المواقف التي يمكن أن تتشكل فيها التحيزات، ومن ثم إيلاء عناية أكبر لأفعالهم. وبهذه الطريقة، ربما يمكن للعقل المساواتي أن يساعدنا على بناء مجتمع يتسم بقدر أكبر من المساواة.

## المزيد من القراءات


- Amodio, D. M. 2008. The social neuroscience of intergroup relations. European Review of Social Psychology 19:1–54.
- Amodio, D. M., P. G. Devine, and E. Harmon-Jones. 2007. A dynamic model of guilt: Implications for motivation and self-regulation in the context of prejudice. Psychological Science 18:524–30.

• Amodio, D. M., P. G. Devine, and E. Harmon-Jones. 2008. Individual differences in the regulation of intergroup bias: The role of conflict monitoring and neural signals for control. Journal of Personality and Social Psychology 94:60–74.

# القسم الثاني

# التغلُّب على التحيُّز

# مُقدمة المحرِّرين

بناءً على الأدلة المُقدَّمة حتى الآن في «هل نولد عنصريين؟» سيكون من المُغري أن نجيب على السؤال الذي يحمله العنوان بـ«نعم» بسيطة. لكن على الرغم مما يبدو من أن لدينا ميلًا متأصلًا لإضمار تحيزات عِرقية، فإن البحث المُقدم في القسم الأول من هذا الكتاب يُظهِر أيضًا أن لدينا مهارات غريزية تساعدنا في التغلُّب على هذه التحيزات.

يستكشف مساهمونا، في القسم التالي، الجهود الرامية إلى ترجمة العلم إلى ممارسة، وإلى إدخال هذه المهارات في حيز الاستخدام، وإلى مدِّ جسورٍ بين المخ والمجتمع. ويُقدم المساهمون وصفات محددة ومتماسكة عن الكيفية التي يمكن وينبغي للبحث الذي تمت تغطيته في القسم الأول أن ينبئ -وهو بالفعل يقوم بذلك أحيانًا- ببرامج وممارسات جديدة للتغلب على العنصرية غير المحسوبة. وإذا نظرنا إلى جميع هذه الأمور معًا، فسنجد أن مساهمات هذا القسم تأخذنا في رحلة تبدأ من وحدات بناء المجتمع -أطفال وعائلة- إلى تقييم

أوسع نطاقًا عن كيفية تطوير علاقات أصحَّ بين الأعراق في المجتمع ككل؛ وذلك في محادثة واحدة كل مرة.

بيد أن علم التحيز العِرقي يوضِّح أنه لا يمكننا ببساطة أن نتوقَّع من الأفراد أن يتغلبوا على العنصرية بمفردهم، ذلك أن المشكلة مغروسة بعمق كبير -سواء في نفوسنا كأفراد أوعبر المجتمع بأسره- وهو الأمر الذي يحول دون نجاح مثل هذا المقاربة المفردة. وبدلًا من ذلك، ومثلما توضح المقالات الموجودة في هذا القسم، فإننا نحتاج إلى إحداث تغييرات مُنظَّمة في طرق تطوير المناهج التعليمية، وإدارة الموظفين، وتدريب أفراد الشرطة. وكلٌّ يُركز على ناحية مختلفة من نواحي المجتمع -من المدارس إلى أماكن العمل وإنفاذ القانون- مع تركز جميع هذه الأجزاء على فكرة رئيسية وهي مغالطة عمى الألوان.

ينادي مناصرو عمى الألوان بأن لون البشرة صفة ليس لها معنى، وأن الجميع ينبغي أن يُنظر إليهم باعتبارهم سواسية؛ بغض النظر عن اللون. ويشيرون إلى أن اعترافنا بالأعراق في البرامج العامة أو التفاعلات الخاصة يخلق الانقسامات. وفي بعض الأحوال، يبدو أن عمى الألوان هو الهدف الأكثر أهمية في حركة الحقوق المدنية الحديثة. لكن، ألا ينبُع هذا الأمر بصورة طبيعية من دعوة القسِّ مارتن لوثر كينج الابن بأن يكون جوهر الشخصية هو أساس الحكم على الأفراد وليس لون الجلد؟ ومع ذلك، فالبحث الذي نناقشه في هذا الكتاب يوضح باستمرار أن عمى الألوان

هدف غير عملي، بل غير مرغوب فيه حتى؛ والواقع أن كينج نفسه لم يناقش أبدًا ضرورة التظاهر كما لو أن لون الجلد غير موجود. إننا مهيؤون لرؤية الاختلافات العرقية منذ سن صغيرة - من عمر الستة أشهر، مثلما تُشير المُساهِمة آليسون بريسكو -سميث- الأمر الذي يعني أن إنكار هذه الميول لن يؤدي بنا إلى أيٍّ مكان.

وفي الواقع، تُشير المقالات الموجودة في هذا القسم إلى أن ضرر محاولات التعامل مع العِرق بسياسة التجاهل أكثر من نفعها، على الرغم من أنها غالبًا ما تكون نابعة من نوايا حسنة؛ ويرجع ذلك إلى أنها تتسبَّب في تشتُّت الأطفال الذين بدؤوا من فورهم في بناء معرفة حول الاختلافات العِرقية، فضلًا عن أنها تُشعِر طلبة الفصل أصحاب البشرة الملونة بالاغتراب، وتسمح للانحيازات غير المُعلنة أن تتفاقم داخل مكان العمل. إن تمييز الأعراق أمرٌ لا مناص منه، ومحاولات إقناع أنفسنا بعكس ذلك من المُرجَّح أن تحفز تناقضات في مداركنا - أو أسوأ من ذلك، أن نعمي أبصارنا عن الفوارق الاجتماعية الاقتصادية التي لا تزال قائمة لأسباب عِرقية. وفي الوقت الذي تخلُص فيه الأبحاث دومًا إلى أن الطريقة الوحيدة للتغلب على الانحيازات العنصرية المُتجذرة هي أن نكون أكثر وعيًا بالروابط التي نعقدها مع الاختلافات العِرقية المحسوسة؛ فإننا نجد أن أيديولوجية عمى الألوان تَعِظ بنسيان العِرق والتفاوتات العِرقية، على أمل أنها ستختفي إذا تجاهلناها.

وعلى الرغم من كَمِّ الدلائل العلمية التي تبرهن على عبثية هذه المقاربة، فقد تمكَّن من أن يحشد زخمًا على مدار الأعوام؛ خصوصًا

فيما يتعلق بالتحديات القانونية والسياسية لتطبيق التمييز الإيجابي. ويُفسِّر مؤيدو أيديولوجية عمى الألوان حركة الحقوق المدنية على أنها محاولة لمحو العِرق من الوعي الأمريكي بأكمله. وحديثًا، قامت محكمة روبرتس العليا بتبني هذا التفسير الذي أظهر عداءً لفكرة الوعي بالمسائل العِرقية بأي شكل، وربما يكون ذلك قد برز في قرارها الصادر في العام ٢٠٠٧ والذي يقضي بإبطال برامج في كنتاكي وسياتل تضع العِرق عاملًا من عوامل إلحاق الأطفال بمدارس عامة معينة. كان روبرتس، رئيس المحكمة العليا، قد كتب مقولته الشهيرة من وجهة نظر الأغلبية: «السبيل إلى وقف التمييز على أسس عِرقية هو وقف التمييز على أسس عِرقية». وبالاتفاق مع رأيه، أشار القاضي كلارينس توماس إلى الرأي المعارض الذي حمله القاضي جون مارشال هارلان في قضية بليسي ضد فيرجسون التي أيَّدت عنصرية القرن التاسع عشر في الجنوب؛ كتب توماس: «رأيي في الدستور هو رأي القاضي هارلان في بيلسي: «دستورنا لديه عمى ألوان»».

بيد أن ما يغفل عنه معسكر عمى الألوان -بقصد أو بدونه، يصعب الجزم بذلك- هو أن جذور التحيُّز العنصري لا تكمن في إحساسنا بالعِرق من عدمه بل في كيفية إحساسنا به، ذلك أن هناك اختلافًا جوهريًّا بين رؤية لون الجلد كعلامة على الدونية وبين رؤية لون الجلد على الإطلاق؛ فالأخير محتَّمٌ إدراكيًّا، أما الأول فمشروط اجتماعيًّا. إن الهدف الواقعي للأمريكيين -وللإنسانية جمعاء- ليس في التدريب على تعمية أنفسنا عن وجود اختلافات عِرقية، بل في أن

نصبح أكثر تواؤمًا مع الكيفية التي تستجيب بها أدمغتنا وأجسامنا تجاه مثل هذه الاختلافات، والأسباب التي جعلتنا نتعلم الاستجابة على النحو الذي نستجيب به.

وهذه ليست عملية سهلة، لأنها تتطلب أن يكون كلانا حساسًا تجاه الاستجابات الإدراكية التي تحدث في أقل من الثانية، وأن نُمحِّص بعض الافتراضات والمعتقدات المتجذِّرة بعمق. وتتطلب كذلك أن يخلق قادتنا -في القطاعين العام والخاص- بيئات مُشجِّعة على هذا النوع من التفكير. وعلى الرغم من أن هذه المهام شاقّة بطبيعة الحال، فإن الأبحاث تُظهِر أننا نمتلك أدوات مجابهتها؛ والمقالات الموجودة في هذا القسم توضح كيف يمكننا إدخال هذه الأدوات في حيِّز الاستخدام.

# كيف تتحدّث
# مع الأطفال عن العِرق؟

أليسون بريسكو - سميث

قبل أعوام من أن أصبح طبيبة نفسية للأطفال، كنت مُدرِّبة سباحة، ودرَّست في روضة أطفال. وأتذكَّر يومًا كنت أعمل في المياه مع فتاة بيضاء تبلغ من العمر أربعة أعوام عندما بدأت تفرك ذراعي. سألتني: «هل يزول؟» فأجبتها بسؤال: «ما الذي يزول؟» قالت: «السَّواد». وكانت تحكُّ ذراعها في ذراعي لترى إن كان بوسعها أن تنقل جزءًا من لون بشرتي إلى بشرتها.

والدتها التي كانت تجلس على مقربة كانت تلهث بصوتٍ مرتفع، والتفتت إليَّ، في شحوبٍ وحرج، قائلة: «لا أدري من أين جاءت بمثل هذا الحديث؛ نحن لا نتحدَّث أبدًا عن... مثل هذه الأمور»، وسحبت ابنتها خارج المياه، وأنهت الدرس وهي تُسكِت البنت أثناء مغادرتهما.

سمعت، خلال عملي في التدريس، مثل هذه التعليقات من أطفال مُسبقًا -ولم تكن توجَّه هذه التعليقات إليَّ فقط، بل إلى بالغين وأطفال آخرين- وكنت ألاحظ خيبة الأمل على وجوه

آبائهم. ويبدأ الآباء في طرح أسئلة مثل: «من أين يأتي الأطفال بمثل هذه الأمور؛ إنهم حتى لا يستطيعون تمييز العِرق بعد، أليس كذلك؟» أو «هل يعني هذا أن طفلي سيكون عُنصريًّا؟» أو بنبرة دفاعية: «نحن لا نُعلِّمهم هذه الأمور في المنزل»، و«لدينا العديد من الأصدقاء المنتمين إلى مختلف الأعراق»، و«نحن لا نتحدَّث عن العِرق من الأساس، فكيف يعرفون ما هو؟».

ووجدت، خلال عملي مع الأطفال كمعلمة وطبيبة نفسية، أن البحوث العلمية بإمكانها تهدئة روع عديد من الآباء. وفي الوقت الذي لا توجد فيه إجابة سهلة على سؤال: «كيف أربي طفلًا متسامحًا؟» فإن البحوث تقدِّم بعض المقترحات البنَّاءة لكيف يمكن للأطفال أن يكوِّنوا معرفة حول الأعراق - ومتى وكيف تناقشهم في الأمر؟

لنبدأ من البداية: هل يرى الأطفال العِرق أو يلاحظونه أساسًا؟ الإجابة: نعم، هم يرون الاختلافات العِرقية، ويلاحظونها منذ سن صغيرة جدًّا؛ حتى وهم في المهد. وفي الواقع، تشير دراسات عديدة أجراها عالما النفس فيليس كاتز وجينفر كوفكين إلى أن الرُّضَّع والأطفال شديدي الصغر (من ستة أشهر إلى ثمانية عشر شهرًا) ينظرون إلى وجوه من ينتمون إلى أعراق أخرى فترات أطول من تلك التي يستغرقونها في النظر إلى من ينتمون إلى جماعتهم العِرقية؛ وهي الطريقة التي عادة ما يستجيب بها الرُّضَّع والأطفال في سن الحبو تجاه المعلومات الجديدة، كما أنها تشير إلى الاختلافات العِرقية

واضحة بصريًّا بالنسبة إليهم. وهذا يعني أن الأطفال قادرون على ملاحظة الاختلافات العِرقية والانتباه إليها حتى قبل أن يتمكَّنوا من التحدُّث عن أنفسهم، وقد وجد كاتز وكوفكين أيضًا أن الأطفال -ببلوغهم سن الثالثة- يبدؤون في تفضيل اللعب مع أطفال ينتمون إلى عِرقهم على آخرين ينتمون إلى عِرق آخر.

وعلى الرغم من أن الأطفال قد يلاحظون الاختلافات العِرقية، بل ويفضِّلون اللعب مع من ينتمون إلى عِرقهم؛ فإن هذا لا يعني أن أطفالًا في هذا العمر يفهمون العِرق على النحو نفسه الذي يفهمه به البالغون، ولا يعني كذلك أنهم يترعرعون ليصبحوا عنصريين. وبالنسبة إلى الأطفال ممن هم أصغر من سبعة أعوام، فإن العِرق _أو بالأحرى السمات التي تشبه لون الجلد واللغة ونسيج الشعر_ ليس سوى علامة على أن شخصًا ما يختلف عنهم بطريقة ما، على غرار الاختلاف في النوع وطول الشعر أو الوزن. إنَّ اجتذاب الأطفال إلى ما هو معتاد في مرحلة مبكرة من الحياة، ليست مسألة غير معتادة أو غير صحية، لأن آراء الأطفال لا تدخل نطاق التحيُّز إلَّا عندما يبدؤون في ربط هذه السمات بعيوبٍ في الشخصية أو السلوك. ونحن، البالغين، من نُعزي الأحقاد إلى مجرد ملاحظة الاختلافات العِرقية.

وعلى هذا، فإن إدراك الاختلافات العِرقية في حدٍّ ذاته لا يدعو إلى الذعر، بل الأمر على خلاف ذلك في الحقيقة. فعلى مدار أعوام، توصَّلت الدراسات إلى أن الأطفال الذين يُدركون هذه الاختلافات

في سن مبكرة يُظهِرون قدرات عامة أقوى فيما يتعلق بتحديد الاختلافات الصعبة بين فئات مثل: اللون والشكل والحجم، وهذا بدوره أمرٌ قد ارتبط بأداء أحسن في اختبارات الذكاء. وقد وجد الباحث فرانسيس عبود أن الأطفال بين سن الرابعة والسابعة ممن تظهر عليهم هذه القدرة العالية على تحديد وتصنيف الاختلافات يكونون بالفعل أقل تحيُّزًا. ومن هنا، فيمكن للآباء أن يطمئنوا عندما يلاحظ الأطفال الاختلافات العِرقية ويستفسرون عنها، فإن هذه مرحلة صحية وطبيعية من مراحل النمو.

ومع ذلك، فمن الممكن أن يُلقي هذا الأمر بحملٍ ثقيلٍ على عاتق الآباء؛ وذلك عندما يبدأ الأطفال بطرح الأبناء الأسئلة، وبمحاولة فهم العالم العِرقي من حولهم. يصف جيرمي آدم سميث (أحد محرري هذه الأنطولوجيا)، في مدونته «دادي ديالكتيك»، مشاهدة مباراة كرة سلة مع ابنه البالغ من العمر أربعة أعوام. يسأله ابنه: «لماذا لا يلعب كرة السلة سوى الأطفال السود يا أبي؟» ويمكننا من هذا السؤال وحده -الذي أقلَقَ سميث- ملاحظة أن الطفل مُنتَبِه إلى الاختلافات العِرقية، وأنه يحاول فهمها. ربما يكون هناك تساؤل ضمني قد راود ابن سميث أيضًا: بما أنني لست أسود، هل يعني هذا أنه لا ينبغي لي أن ألعب كرة السلة؟ أو هل يعني هذا أن الأطفال السود أفضل في كرة السلة من غيرهم؟

وهنا يأتي الجزء الصعب: كيف تجيب على هذه الأسئلة؟

ما يحدث في الحقيقة هو أن العديد من الآباء يُؤثِرون عدم

الإجابة؛ فعندما قامت عالمة النفس ديان هيوز وزملاؤها بمراجعة البحوث المتعلِّقة بالكيفية التي يتحدَّث بها الآباء عن العِرق، وجدوا أن نصفهم تقريبًا يفيدون بأنهم لا يتحدَّثون عن العِرق مع أطفالهم على الإطلاق. وعادة ما يتبنَّى الآباء، وبِنيَّةٍ حسنة في كثير من الأحيان، مبدأ عمى الألوان، ويفترضون أنهم إذا ربُّوا أبناءهم على عدم الاعتراف بالاختلافات العِرقية فسيمنعون أبناءهم من أن يصبحوا عنصريين.

إلَّا أن المشكلة مع هذه المقاربة هي أننا جميعًا نُلاحظ الاختلاف؛ وعندما نُحجِم عن مناقشة مسألة العِرق مع أطفالنا، فقد نتسبب لهم في ارتباك، وقد نبعث برسالة ضمنية تُفيد بأن الحديث عن الاختلافات العِرقية أمرٌ سيئ أو خاطئ. وقد يؤثر هذا الأمر على الأطفال أصحاب البشرة الملونة والبيضاء على حدٍّ سواء. على سبيل المثال، وجد الباحثان فيليب بومان وكليوباترا هاورد أنه عندما يُحجِم الآباء الأمريكيون من أصول أوروبية عن تعليم أطفالهم أي شيء عن العِرق؛ فإن الأطفال يشعرون بأنهم أقل استعدادًا للتعامل مع التمييز العنصري، ويشعرون، بشكل عام، كما لو أن سيطرتهم على حياتهم أو بيئتهم أقل إحكامًا.

وإضافة إلى هذا، فإن إستراتيجية «التزام الصمت» تتجاهل حقيقة أننا نوصِّل مشاعرنا وأفكارنا المتعلِّقة بالعِرق إلى أطفالنا بكافة الطرق الممكنة، ذلك أن الأشخاص الذين نختار مصادقتهم -وتجنبهم- يوصلون الكثير إلى أطفالنا. هل يرى أطفالنا أننا نتواصل

عبر حدود الأعراق؟ وإن كان الأمر كذلك، فكيف نتصرف؟ بقلق، بود، باهتمام؟ إن أطفالنا يراقبوننا محاولين فهم العالم العِرقي طوال مراحل نموهم. ولدينا، نحن الآباء، فرصة عظيمة لأن نبدأ بتشكيل الطريقة التي يفكر بها الأطفال في العِرق، من أجل المساعدة في خلق أطفال متسامحين من البداية.

وبدلًا من محاولة تجاهل مسألة العِرق، تقترح الأبحاث أن يتحلَّى الآباء بروح مبادِرة؛ فمن الممكن أن يُخبِروا أبناءهم بأن الاعتراف بالاختلافات العِرقية والتحدُّث عنها أمرٌ طبيعي، مع الإشارة إلى أن إضمار تحيُّزات عنصرية أمرٌ خاطئ. وبالعودة إلى سميث وابنه، فإن هذا الأخير عندما سأله عن السبب الذي يجعل الأطفال السود هم من يلعبون كرة السلة دون غيرهم، فقد كان من الممكن أن يتجمَّد سميث خوفًا من هواجس متعلِّقة بـ«جَعلِ ابنَه عنصريًّا» وأن يتجاهل سؤاله ببساطة ويُسكِتَه أو أن يغير الموضوع مثلما يفعل الكثير من الآباء. إلَّا أنه قدَّم إلى ابنه إجابة ملائمة تربويًّا، قائلًا: «حسنًا، أعتقد أن العديد من الأطفال السود يحبون لعب كرة السلة»، وطرح عليه سؤالًا هو الآخر: «هل تريد أن تلعب معهم يومًا ما؟» فأجابه: «نعم!».

لقد خلصتُ في بحثي الخاص الذي أجريته مع سبعٍ وستين عائلة متباينة عِرقيًّا وإثنيًّا ولديها أطفال تحت سن السابعة، إلى أن التحدُّث مع الأطفال والإجابة على أسئلتهم المتعلقة بالعِرق من الممكن أن تساعدهم في فهم القضايا العِرقية، وفي أن يكونوا

أكثر تسامحًا. ووجدتُ أن الآباء الذين يتحدَّثون بمعدل أكبر عن العِرق عادة ما يكون لدى أطفالهم قدرة أكبر على تمييز العنصرية عند رؤيتها، وفرص أعلى في أن يحملوا آراءً إيجابية حول الأقليات الإثنية. وقد ثبتت صحَّة هذا الأمر في العائلات البيضاء والملوَّنة على حد سواء، في دراستي.

وقد توصَّل باحثون آخرون إلى نتائج مشابهة؛ ففي دراسة أجراها فرانسيس عبود وآنا بيث دويل، وضِعَ أطفال يُضمِرون توجهات متحيِّزة ضد أقليات إثنية وتتراوح أعمارهم بين التاسعة والحادية عشرة مع آخرين تتراوح أعمارهم بين التاسعة والحادية عشرة أيضًا، إلا أنهم كانوا يحملون قناعات أقل تحيُّزًا. وطُلِبَ من الأطفال أن يتحدَّثوا لمدة دقيقتين عن بعض المُعتقدات القائمة على العِرق التي كانوا قد أظهروا تأييدًا لها في وقت مبكر من الدراسة. وكانت النتائج لافتة، حيث أظهر الأطفال الأكثر تحيُّزا، بعد هذه المحادثات، درجة أقل من التحيُّز، وقدرًا أكبر من التوجهات السمحة. وإذا كان هذا هو الأثر الناتج عن محادثة مدتها دقيقتان مع زميل؛ فلنا أن نخيل ما يمكن أن تحققه طفولة كاملة من المحادثات مع الآباء.

وعلى الرغم من وجود دليل قوي على ضرورة أن يتحدَّث الآباء عن مسألة العِرق، فلا يزال الباحثون يدرسون الطريقة المُثلى للتحدُّث عن الأمر. توجد بعض الأدلة التي تُرجِّح ضرورة أن يتجنَّب الآباء أساليب حوار تحفِّز الخوف في نفوس أطفالهم، وذلك

في العائلات البيضاء والملونة على حد سواء، لأن هؤلاء الأطفال لن يكونوا على دراية بردِّ الفعل المطلوب. فمثلًا عندما تقول لطفل: «أتعلم أن البشر سيقسون عليك ويعاملونك بطريقة غير عادلة لأنك تنتمي إلى العِرق الفلاني»، دون أن تُعلِّمه مهارات التكيُّف أو تتعاطف معه أو تقدِّم إليه الدعم، فقد يتسبب هذا في مزيد من الخوف والتحيُّز تجاه الآخرين. إلَّا أن اِستتباع هذا الحديث بـ«لكن هذا لا يعني ضرورة أن نكون قساة مع الآخرين»، أو «لكن هؤلاء الأشخاص لا يعرفون حقًّا كم أنت عظيم، وكم هو مميز أن تكون منتميًا إلى العِرق الفلاني»، أو «وإذا حدث ذلك، فيمكنك أن تلجأ إليَّ وسأساعدك»، قد يُقدِّم هذا كله الدعم ومهارات التكيف التي يحتاج إليها الأطفال للتعامل مع مثل هذا التمييز.

تُشير أبحاث أخرى لبومان وهاورد إلى أن مساعدة الأطفال على الافتخار بالانتماء إلى هوياتهم الإثنية أو العِرقية تُعينهم على زيادة شعور الاعتزاز بالنفس لديهم؛ بيد أن الحذر واجب، إذ لا ينبغي لدروس الفخر أن تُقلل من الجماعات الأخرى. وبكلمات أخرى، لا ينبغي أن تكون الرسالة: «نحن أفضل وأكثر ذكاءً من العِرق العِلَّاني»، بل ينبغي أن تدعم الجماعات الأخرى أيضًا: «أتعلم أن بعض الأعراق الأخرى تفعل الأشياء بتلك الطريقة، وهذا أمرٌ رائع. ونحن نفعل الأشياء بطريقة مختلفة، وهذا أيضًا أمرٌ لطيف جدًّا». إن تعريف الأطفال بالفخر، والطريقة التي نُفسر بها الاختلافات من حولهم، من الممكن حقًّا أن تكون عملًا من أعمال تعليم التسامح ودعمه.

لكن، أولًا وقبل كل شيء، يبدو أن هذا الفعل البسيط الذي لا يتعدَّى إجراء محادثات حول العِرق مفيدٌ. وبما أن الأبحاث تُظهِر أن الأطفال يُلاحِظون مسألة العِرق ويحاولون فهمها في مرحلة مبكرة تبدأ من ستة أشهر إلى ثمانية عشر شهرًا، فمن الممكن أن تبدأ المحادثات أيضًا في وقت مبكر جدًّا. ومن أجل بلوغ هذه الغاية، من المهم أن نُشعِر الأطفال بالراحة وهو يتطرقون إلى المسألة؛ ما يعني ضرورة أن يحاول الآباء تجنب إظهار مسألة العِرق باعتبارها موضوعًا كبيرًا أو مُخيفًا إلى الدرجة التي تجعل الأطفال يشعرون أنه منطقة محظورة، فضلًا عن تجنب إشعار الأطفال بالغرابة أو انعدام اللياقة نتيجة طرح أسئلة. إن أفضل طريقة يمكن أن يسلكها الآباء هي ممارسة التحدُّث عن العِرق -مع الأصدقاء، بعضهم مع بعض، ومع الزملاء- حتى يتسنى لهم تخفيف قلقهم الشخصي قبل الخوض في مناقشة هذه القضايا مع أطفالهم. وهناك مواقع إلكترونية وغرف دردشة ومنظمات لمساعدة الآباء في الحصول على هذا النوع من التدريب؛ مثالٌ على أحد الأماكن التي يمكن البدء بها هو مدونة Anti-Racist Parent التي يناقش فيها الآباء جهودهم في تربية أطفال واعين عِرقيًّا.

وعلى هذا، أيها الآباء؛ في المرة القادمة التي تجدون أنفسكم عند ملعب وتسمعون أطفالكم يقولون شيئًا من الممكن أن يكون مُربِكًا من الناحية العِرقية أو حتى مُسيئًا، لا تشعروا بالإحراج، ولا توبخوهم أو تُسكِتوهم، ولا تنهوا المحادثة بـ«نحن لا نقول مثل هذه الأمور». وبدلًا من ذلك، ربما ينبغي عليكم محاولة: «ممم، لِمَ لا نتحدَّث عن هذا الأمر أكثر؟».

## المزيد من القراءات


• Aboud, F. 1988. Children and prejudice. New York: Blackwell.

• Aboud, F., and A. Doyle. 1996. Does talk of race foster prejudice or tolerance in children? Canadian Journal of Behavioural Science 28 (3): 161–70.

• Hughes, D., and L. Chen. 1999. The nature of parents' race-related communications to children: A developmental perspective. In Child psychology: A handbook of contemporary issues, 467–90. Ed. L. Balter and C. Tamis-LeMonda. Philadelphia: Psychology Press.

• Katz, P., and J. Kofkin. 1997. Race, gender and young children. In Developmental psychopathology: Perspectives on risk and disorder, 51–74. Ed. S. S. Luthar, J. A. Burack, D. Cicchetti, and J. Weisz. New York: Cambridge University Press.




# تشجيع التسامح والمساواة في المدارس

جينفر هولاداي

إن طلبة اليوم هم أكثر جيل متسامح عنصريًّا شَهِدته بلادنا على الإطلاق. ووفقًا لدراسات حديثة؛ فإن أرجحية تكوينهم لصداقات أو خروجهم في مواعدات عبر الحدود الإثنية والعِرقية تزيد عن الأجيال التي سبقتهم. وبصفةٍ عامة، فإنهم يؤمنون بأن العنصرية أمرٌ خاطئ.

بيد أن الطريق أمامنا لا يزال طويلًا. ووفقًا لإحصاءات فيدرالية؛ فإن طالبًا من بين كل أربعة طُلَّاب يبلِّغون عن تعرُّضهم للتحيُّز الإثني أو العِرقي في سنة دراسية معتادة، ويقول واحد من بين كل عشرة إنهم قد نُعِتوا بأسماء مُهينة في المدرسة، ويَذكُر حوالي ٤٠ ٪ من طلبة المدارس الحضرية أنهم يجدون كتابات مُتَعَصِّبة على جدران الحرم. والمُقلِق في الأمر هو أن المدارس تقع في المركز الثالث من بين الأماكن التي يشيع فيها وقوع جرائم الكراهية.

إذًا، ما الذي يمكن أن يفعله المربُّون والمدارس للمساعدة في رفع مستويات التسامح العنصري وسط الطلبة؟

منذ العام ١٩٩١، كان مشروع «تعليم التسامح» التابع لمركز قانون الحاجة الجنوبي بمثابة مركز لتبادل المعلومات حول الأفكار والممارسات الواعدة. وبشكلٍ سنوي، فإننا ندعَم أكثر من خمس مئة ألف مُربٍّ عبر مجلتنا نصفَ السنوية، وأدوات المناهج الدراسية الخاصة بنا، وموقعنا الإلكتروني.

في العام ٢٠٠٧، أنهى «تعليم التسامح» تقييمًا مدته عامان من برمجته. وتوضح النتائج التي توصَّلنا إليها أن المدارس المُتَعهِدة بالحدِّ من التحيُّز العنصري ينبغي أن تُركز جهودها في أربع نواحٍ: المناهج الدراسية المناهضة للعنصرية، وتربية الشخصية، والتواصل بين الأعراق، والمساواة المدرسية.

## اِعتماد المناهج التعليمية المناهِضة للعنصرية

ربما يكون اِعتماد المواد متعددة الثقافات هو التدخُّل الأكثر شيوعًا لمناهضة التحيُّز في المدارس. وفي استطلاع أجريناه في العام ٢٠٠٥ مع الرابطة الوطنية للتعليم ومشروع الحقوق المدنية (في هارفارد، والآن في جامعة كاليفورنيا بلوس آنجلوس)، أفادت الأغلبية العظمى من المربِّين بأنهم يستخدمون مثل هذه المواد في قاعات الدرس.

وعلى الرغم من أن المواد متعددة الثقافات تبعث آمالًا كُبرى، وتحديدًا لأنها من الممكن أن تُستخدم في مدارس متجانسة عِرقيًا، فإن الباحثين منقسمون بعض الشيء حول فعاليتها. حتى إن جيمز

بانكس، المشارك في تحرير دليل بحوث التعليم متعدد الثقافات، متردد بشأن استنتاجاته: «يمكن لتدخلات المناهج الدراسية أن تساعد الطلبة في بناء توجهات عِرقية أكثر إيجابية، بيد أن... آثار مثل هذه التدخلات لا يُرجَّح أن تكون متسقة».

في العام ٢٠٠٠، قام عالما النفس فرانسيس عبود وشيري ليفي بفحص نتائج دراسات موجودة بالفعل وتتناول برامج التعليم متعدد الثقافات. قام العالمان بتقسيم البرامج إلى مجموعتين: التدخلات متعددة الثقافات (أولئك الذين يُعرِّفون الطُّلَّاب بمختلف الجماعات)، والتدخلات المناهضة للعنصرية/ المناهضة للتحيُّز (أولئك الذين يُعرِّفون الطلاب بالمشكلات الاجتماعية مثل العنصرية ورُهاب الأجانب). وقد توصَّل الاثنان، من خلال تحليلاتهما، إلى أن التدخلات المناهضة للعنصرية/ المناهضة للتحيُّز قد تكون ذات أثر أكبر في تقليل التحيُّزات من التدخلات متعددة الثقافات.

ويعني هذا، من ناحية التطبيق، أنَّ ما يُدرِّسه المُربُّون لا ينبغي أن يتمحور حول «عظماء الأمريكيين من أصول إفريقية في التاريخ» فقط، بل يجب أن يشمل أيضًا العنصرية الأمريكية، والتمييز، وآثارهما في مجتمعات الأمريكيين من أصول إفريقية، في الماضي والحاضر. إن تبني مواد المناهج التعليمية الخاصة بـ«تعليم التسامح»، والتي تُقَدَّم إلى المُربين دون مقابل ماديٍّ، هذا المنهج، كفيل بأن يُنتِج آثارًا قوية في توجُّهات الطلبة. فمثلًا في العام ٢٠٠٥، أجرينا تقييمًا

للأداة التعليمية «مسيرة الأطفال» التي تتناول انتفاضة الشباب التي وقعت في برمنجهام بولاية ألاباما في العام ١٩٦٣ لإنهاء التمييز، وأظهر التقييم أن الوحدة قد أسهمت في رفع مستويات الاحترام لدى الطلبة تجاه الجماعات الأقل قبولًا في الولايات المتحدة.

توجد مواد أخرى مناهضة للعنصرية من الطِّراز الأول، من بينها «إعادة النظر في المدارس» الذي يقدم مجموعة استثنائية من المصادر مثل «الحدود بيننا: التعريف بالحدود والهِجرة المكسيكية»، و«التعليم من أجل التغيير» الذي ينشر «ما وراء الأبطال والعُطل: دليل عملي للتعليم المناهض للعنصرية متعدد الثقافات»، و«مشروع زِن التعليمي» الذي يقدم مواد تَعرِض أعمال هاورد زِن مؤلف العمل الثوري «التاريخ الشعبي للولايات المتحدة» داخل قاعات درس المراحل المتوسطة والعُليا.

### ترسيخ بناء الشخصية

عادةً ما ترمي برامج بناء الشخصية إلى مساعدة الأطفال على تنمية مهارات صناعة قرار اعتبارية، إلَّا أنها نادرًا ما تكون مُصممة بطريقة تراعي أهداف مُنَاهَضة التحيُّز. بيد أن هذه البرامج ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالحدِّ من التحيُّز. وأظهرت الدراسات الطولية أن الأشخاص الذين يتسمون بقدر عالٍ من النمو الأخلاقي، يقفون عند مستويات منخفضة من التحيُّز العنصري.

وفي معظم المدارس، توصِّل برامج بناء الشخصية إلى الطلبة

مجموعة محددة سلفًا من القيم؛ قيم مثل «الأمانة» و«المسؤولية» و«المساواة». وتُعلَّق الملصقات على الحوائط، وتُنجَز أوراق العمل في الغرف العامة، وتزخر الإعلانات الصباحية بحكايات بطول موضوعات البرنامج.

وكي تتبلور آثار مناهضة التحيُّز، يجب على المدارس أن تقوم بما هو أكثر من مجرد تعريف الطلبة بقائمة قيم أو مبادئ عامة مثل «المساواة مهمة»، بل يجب أن نُشجِّع التلاميذ على البحث بعمق وراء المعاني الدقيقة لهذه القيم والمبادئ (على سبيل المثال: «هل معاملة الناس بمساواة تعني معاملة الجميع بالطريقة نفسها؟»).

ولتشجيع هذا النوع من التساؤلات، تُجري العديد من البرامج حوارات مُنظمة تُشجِّع طلبة الصف السابع فما فوق على مراجعة قيمهم الخاصة وقيم الآخرين. ويمكن لمثل هذه البرامج التي كثيرًا ما تكون مصمَّمة لتحسين الفهم بين الجماعات المختلفة، أن تُثمر عن نتائج قوية. فمثلًا، ثَبَت أن برامج الحوار التي تُجرى في أحرام المدارس الإعدادية والثانوية تحت إدارة Everyday Democracy (مركز مصادر الحلقات الدراسية سابقًا) تؤثر إيجابيًّا على توجهات الطلبة، وتساعد في خلق فهم متبادل بين الطلبة البيض والملونين بشأن حقائق المناخ الاجتماعي السائد في مدارسهم. وعلى نحوٍ مماثل، أظهر تقييمٌ لبرنامج تابع لجامعة ميتشجان -يتمحور حول الحوارات المعنية بالعلاقات بين الجماعات- أن البرنامج قد ساعد الطلبة البيض على تنمية حسٍّ أكبر بالقيم والاهتمامات المشتركة بينهم وبين أشخاصٍ

ملونين؛ في حين تراجع شعور الطلبة أصحاب البشرة الملونة بالشِّقاق العنصري، فضلًا عن أنهم أبلغوا عن تفاعلات أكثر إيجابية مع الطلبة البيض. وظلت هذه النتائج مستدامة على مدار ثلاثة أعوام.

### تعزيز التواصل عبر المجموعات

قال ويد هِندرسون، الرئيس السابق لمؤتمر القيادة المعني بالحقوق المدنية، ذات مرة: «يتحدَّث الجميع عن التنوع، ولا يتحدَّث أحد عن الاندماج». إنه محق في لفت النظر إلى هذا الفارق، لأن احتمالية أن يساعد الاندماج بين الجماعات على تعزيز التسامح العِرقي أكثر بكثير من النقاشات المجردة حول قيمة التنوع.

وعلى مدار عقود، قام الباحثون بدراسة نظرية التواصل الاجتماعي (أو فرضية التواصل، مثلما يسميها العديد من المؤلفين في هذا الكتاب)، والتي تؤكد أنه عندما يتواصل الأشخاص عبر حدود الجماعات، في نشاطات مصممة تصميمًا صحيحًا، فإن سلوكياتهم ومعتقداتهم المتحيِّزة ستتلاشى. وبمراجعة ٢٠٣ دراسة فردية، و٩٠ ألف مبحث، أكد تحليلٌ قام به الباحثان توماس بيتجرو وليندا تروب في العام ٢٠٠٠، قوة التواصل عبر الجماعات، حيث أدَّى التواصل وجهًا لوجه بين أعضاء الجماعة إلى تراجع التحيُّز في ٩٤ ٪ من الحالات.

وكثيرًا ما تعود نظرية التواصل الاجتماعي إلى الحياة داخل قاعات الدرس في بلادنا، وذلك عبر إستراتيجيات التعلُّم التعاوني؛

وهو ما يؤول بطبيعة الحال إلى تقسيم الطلبة إلى مجموعات صغيرة تتمتع بتنوع إثني وعِرقي. وتحتاج المهام الجماعية إلى التواصل وجهًا لوجه، وإلى تضافر الجهود، حيث يكون نجاح الفرد معتمدًا على نجاح الجماعة. في العام ١٩٩٥، أجرى عالم النفس روبرت سلافين تحليلًا قام فيه بمراجعة عشرات الدراسات القائمة، وتوصَّل إلى أن اعتماد إستراتيجيات التعلم التعاوني تزيد من احتمالية تكوين صداقات عابرة للحدود الإثنية والعِرقية بين الطلبة. وتجدر الإشارة إلى أن التعلم التعاوني يعمل أيضًا على تعزيز الإنجاز الأكاديمي وسط الطلبة الملونين.

يوجد، في الوقت الحاضر، عاملان يُصعِّبان على المدارس تبني إستراتيجيات التواصل الاجتماعي. أولهما، ومثلما وثَّق باحثون بمشروع الحقوق المدنية في جامعة كاليفورنيا بلوس آنجلوس، هو أن برامج اختيار المدرسة (بطاقات السداد على سبيل المثال)، والفصل المستمر في السكن، وإضعاف التفويضات القانونية للدمج؛ كل هذه الأمور تعمل معًا على تأجيج تمييز المدارس الأمريكية. ومع بداية القرن الحادي والعشرين، تزايدت أرجحية التحاق الطلبة الأمريكيين من أصول إفريقية بمدارس منفصلة أكثر مما كانت عليه في العام ١٩٦٨. لقد أصبح التعليم المدرسي المنفصل هو القاعدة لدى الطلبة اللاتينيين أيضًا؛ الأمرُ يسري كذلك على الطلبة البيض الأكثر انعزالًا من الناحية العِرقية في البلد. وقد ترك قرارٌ أصدرته المحكمة العليا للولايات المتحدة في العام ٢٠٠٧ –يقضي بمنع المناطق التعليمية من دمج المدارس العامة عن طريق توزيع

الطلبة على مدارس محددة وفقًا للعِرق- المناطق مع مجموعة قليلة من خيارات السعي تجاه الدمج العِرقي الموجَّه. إن إعادة الفصل في مدارسنا من المحتمل أن تتصاعد.

والعامل الثاني، هو أن قانون عدم إهمال أي طفل يضع ضغوطًا هائلة على المدارس والمدرسين من أجل «رفع نتائج الاختبارات». وكثيرًا ما يُترجم هذا الضغط إلى ساعات وساعات من التدريب على الاختبارات داخل قاعات الدرس. فضلًا عن الاعتماد المُقرر للمناهج المكتوبة؛ ما يترك مساحة قليلة -إن وجِدت- لممارسة التعليم التعاوني أو أي شكل آخر من التعليمات التي لا يُنظر إليها باعتبارها استعدادًا للاختبارات الموحَّدة.

ومع ذلك، لا تزال هناك مدارس عديدة متنوعة، وينبغي على هذه المدارس أن تتبنى برامج مثل «قاعة درس الأحجية» ومبادرة «اختلاط يوم الغداء» التابعة لـ«تعليم التسامح» التي تخلق فرصًا أمام مختلف الطلبة لتخطي حدود الجماعات، وتعرُّف بعضهم على بعض. ويمكن أيضًا للأساتذة أن يستفيدوا من قدر المرونة الذي يتمتعون به لتطبيق إستراتيجيات التعلم التعاوني في قاعات الدرس الخاصة بهم.

### السعي إلى المساواة المدرسية

إذا كان المُربون وصنَّاع السياسات يريدون حقًّا تقليل التحيُّز، فيجب أن يسعوا إلى توفير فرص أكاديمية متساوية للطلبة في المدارس. ومثلما يوضح رودولفو مِندوزا - دينتون، في مقالته:

«القولبة!» التي جاءت في بداية هذا الكتاب، فإن الممارسات الشائعة، مثل المتابعة والتقسيم إلى مجموعات وفقًا للقدرات، من الممكن أن تبعث برسائل قوية إلى الطلبة بشأن التفوق المُفترض أو الدونية المُفترضة لمجموعة دون غيرها؛ وإن لم تكن هذه الرسائل مقصودة. فمثلًا إذا هيمن الطلبة البيض على برامج الالتحاق المتقدمة، واكتظت الفصول التعويضية بالطلبة الملونين، فمن الممكن لهذه الحقيقة أن تُطلع توجهات الطلبة على العِرق والعنصرية بعمق. وفي تلك الحالة، ليس من الوارد لكِفَّة خطط الدراسة المناهضة للتحيُّز أن تُرجَّح على حساب هذه التوجهات والخبرات المعيشة.

إن إحدى الطرق التي يمكن أن نواجه بها انعدام المساواة هو أن نُحسِّن إعداد المُعلِّمين للعمل ضمن هيئة طلابية متنوعة. يشير تقرير حديث صادر عن Public Agenda إلى تأكيد أغلبية المربين الجدد (٧٦٪) على أن تدريس الهيئات الطلابية المتنوعة إثنيًّا مشمولٌ في تدريبهم، بينما يوضح ٣٩٪ فقط أن التدريب قد ساعدهم بالفعل في فصولهم الدراسية. كذلك تدعم بحوث «تعليم التسامح» هذه النتائج، ولطالما وجدنا أنه على الرغم من أن المربين يولون عناية كبيرة بنجاح طلابهم، فإنهم كثيرًا ما يفتقرون إلى الدعم والأدوات اللازمة لخلق مجتمعات تنجح في خدمة الطلبة الملونين داخل قاعات الدرس. واعترافًا منا بهذه الحاجة؛ عقدنا شراكة مع الرابطة الوطنية للتعليم، والاتحاد الأمريكي لكليات إعداد المعلمين، والمجلس الاستشاري الوطني لمشاهير الباحثين، لإطلاق مبادرة تعليم الطلبة المتنوعين (TDSi) في خريف ٢٠٠٩. وتقدِّم المبادرة

مجموعة أدوات تطوير احترافية مُصمَّمة خصوصًا لمساعدة المُربِّين على فهم الكيفية التي ينبغي -ولا ينبغي- للعِرق والإثنية أن يوجِّها أساليبهم التعليمية، فضلًا عن كيفية وضع شروط تهدف إلى تحسين فرص تعلم مختلف الطلاب في المدارس.

إن هذه المبادرة مُصمَّمة لتكون مرنة وعملية بحيث يمكن للمربِّين أن ينتقوا المواد الأكثر ملاءمة لاحتياجات مجتمعاتهم المدرسية المُلِّحة والدائمة (على سبيل المثال، الاستفسار عن عمى الألوان، أو نظرة العجز التي تُشاع عن متعلمي اللغة الإنجليزية التي ينزع المُربُّون بسببها إلى التغاضي عن نقاط قوة هؤلاء المتعلمين وما يمتلكونه). أضف إلى ذلك، أن استقراء مثل هذه التوجهات العنصرية المنتشرة، دائمًا ما يتركز على التعليم الفعلي ونتائج التعلم. (على سبيل المثال: إذا ما كُلِّفت معلمة باعتماد التصنيف وفقًا للقدرة، فما الذي ينبغي عليها فعله -لو كان هناك أي شيء- عندما يُسفر هذا التصنيف عن تمييز عِرقي؟ كيف يمكن لمثل هذا التصنيف أن يؤثر في توجهات الطلبة وأدائهم الأكاديمي؟).

تتوفر مصادر المبادرة بشكل مجاني على الإنترنت، من خلال موقع «تعليم التسامح» الإلكتروني. وأملنا أن يساعد هذا البرنامج على تجهيز المُربِّين لتقديم خدمة أفضل للطلبة الذين يتزايد تنوُّعهم، والذين هم تحت رعايتهم.

لقد أحرزت مدارسنا تقدُّمًا هائلًا خلال العقود الأخيرة. لكن من أجل تقليل التحيُّز بدرجة أكبر من ذلك وتوفير مستوى تعليمي

جيد لجميع طلابنا، يجب أن نُلزم أنفسنا بالمجهود المُضني والشاقّ المتمثّل في مراجعة طرق تأثير العِرق والإثنية في مدارسنا وفصولنا الدراسية. ولا يمكننا تحقيق وعد أمتنا بالمساواة إلّا من خلال التزامنا الواضح به؛ من خلال أفعالنا يومًا بعد يوم.

# مخاطر عمى الألوان

دوتي بليز

في إحدى صباحات الجمعة؛ مباشرة بعد أن درَّستُ الإنجليزية في الحصَّة الثالثة، وجدت نفسي في مواجهة مباشرة مع تحيُّزاتي الشخصية المتعلِّقة بالعِرق والثقافة.

كنتُ قد ألقيتُ حالًا خطبة لاذعة، وإن كانت حسنة النية، حول عواقب عدم إتمام الفروض. لم أكن أفهم ما الذي يمنع عديدًا من طلاب الصف العاشر من قراءة فروض القصص القصيرة المطلوبة منهم، أو إن كانوا قد قرؤوها؛ ما الذي يجعلهم يُظهرون هذا القدر الضئيل من الحماسة في النقاشات التي تُدار في الفصل.

بعد أن صرفت الفصل، بقي طالب اسمه جوليان في مِقعده. شعرت أن لديه ما يقوله. وفي النهاية، وقف ثم اقترب من مكتبي. كان جوليان أمريكيًّا من أصول إفريقية، ويبلغ من العمر ستة عشر عامًا. كان طويلًا ولديه عينان ألمعيتان؛ كان أحد طلابي المفضلين.

وكما لو كان يوضح حقيقةً ما، قال: «يجب أن تتوقفي عن محاولة جعلنا بِيضًا؛ جميع هذه القصص التي تجعلينا نقرؤها قد كتبها

أشخاص بيض، وتدور حول أشخاص بيض»، مشيرًا بعينيه إلى الكتاب الدراسي المقرَّر المفتوح على مكتبي.

أجبته في حَزم، وقد أذهلني التلميح إلى العنصرية: «إنني لم أختر هذه القصص بناءً على العِرق يا جوليان». لقد كانت خطيئة لا تُغتَفر في مدرسة ينتمي ٧٠٪ من طلابها إلى أقليات إثنية.

قال وهو يهمس تقريبًا: «ربما كان ينبغي عليك فعل ذلك»، ثم ترك غرفة الدرس إلى الصمت.

لقد عانيتُ لكي أفهم؛ فقد كان اقتراحه لا يُعقل، وخاصة وأنني كنتُ دائمًا معتدَّة بنفسي لتوجيه فصول «عمى الألوان».

أمسكتُ الكتاب الدراسي المقرَّر ونظرتُ إلى الفهرس. وبنظرة سريعة على العناوين والمؤلفين، أدركتُ فجأة الحقيقة المروعة. إنني لم أقصد استبعاد الكُتَّاب الذين ينتمون إلى إثنيات أخرى، ولكنني لم أتروَ أيضًا لإدماجهم. اتضح أن الفروض قد عكست تحيُّزاتي الثقافية غير الواعية، وأن طالبًا واحدًا قد تحلّى بالشجاعة ليقول ذلك.

مثل كثيرين غيري من المُربين أصحاب النوايا الحسنة، تبنيتُ مبدأ عمى الألوان. وتبدو المقاربة جيدةً على المستوى النظريِّ. وفي عالمٍ يمثل فيه الصراع العِرقي مشكلة كبيرة، لِمَ لا يكون عمى الألوان -بما يشتمل عليه من محاولة لاقتلاع العِرق من قاعات الدرس جمعاء- هو الطريقة المُثلى للتأكُّد من ألَّا ينبت رأس العنصرية القبيح أبدًا؟

الأمر الذي لم أكن أدركه حتى حدثت واقعة جوليان، هو أن عمى الألوان ينطوي في باطنه على قُبح. ووفقًا لدراسة أُجريت في العام ٢٠٠٤ على يد عالمة النفس بجامعة نورثويسترن، جينفر ريتشسون وزميلها ريتشارد ناسبام، تكمن المفارقة في أن أيديولوجية عمى الألوان ربما تتسبب بالأحرى في مزيد من التحيُّز العنصري؛ وهي نتيجة يتردد صداها في نتائج أبحاث أخرى.

كيف يمكن لهذا أن يحدث؟ لكي نفهم الكيفية التي يمكن بها لمنظور يستهدف تجنُّب العنصرية في غرف الدراسة، أن يتسبب فعليًّا في تشجيع العنصرية. يتعين على المُربين أن يراجعوا دوافعهم الشخصية وراء تطبيق هذه الإستراتيجية، وهو أمرٌ يمكن للعديد من الدراسات الحديثة المعنية بعمى الألوان أن تساعد على تنفيذه.

ربما يؤمن المُدرسون، مثلما آمنتُ يومًا، أنهم إذا استطاعوا بطريقة ما ألّا يروْا الأعراق التي ينتمي إليها طلابهم، فمن غير الوارد أن يصبحوا عنصريين. ومع ذلك، وجدتْ موجة أبحاث جديدة أن واحدة من أولى الطرق التي يستجيب بها الأشخاص تُجاه الآخرين، وأكثرها تلقائية، هي تصنيف الأفراد وفقًا للعِرق حتى وإن كانوا يتمنون خلاف ذلك. وبتعبير آخر، فإن تحقيق عمى الألوان الحقيقي أمر مستحيل عمليًّا.

ولإنكار ما يتحتَّم عليهم رؤيته، يلجأ العديد من الأشخاص إلى ما يُطلِق عليه الباحثون عمى الألوان «الإستراتيجي»، وهي إستراتيجية تتطلب الحفاظ على منظور أورويلي (نسبة إلى جورج

أورويل) عن العِرق -أي الرؤية وانعدام الرؤية في الوقت ذاته- لتجنب ظهور العنصرية.

وهذه كارثة محقَّقة. ففي واقع الأمر، تكشف ورقة علمية سيكولوجية صادرة في العام ٢٠٠٦ لعالم النفس بجامعة هارفارد مايكل نورتون، وزملائه، عن مقدار الضعف الذي يمكن أن تُلحقه هذه الإستراتيجية الناكرة للعِرق بمخاطر التواصل المعتمد على عمى الألوان بين الأعراق. وفي إحدى دراساتهم، تمَّ تشكيل مجموعات زوجية بطريقة عشوائية بين طلبةٍ ذوي بشرة بيضاء في سن الجامعة وبين شركاء سود أو بيض (أو بالأحرى شريك سري في الدراسة يعمل مع الباحثين). ولعب كل اثنين معًا لعبة «التصحيح السياسي»، حيث كان على الطالب الأبيض أن يفحص اثنين وثلاثين صورة تتغير ثلاث مرات تغيرًا مختلفًا؛ من حيث نوع المشارك، أو لون الخلفية، أو عِرق الْمشارِك. ويُعطَى الشريك الأسود أو الأبيض ستَّ صور من هذه الاثنتين والثلاثين صورة، وعلى الـ«مستجوب» الأبيض أن يحدِّد الصور الفردية التي ينظر إليها الـ«مُجيب» بطرح أسئلة عن الصور، شريطة أن تكون الأسئلة التي يُجاب عليها بنعم أو لا قليلة قدر الإمكان. وعند تكوين مجموعات بين بيض وبيض، كانوا سرعان ما يستفسرون عن عِرق الشخص الْمُمَثل في كل صورة. لكن عندما كانت المجموعات تتشكَّل من شخص أبيض وشريك أسود، كانت احتماليات إثارة مسألة العِرق تتراجع بدرجة لافتة للانتباه، حتى وإن كان فشلهم في القيام بذلك يعني نتائج سيئة في اللعبة.

الأكثر من ذلك هو أنه عندما حاول أصحاب البشرة البيضاء

تجنُّب ذكر مسألة العِرق أمام الشركاء السود، تغيَّرت سلوكياتهم غير اللفظية إلى الأسوإ -بدؤوا في تقليل التواصل البصري على سبيل المثال- وبدا تواصلهم أقل ودًّا بصفة عامة. إن البيض ببساطة لن يخاطروا بأن يُنظر إليهم باعتبارهم عنصريين، حتى لو كان تجاهل العِرق في اللعبة قد أثَّر سلبًا على أدائهم وتفاعلهم مع شركائهم.

وقد انتقلت دراسة نُشِرت في العام ٢٠٠٨ في دورية «الشخصية والسيكولوجيا الاجتماعية» ببحث نورتون خطوة إلى الأمام، وذلك بتتبع الآثار التي تركتها محاولات البيض المتعلِّقة بعمى الألوان على المشاركين السود. والمثير للسخرية هو أن أصحاب البشرة السوداء فسَّروا السلوكيات السلبية غير اللفظية التي أظهرها البيض «العميان لونيًّا» باعتبارها علامات على التحيُّز، فضلًا عن أنها جعلتهم متشكِّكين في شركائهم. ويكاد يكون من غير المفاجئ أن تكون التوترات العِرقية قد تزايدت بين المشاركين.

ما الذي تعنيه هذه النتائج البحثية للمُربين الذين يريدون حقًّا تجنُّب العنصرية في غرف الدراسة؟ يبدو من الواضح أن تبني منظور عمى الألوان، على الرغم من أنه كثيرًا ما يكون بحسن نية وأنه جدليًّا خطوة في الاتجاه الصحيح، لا يتصدَّى حقًّا للتحيُّز وسط الطلبة والكلية؛ بل يزيد من حدة الانقسامات العِرقية. وينبغي أن نتخلَّى عن هذه العادة. وتشير الأبحاث إلى أن منظور التعددية الثقافية الذي يُشجِّع على الاعتراف والاحتفاء بالاختلافات يمكن أن يحلَّ مكان منظور عمى الألوان. ومن المُرجح أن يسهم هذا المنظور بدرجة أكبر في تخفيف التوترات العنصرية، وأن يعزِّز التواصل بين

الأعراق. (انظر مقالة جينفر هولاداي في هذه المجموعة لمزيد من المعلومات المتعلِّقة بمنظور التعددية الثقافية).

وبنظرة استرجاعية، يمكنني أن أفهم لماذا كان جوليان وغيره من الطلبة المنتمين إلى الأقليات يستشيطون حنقًا في صف اللغة الإنجليزية الذي كنت أُدرِّسه. ذلك أنني برفضي الاعتراف بأنهم كانوا مختلفين عني، كنتُ أثير الرِّيبة وعدم الارتياح. والأكثر من ذلك، أنني أهنت هوياتهم الثقافية والعِرقية. إن عمى الألوان الذي كنت أتبنَّاه جعلهم يشعرون بأنهم غير مرئيين، وأنهم بطريقة ما لا يستحقون انتباهي ومنهجي؛ وقد جعلهم ذلك يتلقون جهودي باعتبارها محاولة لـ«تبييضهم».

لقد كان جوليان محقًّا. وإذا كنتُ قد اخترت الاعتراف بالعِرق في فصلي، فقد كان من الممكن أن أنتبه إلى تطوير منهج أكثر شمولية. وكان من الممكن أن أقدِّم إلى تلاميذي من كافة الأعراق فرصة لاستكشاف ثقافاتهم من خلال الأدب الذي وسَّع نصوص الأدب الرفيع التقليدي وأثراها. كان من الممكن أن أستخدم التنوُّع كفرصة لتعليم جميع من في الفصل، بما في ذلك نفسي.

لقد علَّمني جوليان أننا إذا اخترنا عدم الاعتراف بالعِرق في غرف الدراسة، فنادرًا ما سيواجه الطلبة والمدرسون تحيُّزاتهم الخاصَّة. إن التسامح ينتج عن رؤية القواسم المشتركة. ولكن، ما لم نرَ أنفسنا أولًا باعتبارنا مختلفين، فلن نرى أنفسنا أبدًا باعتبارنا متشابهين.

# التغلُّب على التحيُّز في أماكن العمل

جينفر أ. تشاتمان

في العام ٢٠٠٧، أطلقت شركة إنتل إعلانًا مطبوعًا لمعالج «كور ديو» تسبب في جَلَبة. وكان الإعلان الذي تقع أحداثه في مكتب، يصوِّر ستة أمريكيين من أصول إفريقية يرتدون ملابس عدَّائين أوليمبيين وهم ينحنون أمام رجل أعمال قوقازي. وقد وجد عموم الناس هذا الإعلان «غير مراعٍ ومهين»؛ وذلك وفقًا لنانسي بهجت، نائبة رئيس شركة إنتل للتسويق المؤسسي. وسرعان ما أنهت الشركة الحملة الإعلانية، وتقدَّم العديد من المديرين التنفيذيين في إنتل باعتذار عام عن الأمر.

لقد أخبرني أحد العاملين في إنتل، وهو أحد تلاميذي السابقين، أن الإعلان كان «أمرًا جللًا» للموظفين الأمريكيين من أصول إفريقية ممن يعملون هناك، وذلك لأسباب مفهومة. لقد تفاجأ العديد من الأشخاص في إنتل وخارجها بأن الشركة، مع كل المراجعات التي تتم على الدوام، من الممكن أن تكون عمياء إلى هذه الدرجة عن الطبيعة المُهينة في الإعلان.

سأكون أمينة وأقول إنني لم أتفاجأ كثيرًا. وعلى مدار أعوام، قمت بدراسة مجموعة متنوعة من أماكن العمل الأمريكية، ووجدت أن التحيُّزات والتمييز بخير وعلى قيد الحياة في تلك الأماكن. وعلى الرغم من أن الأمر قد لا يكون مقصودًا في كثير من الأحيان، فإن هذه التحيُّزات لا تمثّل مشكلة بسبب الأثر العاطفي الذي تتركه على الضحايا وحسب، وهي أيضًا ليست مقصورة على ممارسات التوظيف التمييزية. إن هذه التحيّزات من الممكن أن تكون خفيّة، وتتسلَّل إلى العديد من الأنشطة التي تؤثِّر في أداء أفراد الموظفين، وفرق عملهم، والمؤسسة ككل.

خذ على سبيل المثال آندريا، إحدى الشخصيات التي التقيتها في معرض بحثي، والتي تتولَّى منصبًا قياديًّا كبيرًا في شركة خدمات مالية. وخلال عملها مع أقرانها الذكور في فريقِ عملٍ، لاحظتْ آندريا أن شركاءها في الفريق نادرًا ما يطلبون رأيها أو يصغون إلى أيٍّ من أفكارها. وبعد أن ذكرت الأمر إلى أحد زملائها المقربين، أفضى إليها بأن عضوًا بالفريق، كان يعرفه، رأى، مثل بقية الفريق، أن إلحاقها بالفريق كان بغرض التنوُّع أكثر منه نتيجة المعرفة المميزة بالمبادرة التي كان فريق عمل مكلَّفًا بها. وكانت النتائج: إحباط، وقلق، وشعور بالقصور. ولحسن الحظ، فإن بحثي قد حدَّد ثلاث خطوات يمكن للمديرين -أو أي شخص في منصب قيادي- اتباعها لتقليل التحيُّز وآثاره السلبية، وهي: لفت الانتباه إلى نقاط القوة التي تخالف الصور النمطية، والتأكيد على المصير المشترك للموظفين، والتأييد الانتقائي للتصحيح السياسي.

### لفت الانتباه إلى نقاط القوة

مثلما يمكن أن نرى في حالة آندريا، فقد توصَّل بحثي إلى أنه إذا كان شخص ما عضوًا في مجموعة لم تكن ممثلة تمثيلًا كافيًا في أماكن العمل على مدار التاريخ -سواء كانت تلك المجموعة من النساء، أو الأمريكيين من أصول إفريقية، أو جماعة أخرى- فسيتوقَّع زملاء العمل من ذلك الشخص أن يؤدي أداءً سيئًا في مهام لم يكن من المعتاد أن يؤديها أفراد جماعته/ ها.

وهذا الأمر صحيح مهما بلغت مهارة الشخص في تأدية تلك المهمة حقًّا. فمثلًا، يتوقع زملاء العمل من المهندسات أداءً أسوأ من الرجال. ولسوء الحظ، فإن هذه التوقعات، سواء كانت واعية أم لا، كثيرًا ما تتحقق. ذلك أن سنوات، وحتى أجيال، من التحيُّز تتسبب في إثقال الشخص، وتؤثر في أدائه، حتى لو لم يكن يواجه (أو تكن تواجه) أي تحيز واضح في مكان العمل.

لكنني وجدت أيضًا أن ما يكابده عمل ذلك الشخص ينتهي عندما يصبح زملاء العمل على دراية بخبرته، بل يتفوق/ تتفوق مثلما يحدث مع بقية الفريق.

إذًا، كيف يمكن لزملاء هذا الشخص أن يُحيطوا علمًا بما لديه من خبرة؟ يمكن تحقيق ذلك بأن يبادر الشخص ويعلن عن مواهبه/ ها، بيدَ أن بعض الأشخاص لا يمتلكون هذا القدر من الانطلاق والاستعداد للتحدُّث عن مواهبهم.

وإحدى البدائل الفعَّالة هي أن يخبر المدير زملاء العمل بشكل

واضح بقدر المهارة التي يتحلَّى بها هذا الشخص، لا سيما إذا كان الشخص ينضم إلى مجموعة عمل جديدة. هل يمكن أن يبدو هذا تفضُّلًا؟ ربما نعم، إلَّا أن بحثي يشير إلى أن لهذا الأمر أثرًا قويًّا وإيجابيًّا، ليس فقط على أداء الشخص بمفرده، وإنما على أداء المجموعة كلها.

وهذه هي المقاربة التي اعتمدتها آندريا، بالفعل، في مهمتها التالية مع فريقها. لقد طلبت من مديرها أن يتأكد من توضيح المهارات والخبرات التي تقدمها آندريا للفريق. وبالفعل وجدت أن الفريق قد أصبح أكثر انفتاحًا نحو آرائها، بل وبدؤوا يطلبون وجهة نظرها بشكل منتظم. وربما نتيجة لذلك، نجد أن الفريق قد انتهى من عمله بسرعة أكبر، وبتكلفة أقل، وبإبداع أكبر من المتوقَّع. ربما يكون لفت النظر إلى خبرة آندريا قد منحها دفعة ثقة، وربما يكون أيضًا قد رفع عن كاهل بقية المجموعة الفكرة المثبِّطة التي تقول إنهم مضطرون إلى «تحمُّل» عضو ضعيف.

## التأكيد على المصير المشترك

تشير الدراسات، مع الأسف، إلى أن أماكن العمل التي تتسم بالتنوع كثيرًا ما تكون منخفضة الإنتاجية، وتفتقر إلى المودة، مقارنة بأماكن العمل المتجانسة. إلَّا أن المديرين يمكنهم تغيير ذلك بتشجيع الأفراد على الاعتراف بالتزامهم المشترك تجاه مؤسستهم، بدلًا من اختلافاتهم الفردية السطحية.

وقد وجدت، في حقيقة الأمر، أنه عندما تركز الثقافة المؤسسية على المصير المشترك للموظفين -حقيقة أنهم جميعًا سينجحون أو

يفشلون معًا كمجموعة- تصبح الفرق المكوَّنة من تشكيلة متنوعة من الموظفين أكثر إنتاجية وإبداعًا من الفرق المتجانسة. ويمكن لقيادات المؤسسة تعزيز هذا الشعور بالمصير المشترك، على سبيل المثال، عن طريق مكافأة فريق كامل على العمل الذي تم إنجازه بدلًا من مكافأة فرد واحد. وبينما يمكن لمثل هذه الإستراتيجيات أن تبدو بديهية، فمن المثير للدهشة أن مؤسسات قليلة هي التي تتبع هذه الإستراتيجيات بصفة مستمرة.

وإحدى المؤسسات التي قمت بدراستها وتتبع هذه الإستراتيجية جيدًا هي IDEO، وهي شركة تطوير منتجات. يعتمد نجاح هذه الشركة على قدرة الموظفين على الإتيان بأفكار منتجات إبداعية وقابلة للاستخدام، وتتعمَّد الشركة توظيف مختلف الأشخاص -أشخاص بخلفيات وخبرات شديدة التباين- ومن ثم تقنعهم بأن مصيرهم متشابك. وبالفعل، فإن أحد أعلى الأدوار مقامًا في المؤسسة ليس الإتيان بفكرة عظيمة، وإنما عرض «مساعدة»، أي مساعدة شخص آخر في تطوير فكرته الجيدة لتصبح شيئًا رائعًا.

## تأييد التصحيح السياسي (أحيانًا)

لقد تطرق بحثي أيضًا إلى استجابات الأفراد تجاه التصحيح السياسي، الأمر الذي نُعرِّفُه أنا وزملائي بمراقبة اللغة التي ربما تكون مُهينة لأعضاء مجموعات ديموغرافية أخرى. بيد أن مديرين كثيرين يعزفون عن تأييد التصحيح السياسي في مكان العمل، على افتراض أنه يخنق التبادل الحرَّ للأفكار.

ما فعلناه في بحثنا هو أننا شجَّعنا بعض الفِرق على استخدام لغة صحيحة سياسيًّا في نقاشاتهم. ومن ثم، قمنا بمراقبة أداء هذه الفرق في تنفيذ مهمة إبداعية. وقد بدا أن التصحيح السياسي يعيق الإبداع في الفِرق الأكثر انسجامًا.

ولكن في الفِرق الأكثر تنوعًا، وجدنا أن تشجيع التصحيح السياسي يرفع مستوى الإبداع. فضلًا عن أنه يطوِّر حساسية تجاه اختلافات الأعضاء. وعلى الرغم من أن الأشخاص كثيرًا ما يكونون قلقين إزاء التعاملات بين الجماعات المختلفة، فقد بدا أن التصحيح السياسي يقدِّم قواعد أساسية واضحة للمحادثات بينهم. الأمر الذي يعمل على زيادة الراحة والثقة، ويُمكِّن أعضاء الفريق من تركيز انتباههم على المهمة المطلوبة منهم على النحو الأكمل.

ويشير بحثي، بشكل عام، إلى أنه حتى بعد أن تخلق المؤسسات مكان عمل يتسم بالتنوع، فإنه تظل هناك حاجة إلى أن يتخذ المديرون خطوات مدروسة ومتسقة لمواجهة التحيُّز. لكن، ولحسن الحظ، فإننا نمتلك ذريعة جيدة لتصديق أن هذه الجهود تؤتي ثمارها؛ بإنشاء أماكن عمل أكثر عدلًا وتوافقًا وإنتاجية.

## المزيد من القراءات

• Chatman, J., A. Boisnier, S. Spataro, C. Anderson, and J. Berdahl. 2008. Being distinctive versus being conspicuous: The effects of numeric status and sex-stereotyped tasks on individual performance in groups. Organizational Behavior and Human Decision Processes 107:141–60.

• Chatman, J., and F. Flynn. 2001. The influence of demographic composition on the emergence and consequences of cooperative norms in groups. Academy of Management Journal 44 (5): 956–74.

• Chatman, J., J. Polzer, S. Barsade, and M. Neale. 1998. Being different yet feeling similar: The influence of demographic composition and organizational culture on work processes and outcomes. Administrative Science Quarterly 43 (4): 749–80.

• Flynn, F., J. Chatman, and S. Spataro. 2001. Getting to know you: The influence of personality on the impression formation and performance of demographically different people in organizations. Administrative Science Quarterly 46 (3): 414–42.

• Goncalo, J., J. Chatman, M. Duguid, and J. Kennedy. Forthcoming. The unintended consequences of political correctness in mixed and same sex groups.

# العمل الشُرطيّ المتحيِّز

أليكس ديكسون

في العام ١٩٨٨، كان الرقيب فيرنون جادجر مجندًا حديثًا في قسم شرطة واشنطن العاصمة. وفي إحدى الليالي، كان متواجدًا في منزل والدته خارج أوقات العمل، وانتبه إلى وجود رجلين أسودين في مثل سنه تقريبًا يحاولان سرقة سيارة شيفروليه كورفير موديل ١٩٦٤؛ كانت مصفوفة في الفناء الخلفي لمنزل والدته.

مُمسكًا بالمسدس في يده؛ غامَرَ جادجر بالخروج وهو يرتدي قبعة بيسبول ومعطفًا أحمر منتفخًا، وأمر الرجلين بالانبطاح على الأرض. وفي الوقت الذي أصبح فيه الرجلان تحت تهديد السلاح، طلب جادجر من والدته الاتصال بالشرطة لتبلغهم أنه ألقى القبض على شخصين يُشتبه بهما. إلَّا أن جادجر سيعلم بعد قليل أن أحد الجيران قد اتصل بالشرطة بالفعل، لكن ليخبرهم أن جادجر هو الذي يمثِّل تهديدًا.

توقف ثلاثة من رجال الشرطة بسيارة دورية وراء جادجر والرجلين، وخرج شرطيان أسودان –واشنطن وتروسديل– وآخر

أبيض. شَهَرَ رجال الشرطة مسدساتهم، واضعين الرقيب جادجر -صاحب البشرة السوداء هو الآخر- في مأزق.

يتذكر جادجر «أن واشنطن وتروسديل هما من صاحا قائلين: 'لا تطلق النار، لا تطلق النار! إنه جادج، إنه جادج! إنه من الشرطة!» رد جادجر صائحًا: «أنا من الشرطة!» وقد قام بتنفيذ تعليمات زملائه بوضع سلاحه على الأرض دون الالتفات إليهم، وذلك رغم قربه الشديد من المجرمين.

بعد تكبيل المشتبه بهما، اقترب الشرطي الأبيض من جادجر، وقال له بينما يشير إلى الشرطيين الأسودين: «أنت محظوظ لأنهما كانا متواجدين، ولولاهما لأصبحت في عداد الموتى».

كان جادجر مدهوشًا، ولم يسعه سوى أن يفكِّر في أن الواقعة كانت من الممكن أن تسلك مسارًا مختلفًا لو كان أبيض. ويجادل جادجر بأن «كل شخص أسود يحمل مسدسًا هو بمثابة مشتبه به» بالنسبة إلى العديد من رجال الشرطة أصحاب البشرة البيضاء.

والحقيقة أن مثل هذه الحوادث تؤدي إلى توجيه اتهامات بالعنصرية ضد أقسام الشرطة في جميع أنحاء البلاد. وعلى مدار العِقدين الماضيين، انتهت مواجهات مشابهة بوفاة أبرياء مثل: عُمر إدواردز، رجل شرطة بمدينة نيويورك، أمريكي الجنسية وينحدر من أصول إفريقية، حيث تعرَّض لإطلاق النار والقتل في مايو ٢٠٠٩ على يد زميل أبيض البشرة. وأمادو ديالو، مهاجر من غرب إفريقيا، تعرَّض لإطلاق النار واحدًا وأربعين مرة على يد رجال

شرطة نيويورك في العام ١٩٩١، وذلك بعد ظنهم خطأً أن محفظته كانت سلاحًا. ومثلما ذكَّرَنا السخط الذي تسبب فيه القبض على هنري لويس جيتس جونيور في يوليو ٢٠٠٩ (أُلقيَ القبض على جيتس في منزله على يد الشرطة التي كانت تحقِّق في اقتحام محتمل) بأن دور التحيُّز العنصري في الشرطة لا يزال موضوعًا شائكًا جدًّا.

ولمواجهة هذه المسألة؛ وضع علماء الإدراك سيكولوجية العمل الشرطي نصب أعينهم، باحثين وراء احتمالية أن تكون التحيزات العنصرية غير المقصودة هي مُحفِّز الأحكام الفورية التي يتعين على رجال الشرطة إطلاقها. وتلقي النتائج التي توصَّل إليها العلماء الضوء على الجذور الإدراكية العميقة للتحيُّز العنصري، وكيف يمكن لهذه التحيُّزات أن تدفع قرارات رجال الشرطة المتعلِّقة بتوقيت ضغطهم على الزناد؟ وفضلًا عن ذلك؛ فإنها تقف وراء موجة جديدة من التدريبات الشرطية، في محاولة لتقليل احتمالات وقوع مزيد من حوادث إطلاق النار المشابهة لحادثة إدواردز أو ديالو.

## مقدار ثلاث غمضات

لطالما كان جوشوا كوريل، الأستاذ المساعد بقسم علم النفس في جامعة شيكاغو، رائدًا في الدراسات النفسية المعنية بالتحيز العنصري المرتبط بجهاز الشرطة. وقد بدأ اهتمام كوريل بالمسألة عقب حادثة إطلاق النار على ديالو. كان كوريل طالب دراسات عليا حينذاك، وألهمته الحادثة للبحث فيما إذا كان من الممكن لذلك

العلم الناشئ المعني بالتحيُّز العنصري أن يساعد على تفسير ردِّ فعل الضباط.

أجرى كوريل دراسة مستخدمًا محاكاة حاسوبية بسيطة نسبيًّا. وفي المحاكاة، تظهر لوهلة قصيرة سلسلة من الصور على الشاشة. تصور بعض هذه الصور مختلف الأماكن: ريف، متنزه المدينة، واجهة بناية. وتُظهر صورٌ أخرى رجالًا سودًا وبيضًا يمسكون أشياء في أياديهم، إما أغراضًا غير مؤذية مثل هواتف محمولة أو محافظ، وإما أسلحة. ومن المفترض أن يُطلق المشاركون النار على الرجال حاملي الأسلحة، وأن يتجنَّبوا إطلاق النار على الرجال الذين لا يحملون أسلحة. ولا يوجد أمام المشاركين سوى ٨٥٠ مِلِّي ثانية، أي ما يعادل ثلاث غمضات للعين، للضغط على زر يحمل عنوان: «أطلق النار»، أو آخر يحمل عنوان: «لا تطلق النار».

عندما أجرى كوريل هذه الدراسة على طلبة جامعيين من أصحاب البشرة البيضاء، وجد أن احتمالية إطلاق المشاركين النار على الرجال السود غير المسلحين أكبر منها عند ظهور رجال بيض غير مسلحين. وكانت احتمالية إطلاقهم النار على رجال بيض مسلحين أقل منها عند ظهور رجال سود مسلحين. وكذلك اختلف توقيت رد الفعل، حيث كانت سرعتهم في إطلاق النار على رجال سود يحملون سلاحًا أكبر منها عند ظهور رجال بيض يحملون سلاحًا، وكانوا أبطأ في الضغط على زر «لا تُطلق النار» عندما يكون الرجل غير المسلح أسود البشرة أكثر مما لو كان الرجل

غير المسلح أبيض. حتى إن هذه النتائج كانت أقوى لدى المشاركين الذين أقرُّوا بأن تواصلهم أكبر مع أصحاب البشرة السوداء. وعندما أجرى كوريل هذه الدراسة مع أفراد مجتمع أمريكي من أصول إفريقية ومن ذوي البشرة البيضاء، في دنفر، توصَّل إلى أن المجموعتين أظهرتا التحيُّز العنصري ذاته.

كانت ترايسي كيسي، رئيسة قسم الأبحاث بقسم شرطة دنفر، مفتونة بدراسة كوريل. وكان قسم شرطة دنفر حينذاك في خضم الجدال الدائر حول واقعة إطلاق النار على بول تشايلدز، وهو فتًى أسود يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا، وكان يُعاني من إعاقة ذهنيَّة، وتعرَّض للقتل على يد رجال شرطة دنفر.

تقول كيسي: «أحد الأسئلة التي ظلت تُطرح في كثير من لقاءات المجتمعات المحلية هو ما إذا كان قسم شرطة دنفر قد عمل بطريقة ما على تدريب رجاله على التركيز في قتل الشباب الأمريكيين الذكور من أصول إفريقية. وبطبيعة الحال، كانت إجابتنا الأولية هي «لا، قطعًا لا». بيد أننا لم نعرف أبدًا احتمالية أن يكون لتدريبنا أثرٌ عكسي أو مؤذٍ على ما نحاول القيام به».

تواصلت كيسي مع كوريل، وأصبح قسم شرطة دنفر أول قسم شرطة مستعدًّا وقادرًا على العمل معه في بحثه.

وفي العام ٢٠٠٧، قام كوريل وزملاؤه بتوظيف ما يقرب من مئة ضابط يعملون في قسم شرطة دنفر، ومئة شخص آخرين من سكان دنفر، ومئة رجل شرطة إضافيين–من مختلف أنحاء البلاد–

ممن سبق أن حضروا مؤتمرًا شرطيًّا في دنفر؛ وذلك من أجل إجراء دراسة. وعلى الرغم من أن أغلب المشاركين كانوا من أصحاب البشرة البيضاء، فقد شملت الدراسة أيضًا بعض المشاركين السود واللاتينيين. وخضع جميع المشاركين لمحاكاة مماثلة لتلك التي كانت في دراسة كوريل، إذ تعيَّن على المشاركين اتخاذ قرار في جزء من الثانية بشأن إطلاق النار من عدمه على شخصيات بيضاء أو سوداء، بعضها مسلح والآخر غير مسلح، ضمن محاكاة حاسوبية.

وعلى غرار دراسة كوريل المُشار إليها سابقًا، وجد الباحثون أن أفراد الشرطة والمجتمع على حدٍّ سواء كانوا أسرع في إطلاق النار على أصحاب البشرة السوداء المسلحين أكثر من ذوي البشرة البيضاء المسلحين، بصرف النظر عن عِرق المشارِك. وقد استغرق جميع المشاركين وقتًا أطول في اتخاذ قرار بعدم إطلاق النار على صور ذوي البشرة السوداء ممن لا يمثلون تهديدًا، من أولئك الذين يحملون محافظ أو هواتف محمولة.

ويُفسر كوريل: «ما يعنيه هذا هو أنه عندما نرى هدفًا أسود على الشاشة، ربما تتبادر إلى أذهاننا فكرة الأذى أو التهديد».

يدعِّم العديد من علماء النفس والأعصاب، غير كوريل، هذا التفسير. ومثلما تصف سوزان فيسك في أول مقال بهذه المجموعة، فقد وجدت عالمة الأعصاب بجامعة نيويورك إليزابيث فيلبس وزملاؤها أن المشاركين قد أظهروا نشاطًا في منطقة بالدماغ يُطلق عليها اللوزة الدماغية عند رؤية وجوه سوداء أكبر من ذلك الذي

يحدث عند رؤية وجوه بيضاء. إن نشاط اللوزة الدماغية يرتفع عندما نشعر بالتهديد أو الخوف، ما يشير إلى أن المشاركين ربما يكونون قد اختبروا مشاعر خوف أو حتى عداء لدى رؤية وجوه سوداء.

وفي دراسة يترأسها عالم النفس كيث باين، الأستاذ بجامعة نورث كارولينا في تشابل هيل، طُلب من المشاركين المتواجدين أمام الحواسيب أن يضغطوا على زر معين عند رؤية صورة سلاح، وأن يضغطوا على زر آخر عند رؤية صورة أداة. لكن قبل أن يروا هذا أو ذلك، كانت تومض على الشاشة صورة ذكر أسود أو أبيض. كان المشاركون أسرع في تمييز السلاح بعد اختلاس لمحة سريعة على الرجل الأسود أولًا؛ وكانت أرجحية أن يظنوا أن الأداة سلاح عن طريق الخطأ بعد رؤية وجه أسود تزداد أكثر مما لو كانوا يرون وجهًا أبيض. (لمعرفة المزيد عن نتائج هذه الدراسة، انظر مساهمة كريم جونسون في هذه المجموعة).

إن مثل هذه النتائج توحي للعلماء بأن العقل مبرمج على تكوُّن رد فعل سريع تجاه التهديدات المحتملة. وعلى الأقل في الثقافة الأمريكية، ربما يرى الأفراد وجوه الذكور السوداء باعتبارها إحدى هذه التهديدات، وذلك نتيجة ظروف مجتمعية. حتى إن هذه العملية من الممكن أن تؤثر في الأشخاص الذين يتحاشون التحيُّز العنصري في كل أشكاله، وفي رجال الشرطة الذين يقسمون أن يحافظوا على القانون دون تحيُّز، وفي الأشخاص الملونين أنفسهم. كتب فيلبس:

«ما لم يكن المرء معزولًا اجتماعيًّا، فسيكون تلقي تقييمات من الأوساط المجتمعية أمرًا مستحيلًا. بيد أن مثل هذه التقييمات من الممكن أن تؤثر في السلوك بطرق خفية، وغير مقصودة في أغلب الأحوال».

وفيما يخص الشرطة، فإن العلماء يخشون أن هذه الظاهرة ربما تكون لها عواقب وخيمة، وأنها ربما تزيد من احتمالية الضغط على الزناد لدى رؤية شخص أسود يُشتَبه في أمره؛ لا سيما عندما يتولَّد لديهم اعتقاد بأن حياتهم الشخصية من الممكن أن تكون على المحك. وربما يساعد هذا على تفسير أسباب وقوع أربع حوادث يقوم فيها شرطي أبيض بإطلاق النار على شرطي أسود -بما في ذلك واقعة إدواردز- على مدار ١٦٥ عامًا هي تاريخ شرطة نيويورك، دون أن يقوم شرطي أسود بإطلاق النار على شرطي أبيض مُطلقًا. وعلى مدار اثنين وعشرين عامًا هي طول مدة عمل الرقيب جادجز شرطيًّا في واشنطن العاصمة، تعرَّض ثلاثة رجال شرطة سود لإطلاق النار على يد شرطة بيض؛ حيث قتل اثنان، بينما بقي الثالث مشلولًا.



## تدريب إصبع الزِّناد

بيد أن الأمر ربما لا يكون بهذه البساطة؛ ففي الدراسة التي أجراها كوريل في العام ٢٠٠٧، يبدو أن قدرًا من التحيُّز غير الواعي كان وراء الوقت الذي استغرقه أفراد المجتمع ورجال الشرطة في الوصول إلى قرارٍ بإطلاق النار من عدمه. لكن عندما جاء الوقت

لاتخاذ قرار نهائيٍّ -سواء كان هذا القرار هو الضغط على الزناد أم لا- لم يبدُ أن ضباط الشرطة كانوا متأثرين بالعِرق؛ ذلك أنهم لم يُطلقوا النار خطأً على سود غير مسلحين بمِثل وتيرة الأفراد العاديين، بل لم يطلقوا عليهم النار بقدر أكبر مما أطلقوا على البيض غير المسلحين.

يقول كوريل: «ربما يعني هذا أن الشرطة تفعل شيئًا؛ إنهم يقدمون نموذجًا لا نراه كاملًا بالفعل مع أيِّ جماعة أخرى قمنا باختبارها».

ربما يكون أحد الأسباب الذي يجعل الشرطة أكثر دقة، مثلما يقول كوريل، كامنًا في البرامج المكثَّفة المعنيَّة بالتدريب على الأسلحة النارية التي يتعيَّن على الشرطة اجتيازها قبل أن يصبحوا ضباطًا. وفي الوقت الذي يتكبَّدون فيه عناء هذه التدريبات -التي تتفاوت من محاكاة حاسوبية بزاوية ٣٦٠ درجة إلى تدريبات بنادق الطلاء- فإنهم يعملون على تحسين الطريقة التي تتحدَّث بها أدمغتهم إلى أصابع الزناد، وكذلك تعلُّم وقت إظهار ضبط النفس.

تقول أستاذة علم الجريمة بجامعة جنوب فلوريدا لوري فريديل: «إننا نحرز تقدمًا في تدريب الشرطة؛ ربما تكون الشدة التي أصبحت عليها تدريبات استخدام القوة أن تكون قد تصدَّت للانحيازات العِرقية المستترة للشرطة، أو حتى وازنتها».

هل يتعارض هذا مع الافتراضات السائدة حول حوادث إطلاق نار مثل حادثة ديالو أو إدواردز؛ بحكم أنها نتاج التحيُّز

العنصري؟ الجواب: ليس بالضرورة. وتوضح فريديل أنه على الرغم من أن تدريبات الشرطة المتعلِّقة بالأسلحة النارية من الممكن أن تكون فعَّالة في مواجهة بعض التحيُّز العنصري، فإن الأبحاث تُظهر أن التحيُّزات غير الواعية متجذِّرة بعمق في أغلب الأشخاص، وأن هذه التدريبات لا تصل فعلًا إلى جذر المشكلة.

وتضيف فريديل: «حتى أفضل الضباط يمكنهم الوقوع في التحيُّز الأمني، لأنهم بشر». وعلى ما يبدو، فإن الإحصاءات الوطنية تدعِّم ما تشير إليه فريديل. فوفقًا لتحليل معهد سياسة العدالة، على سبيل المثال، فإن احتمالية أن يتعاطى شابٌّ أبيض المخدرات أو أن يتاجر فيها تزيد بدرجة أكبر بكثير مقارنة بشابٍّ أمريكي ينحدر من أصول إفريقية. وعلى الرغم من ذلك، فإننا نجد أن عدد الشباب السود المقبوض عليهم في جرائم مخدرات يصل إلى الضعف تقريبًا.

إن قدرة الضباط على إخضاع تحيزاتهم العِرقية للسيطرة -مثلما يرجح بحث كوريل- من الممكن أن تنكشف عند تعرُّضهم للضغط، أو في نهاية يوم عمل طويل. ويستكشف بحثه الحالي الكيفية التي يمكن للضغط والإرهاق أن يؤثِّرا بها على قرارات الضباط المتعلِّقة بالضغط على الزناد.

تعمل فريديل حاليًّا على تطوير برنامج تدريبي مموَّل من وزارة العدل الأمريكية، ومصمَّم خِصِّيصَى لمواجهة التحيز العنصري غير الواعي. ويعتمد البرنامج على إستراتيجيتين أساسيتين. تُطلق فريديل على إستراتيجيتها الأولى اسم «زيادة الوعي». وتكمن فكرة

هذه الإستراتيجية في إفهام ضباط الشرطة أن الانحيازات العنصرية كامنة تحت عقولنا الواعية جميعًا؛ مثلما تشير الأبحاث النفسية. وبهذه الطريقة، تزداد أرجحية أن يضبط رجال الشرطة المتواجدون في الميدان أنفسهم، عندما تكون هناك شُبهة بتأثُّر سلوكهم تأثرًا غير واعٍ بالانحيازات الخفية. فمثلًا، يمكن للضباط المشاركة في محاكيات يطلقون فيها أحكامًا سريعة على المشتبه بهم؛ وذلك قبل أن يتراجعوا خطوة إلى الوراء لمراجعة كيف يمكن لهذه الأحكام أن تكون متأثرة بعِرق المشتبه بهم؟

وتعتمد إستراتيجيتها الثانية على ما يُعرف في علم النفس بفرضية التواصل، وهي ظاهرة تذهب إلى ما هو أبعد من الجانب الأمني. وتذهب الفكرة إلى القول بأن الشخص يكون أقل عرضة للتحيُّز إذا كانت لديه تجارب إيجابية مع أفراد ينتمون إلى جماعة إثنية أو عرقية أخرى. ومن الممكن أن يتم اعتبار الأمر ذوقًا عامًّا فيما يتعلق بالعنصرية الصريحة، بيد أنه ربما يؤثر أيضًا في الانحياز غير الواعي. تقول فريديل: «تأتي فرضية التواصل بنتائج رائعة. هناك عدة عوامل يتعين على الشرطة مراعاتها عند التوظيف، وبالتأكيد لا أريدهم أن يركِّزوا على عنصر واحد، فمع تماثل كل شيء، ربما تكون هناك حاجة إلى الشخص صاحب الخبرات الإيجابية المتنوعة مقابل الشخص الذي لا يمتلك هذا النوع من الخبرة». (لقد ترعرع ضابط شرطة نيويورك الذي أطلق النار على عمر إدواردز وقتله، في جزء من لونج آيلند الذي يمثل البيض ٨٥٪ من سكانه).

وتدعِّم هذه الفكرة دراسة أجراها ميشيل بروش وآشبي بلانت،

عالما النفس بجامعة ولاية فلوريدا، في العام ٢٠٠٦. فعن طريق الاستعانة بمحاكاة شديدة الشبه بمحاكاة كوريل، وجد ميشيل وبلانت أن الضباط الذين سبق وأشاروا إلى أنهم يتواصلون إيجابيًّا مع أشخاص سود أقل احتمالية بأن يُطلقوا النار على أشخاص سود مشتبه بهم من غير حاملي السلاح، وذلك مقارنةً بأقرانهم ممن يُضمِرون توجُّهات سلبية نحو أصحاب البشرة السوداء.

ويعتبر برنامج فريديل جزءًا من حركة أكبر تستهدف الاستفادة من أبحاث مثل تلك التي أجراها كوريل، وكذلك سدَّ الفجوة بين البحوث العلمية وإنفاذ القانون. وقد عمل «مشروع التحيُّز العنصري الأمني» -وهو برنامج ترأسه جينفر إيبرهارت أستاذة علم النفس بجامعة ستانفورد- على تكوين شراكات بين أجهزة الشرطة وعلماء النفس الاجتماعي، بما أتاح الفرصة أمام الأجهزة للمشاركة في أبحاث متطوِّرة تتطرَّق إلى بعض الأسئلة غير المُجاب عليها فيما يتعلق بالتحيُّز العنصري ودورها في المراقبة. وفي العام ٢٠٠٤، نظَّمت إيبرهارت مؤتمرًا غير مسبوق جمع باحثين ومسؤولين عن إنفاذ القانون من أربعة وثلاثين جهازًا في ثلاث عشرة ولاية مختلفة. وكان المؤتمر مُصمَّمًا لمساعدة الأبحاث على تنوير الشرطة؛ والشرطة على تنوير العلوم الاجتماعية، مع التركيز على أن تكون الدراسات التي تجريها أكثر ارتباطًا بمآزق العالم الحقيقي.

«وسيطُ وِفاقٍ» آخر هو ائتلاف الريادة الشُرطية في المساواة التابع لجامعة كاليفورنيا في لوس آنجلوس، والذي يساعد أقسام الشرطة

في توحيد الجهود مع أفضل الباحثين حول العالم. وبالفعل، كرَّست تسعة أقسام شرطة في أمريكا الشمالية نفسها للعمل مع باحثين -من بينهم كوريل وكيسي وإيبرهارت- كجزء من هذا الائتلاف.

وهناك دلالات أخرى تشير إلى أن إنفاذ القانون يأخذ هذه البحوث على محمل الجد. فبعد وفاة إدواردز، قام قسم شرطة نيويورك بتوظيف كوريل للتحقيق في الدور الذي ربما يكون العِرق قد لعبه في حادثة إطلاق النار. وفي العام ٢٠٠٧، بعد التقرير الذي أشارت فيه سان فرانسيسكو كرونيكل إلى أن معدل إيقاف الأمريكيين من أصول إفريقية أعلى من أي مدينة أخرى بكاليفورنيا، توجَّهت فريديل إلى قسم شرطة سان فرانسيسكو بثمانٍ وعشرين توصية معنية بكيفية الوقاية من العمل الشُّرطيِّ المتحيِّز عنصريًّا. وقد شعرت بالتشجيع عندما وجدت ترحيبًا من القسم حيال اِتباع العديد من هذه التوصيات، مثل السماح لها بإجراء تدريبات معنية بالتحيُّز مع رؤساء الأقسام. وتأمل حاليًّا أن يتبنى قسم شرطة سان فرانسيسكو البرنامج الذي تقوم بتطويره لوزارة العدل، ليكون الأول الذي يقوم بذلك من بين عدة أقسام شرطة أخرى.

تقول فريديل: «واقع الحال هو أن أي قسم يعيِّن بشرًا هو بحاجة إلى أن يكون سبَّاقًا فيما يتعلق بتشجيع العدالة والعمل الشُّرطي النزيه، بما ينأى بنا عن توجيه أصابع الاتهام إلى من هو سيئ ومن هو جيِّد».

# بالتحدُّث.. يتولَّد الفهم بين البشر

رودولفو مِندوزا- دينتون

في ١٨ فبراير ٢٠٠٩، ألقى إيرك هولدر، المحامي العام المُعيَّن حديثًا في إدارة الرئيس الأمريكي باراك أوباما، خطاب العلاقات العِرقية الذي أصبح الآن شائنًا. وفي ذلك الخطاب الذي كان بمثابة نداء إلى الأمة من أجل إجراء محادثات صريحة بشأن العِرق، حذَّر هولدر:

لطالما كنا عنصريين في بعض الأمور، ولا نزال في صميمنا أمة جبانة في أوجهٍ كثيرة... نعمل بعضنا مع بعض، ونتناول الغداء معًا، ونجتمع بصورة جيدة نسبيًّا عندما يكون هناك حدث في مكان العمل خلال الدوام أو بعده بفترة وجيزة؛ بصرف النظر عن العِرق. وحتى إن كان هذا التفاعل يحدث في حدود معينة، فبـ«الفطرة الأمريكية» والسلوك المكتسب؛ نعرف أن هناك موضوعات بعينها محظورة، وأن التطرُّق إلى هذه الموضوعات من الممكن أن يؤدي إلى الإحراج في أفضل الأحوال، وإلى طرح تساؤلات حول شخصية الفرد في أسوإ الأحوال.

وقد جعلت كلمات المحامي العام العديد من الأشخاص يشعرون بأنهم يتعرَّضون لأحكامٍ ظالمة وهجوم. فبعد كل شيء، وقبل شهر تقريبًا من خطاب هولدر، كانت الدولة تحتفل بتنصيب أول رئيس أمريكي ينحدر من أصول إفريقية؛ في انتخاباتٍ اعتبرها الكثيرون شجاعة كبيرة للمضي قُدمًا نحو مجتمع ما بعد العنصرية. وها هو ذا المحامي العام للدولة -حديث الثراء- يؤنِّب مواطنيه على افتقارهم إلى الجرأة؛ مباشرة بعد اتخاذهم أحدَ أكثر الخطوات الحاسمة ضد العنصرية في التاريخ الأمريكي.

بيد أن البحوث المعاصرة المعنية بالتواصل بين الأعراق تدعِّم بعض الدعم لدعوى هولدر بأن القضايا العِرقية تصعُب مناقشتها على الأمريكيين بصفة خاصة. فعلى سبيل المثال، توصلت أبحاث حديثة أجرتها صوفي تراوالتر وجينفر ريكسون إلى أن التفاعلات بين الأعراق تتسبَّب في توتُّر أكبر؛ إذا ما قورنت بالتواصل مع أشخاص ينتمون إلى العِرق نفسه. وكذلك، تتسبَّب المحادثات بين الأعراق المختلفة في إثارة أعصاب المشاركين البيض بصفة خاصة، وذلك عندما يكون تركيزهم مُنصبًّا على مسألة العِرق.

وانطلاقًا من مثل هذه النتائج البحثية، يتعيَّن علينا أن نسأل: كيف يمكن لبلد يعتنق مُثُل المساواتية، وانتخب حديثًا أول أمريكي من أصول إفريقية ليترأس بلاده، كيف يمكن أن تكون لديه حتى الآن صعوبة في التحدُّث عن موضوعاتٍ قد أضفت على هذه الانتخابات تلك الأهمية التاريخية في المقام الأول؟

ألقى بحثٌ سيكولوجي جديد الضوء على إجابة من نوع ما. ومن قبيل المفارقة أن تكون هذه المُثل المساواتية التي يعتزُّ بها الكثير منا، والتي ساعدت على انتخاب باراك أوباما رئيسًا لنا، هي ذاتها المُثل التي أدَّت إلى أجواء مُربكة وعصبيَّة في التفاعلات والمحادثات بين الأعراق المختلفة. إنَّ هذا البحث الجديد يساعدنا على فهم الشَّراك المحيطة بالتفاعلات بين الأعراق، ويكشف عن مجموعة مبادئ إرشادية تساعد في جعلها أكثر إيجابية وإثمارًا.

### منعطفات على طريق المساواة

في دراسة حديثة، أجرت نيكول شيلتون وجينفر ريكسون وجيسيكا سالفاتور وصوفي تراوالتر تجربة مختبرية؛ طُلب فيها من المتطوِّعين البيض والسود التحدُّث عن العَلاقات العِرقية، وتحديدًا هذا النقاش المحتمل أن يتسبَّب في الإرباك وفقًا لتقدير هولدر المحامي العام. وقامت الباحثات بقياس التحيُّز العنصري المستتر لدى المشاركين البيض، أي ردود الفعل الفورية، والارتباطات غير الواعية بين الأشخاص السود والصور النمطية. وبعد المحادثة، قدَّم المشاركون السود انطباعاتهم عن شركائهم البيض.

وكانت المفاجأة أن الباحثات وجدن أنه كلما كان الشركاء البيض أقل تحيُّزا، كانت محبة شركائهم السود لهم أقل! كيف يمكننا تفسير هذه النتائج؟ يشير بحث أجرته جاكي فوراور بالتعاون مع كوري تيربي إلى أن الأشخاص الذين يقفون عند مستوًى منخفض من التحيُّز تكون لديهم رغبة قوية في إظهار كم هم غير متحيِّزين.

ونتيجة لذلك، يستهلكون طاقة كبيرة في مراقبة سلوكهم إلى الحدِّ الذي يمكن معه أن يشعروا بـ«الاختناق» تحت ضغط رغبتهم في ترك انطباع جيد. ومن ثم، فربما لم يتمكن المشاركون الأقل تحيُّزًا، فعلًا، في دراسة شيلتون وزميلاتها من إيلاء عناية تامة بالتفاعل نفسه؛ وذلك نتيجة انشغالهم الذهني بضرورة التأكيد على أنهم بأيِّ حال من الأحوال لا يفعلون أي شيء يُظهرهم بمظهر المتحيِّز. إلا أنه من سخرية القدر أن جهودهم لإثبات المساواتية التي يؤمنون بها ربما تكون قد جعلتهم شركاء سيئين في الحديث.

يتردّد صدى هذه النتائج في بحثٍ مُشار إليه في مقالتي «القولبة!» الواردة في القسم الأول من هذه المجموعة، حيث تُظهِر المقالة كيف يمكن للأداء أن يضعُف نتيجة الانشغال بالكيفية التي يُنظَر بها إلى المرء. وإذا ضربنا مثلًا بأوساط مجتمعات الأقليات؛ فسنجد أن القلق حيال تأكيد الصور النمطية السلبية والانشغال بأن يكون الفرد هدفًا للتحيُّز، من الممكن أن يتسببًا في زعزعة الأداء الأكاديمي والمهني وتحفيز ردود أفعال مرتبطة بالتوتُّر ودفع الأشخاص إلى تجنُّب التواصل عبر المجموعات كليَّةً. وأخيرًا، أشار علماء النفس فيل جوف وكلود ستيل وبول دافيز إلى أن البيض أيضًا من الممكن أن يختبروا الآثار المُربِكة النابعة من تهديد أن يكون المرء موضوعًا للتنميط، وذلك خلال التفاعلات بين الأعراق المختلفة.

لكن ما هي الصور النمطية التي تُشعِر البيض بالتهديد؟ يُخمن جوف وزملاؤه أن تكون تلك الصور النمطية هي تعرُّض المرء للتحيُّز، أي «طرح تساؤلات حول شخصية الفرد» التي أشار

إليها هولدر. ومثلما تتسبب مشاغل السود المتعلِّقة بتأكيد الصور النمطية السلبية في إضعاف أدائهم؛ بصرف النظر عن قدر المهارة التي يتمتَّعون بها، فإن قلق البيض حيال تأكيد الصورة النمطية لـ«الأبيض العنصري» من الممكن أن تُضعِف سلوكياتهم خلال التفاعلات بين الأعراق المختلفة؛ بصرف النظر عن مستوى التحيُّز الذي يقفون عنده فعليًّا. إن الصورة النمطية مختلفة، والموقف مختلف، لكن العملية واحدة لدى البيض والسود على حدٍّ سواء.

أجرى جوف وزملاؤه تجربة توضِّح هذا الأثر، حيث طلب الباحثون من المشاركين البيض وضع ثلاثة مقاعد بترتيبٍ يُمكِّنهم من إجراء محادثة مع شريكين أسودين حول التنميط العنصري. وأظهرت النتائج أنه بصرف النظر عن قدر التحيُّز الذي يُضمِره المشاركون، فإن المسافة التي يضعونها بينهم وبين شركائهم عند ترتيب المقاعد تتزايد بتزايد قلق المشاركين حيال تأكيد الصورة النمطية للأبيض العنصري. لقد كان قلقهم من أن يظهروا بمظهر المتحيِّز، وليس مستواهم الفعلي في التحيُّز، هو ما جعلهم ينأوْن بأنفسهم عن شخص ينتمي إلى عِرق آخر.

## لِمَ لا يمكنك قراءة أفكاري؟

بطبيعة الحال؛ ليس في وُسع الآخرين تخمين نوايانا الحسنة في أغلب الأحوال، حتى على الرغم من أن الدافع وراء ذلك التصرُّف المتعلِّق بترتيب المقاعد هو عدم الظهور بمظهر العنصري. بيد أن المفاجئ في الأمر هو أننا نتصرَّف كما لو أن من نلتقيهم ينبغي

عليهم، في حقيقة الأمر، أن يكونوا متمكِّنين من قراءة العقول. بل إننا نتصرَّف بسلبية عندما لا يتمكَّنون من ذلك.

وعلى سبيل المثال، أظهرت جاكي فوراور أن الأفراد -خلال اللقاءات بين الأعراق المختلفة، وتحديدًا الأشخاص الأقل تحيُّزًا- يتوقَّعون أن تكون هواجسهم وسلوكياتهم القائمة على مبدإ المساواة شفَّافة لشركائهم. لكن بالطبع، لا يمكن لهؤلاء الشركاء قراءة أفكارهم، إذ جُلُّ ما يستطيعون القيام به هو قراءة سلوكياتهم. ووفقًا لأبحاث أخرى، فإن سلوكياتهم كثيرًا ما تتسم بالتردُّد والإرباك.

وفي بحوث ذات صلة، أظهرت نيكول شيلتون وجنيفر ريكسون أن البيض والسود مهتمُّون فعلًا بالتواصل العابر للأعراق. ومع ذلك تفترض كل مجموعة أن المجموعة الأخرى غير مهتمة بالتواصل، ومن ثم لا تبادر إحداهما بالتواصل نتيجة لهذا الافتراض الخاطئ. وينشأ هذا النوع من الظواهر التي تُسمَّى بالجهل التعددي عندما يتصرَّف طرفانِ أو أكثر استنادًا إلى افتراضات غير صحيحة بعضهم عن بعض. إن الأمر يشبه مجموعة من المراهقين الذين ينتهي بهم الحال إلى تناول كحوليات لا قِبل لهم بها لمجرد أن الجميع يعتقد أن البقية ترغب في ذلك. وعندما سألت شيلتون وريكسون المشاركينَ عن أسباب فشلهم في التواصل مع أشخاص ينتمون إلى أعراق أخرى في مواقف اجتماعية معينة؛ أجاب أفراد كل مجموعة بأنهم بالأحرى يتجنَّبون التواصل خشية الرفض، إلَّا أنهم فسَّروا خطأً التجنُّب الذي تتبعه المجموعة الأخرى على أنه قِلة اهتمام.

ومع الأسف، يمكن لهذا النوع من الإشارات المغلوطة أن يعمل على تفاقم حالة ضاغطة ودقيقة من الأساس. وفي مختبري الخاص، وجدتُ أنا وزملائي أن ردود أفعال الأشخاص كثيرًا ما تنطوي على مشاعر قوية من الغضب والقلق، وذلك عندما تتأكَّد توقُّعاتهم السلبية المتعلِّقة بالتفاعل العابر للأعراق؛ أي عندما يتصوَّرون أن الآخرين يتجنَّبونهم أو يتصرَّفون معهم بطريقة مُربِكة. وفي المقابل، تُقلِّل هذه المسألة من احتمالية انخراطهم في تفاعلات من الممكن في يوم من الأيام أن تُخالف توقُّعاتهم السلبية.

## مهارة ينبغي تعلُّمُها

أيُّ أملٍ يبقى لنا في الإصغاء إلى نصيحة المحامي العام هولدر بإجراء محادثات صريحة عن العِرق، إذا كان التواصل بين الأعراق المختلفة يشبه حقل الألغام؟ من الواضح أن هناك مساحة كبيرة للتفاؤل، لكننا أولًا بحاجة إلى إعادة فحص افتراضنا الشائع بأن الأشخاص إما متحيِّزون وإما غير ذلك؛ لأن الحقيقة لا تكون بهذه البساطة في أغلب الأحوال.

ولفَهم السبب؛ تأمَّل في البحث الكلاسيكي الذي أجرته عالمة علم النفس الاجتماعي باتريشيا ديفاين، والتي توصَّلت إلى أن عقولنا كثيرًا ما تكون ساحة معركة بين مقومات التحيُّز «التلقائية» و«المحكومة». والمقومات التلقائية هي الترابطات التي تعقدها أذهاننا بشكل تلقائي نتيجة نشأتنا الاجتماعية في العالم المحيط بنا، وما سمعناه لدى نشأتنا مع العائلة، وحتى الإعلام الذي نتعرَّض

له. ويمكن لردود الفعل الفورية هذه أن تكون مفيدة؛ فهي التي تجعل كلمة ثعبان مُحفزًا تلقائيًا لشبكة من الترابطات مثل «عض» و«خطر» و«ركض». لكنها هي أيضًا ما يجعل كلمة مثل «مكسيكي» تُحفِّز مفاهيم مثل «كسول» أو «أُمِّي» لدى العديد من الأشخاص. ويخشى العديد منا أن تكشف هذه الترابطات السريعة «حقيقة» ما نحن عليه، وكأنها أشعة سينية لنفوسنا الحقيقية. وبهذا التفسير، يمكن لتصوُّر أفكار نمطية أو حتى الاعتراف بإدراكنا لعِرق شخص آخر أن يبدو وكأنه مصدر تهديد؛ لأن هذه الأمور ربما تكون إشارة إلى أن الإجابة النابعة من الأعماق على سؤال «هل أنت متحيِّز؟» هي نعم دون أي التباس.

ومع ذلك، فمثلما يُرجح كل من كريم جونسون وديفيد أومديو، من خلال مساهماتهم في هذا الكتاب، تنعقد هذه الترابطات التلقائية على طول الخطّ مع السلوك المكتسب المحكوم أو الخاضع للتحكُّم، أي الجهود المبذولة لرفض واستبدال الأفكار النمطية التلقائية السريعة التي تتبادر إلى أذهاننا في بعض الأحيان. إن رغبتنا المتعمَّدة القائمة على مبادئ المساواة في ألَّا نكون متحيِّزين، هي تعبير مُباح عن شخصيتنا. وعلى الدوام، تُظهر الأبحاث أن بوسعنا تجاوز الترابطات التلقائية التي نعقدها خلال تصرُّفاتنا، بل ونسيان هذه الترابطات من خلال القدر الكافي من الممارسة. وعلى هذا، فإننا لن نكون مساواتيين أو متحيِّزين ببساطة؛ لأن المساواتية مهارة مكتسبة.

والحقيقة أن فيل جوف وزملاءه، من خلال متابعة الدراسة، توصَّلوا إلى أنه عندما أقبل الأشخاص على إجراء محادثات متعلِّقة

بالعِرق بغية التعلُّم بعضهم من بعض، وليس بغية التقييم الإيجابي، فإن البيض وضعوا مقاعدهم على مسافة أقرب بكثير إلى شركائهم السود من تلك المسافة التي حدَّدوها في الدراسة السابقة.

وكذلك، يمكن للتواصل بين الأعراق أن يتحسَّن إذا اعترفنا بالاختلافات بين الجماعات؛ وذلك بدلًا من أن نتجاهلها. إن تبنِّي إستراتيجية «عمى الألوان» التي يتجاهل فيها الأشخاص الاختلافات بين الجماعات، ربما تبدو وكأنها فكرة جيدة؛ خصوصًا إذا كنت متوجسًا من أن يُترجَم انتباهك إلى العِرق على أنه تحيُّز. ومع ذلك، تُظهِر مجموعة كبيرة من بحوث علم الاجتماع وعلم النفس أن هذه الإستراتيجية من الممكن فعلًا أن تتسبَّب في زيادة التحيُّز العنصري. ذلك أن العِرق مسألة من المستحيل تقريبًا ألَّا نلاحظها، مثلما يوضح هذا الكتاب في أكثر من موضع؛ حتى إننا ربما نكون مبرمجين على القيام بذلك. ومن هنا، فإن العملية المتعلِّقة بمراقبة انتباهنا أو عدم انتباهنا للعِرق هي ذاتها ما تزيد من ورود الأمر إلى أذهاننا. وعلى النقيض من هذا، يعترف منظور «التعددية الثقافية» بالاختلافات بين الجماعات؛ بل ويحتفي بها. وغالبًا ما يكون مقرونًا بقدر أقل من التحيُّز العنصري، وتفاعلات أكثر إيجابية بين الأعراق؛ للبيض والسود على حدٍّ سواء.

## التواصل، الوقت، والصبر

وعلى ضوء جميع هذه البحوث، ربما نجد السبيل إلى تفاعلات إيجابية بين الأعراق المختلفة كامنًا في ثلاث وصفات تتسم بالبساطة

إلى حدٍّ ما. كان المحامي العام هولدر قد ألقى الضوء على الوصفة الأولى؛ إذ من المحتَّم أن تكون هناك فرصٌ للتواصل (وهي ملاحظة قد ضاعت وسط الغضب المحيط باستخدامه عبارة «أمة جبانة»). ومثلما عرضنا، على طول هذا الكتاب، يمكن لقدرة الأشخاص على تمضية الوقت بعضهم مع بعض أن تساعد بصورة هائلة على تحسين التوجُّهات بين الأعراق المختلفة. والحقيقة أن هذا التأثير شديد القوة، حتى إن المعرفة المتعلِّقة بتكوين أصدقاء الفرد لصداقات مع أشخاص ينتمون إلى أعراق أو إثنيات أخرى، من الممكن أن تعمل على تحسين التوجُّهات الشخصية التي يحملها الفرد تجاه تلك الجماعة؛ وهو أثر يصفه ستيف رايت وزملاؤه بـ«أثر التواصل الممتد». وقد برهن أثر التواصل الممتد على أن له آثارًا عميقة. وفي دراسة الجهل التعددي، على سبيل المثال، وجدت شيلتون وريكسون أنه عندما قيل للمشاركين إن أقرب أصدقائهم يستمتعون بالتواصل مع أفراد ينتمون إلى جماعة أخرى؛ قَلَّت احتمالية أن يصدِّق المشاركون عدم اهتمام أفراد هذه الجماعة بالتواصل مع غيرهم من الجماعات.

بيد أن الوصفتين الثانية والثالثة -الوقت والصبر- على القدر نفسه من الحيوية. والحقيقة أنه بدون هاتين الوصفتين ربما لا تحظى الآثار الإيجابية للتواصل بين الجماعات المختلفة بالوقت الكافي لترسيخها. فمثلًا، في بحثي الخاص عن تكوين صداقات بين الأعراق المختلفة، توصَّلت أنا وزملائي إلى أن أولئك الأشخاص الذين حدث وأن كثر تواصلهم مع أعراق أخرى فيما سبق (ومن ثم، شعروا بقدر أكبر من الراحة تجاه تشكيل مجموعات ثنائية

جديدة مع أشخاص ينتمون إلى أعراق أخرى)، قد انتزعوا أكبر رد فعل ضاغط من الشركاء الذين كانوا يتوقَّعون تواصلًا سلبيًّا. لماذا؟ لأن التحديات التي تقف أمام توقُّعاتنا، سواء كانت إيجابية أم سلبية، تعني أننا لا يمكن أن نتوقَّع بيئتنا، وهذا أمرٌ ضاغط في حدِّ ذاته.

ومن المثير للبهجة أن شركاء التواصل العِرقي في دراستنا تمكَّنوا من تكوين صداقات عابرة للأعراق بمرور الوقت؛ وهذا هو تحديدًا المغزى. وتشير البحوث إلى احتمالية أن تكون المحادثات الصريحة حول العِرق مُحمَّلة بالتوقُّعات السلبية، وعلى هذا، فربما تكون بدايات هذه المحادثات وَعِرة. ونحن بحاجة إلى أن نُمهل أنفسنا والآخرين؛ ليس فقط فيما يتعلق بكيفية نسياننا انحيازاتنا وتوقُّعاتنا السلبية، ولكن أيضًا بكيفيَّة التعلُّم بعضنا من بعض خلال تفاعلاتنا بين الأعراق. إننا بحاجة إلى وقت لكي نتفاهم، ووقت للاسترخاء. وببساطة، نحتاج إلى وقت لكي نتحدَّث ونتعارف كبشر.

وتوجد حكمة مكسيكية قديمة تقول: «hablando se entiende la gente»، أي «بالتحدُّث، يتولَّد الفهم بين البشر». وعندما كنت أتعارك أنا وشقيقتي، ونتوقَّف عن الحديث بعضنا مع بعض، كانت أمي تخبرنا بهذه الحكمة كوسيلة لتذكيرنا بأننا لا نضع وجهة نظر بعضنا في الحسبان. إن الحكمة بسيطة إلى درجة أنها تقريبًا تبدو بديهية، لكنها تساعد في التأكيد على أننا بحاجة إلى إيجاد أرض مشتركة بين الجماعات التي عادة ما تنظر بعضها إلى بعض بعدم

ارتياح. واعترافًا منه بهذه الحاجة، اقترح المحامي العام هولدر «شهر التاريخ الأسود» كوقتٍ تُجرى فيه محادثات عبر الانقسامات العِرقية. ولكن، وبدلًا من أن نصرَّ على أسناننا ونستعرض قدراتنا في المناظرات العامة الحامية، ومثلما يمكن أن تُرجِّح صورة «الأمة الجبانة»، يمكننا، بدلًا من كلِ ذلك، أن نبدأ بالاعتراف بأن هذه المحادثات عبارة عن عملية تعلُّم يومية تتطلَّب العطف والتعاطف.

## المزيد من القراءات


• Goff, P. A., C. M. Steele, and P. G. Davies. 2008. The space between us: Stereotype threat and distance in interracial contexts. Journal of Personality and Social Psychology 94 (1): 91–107.

• Shelton, J. N., and J. A. Richeson. 2005. Intergroup contact and pluralistic ignorance. Journal of Personality and Social Psychology 88 (1): 91–107.

• Shelton, J. N., J. A. Richeson, J. Salvatore, and S. Trawalter. 2005. Ironic effects of racial bias during interracial interactions. Psychological Science 16 (5): 397–402.

• Trawalter, S., and J. A. Richeson. 2008. Let's talk about race, baby! When Whites' and Blacks' interracial contact experiences diverge. Journal of Experimental Social Psychology 44:1214–17.

• Vorauer, J. D., and C. A. Turpie. 2004. Disruptive effects of vigilance on dominant group members' treatment of outgroup members: Choking versus shining under pressure. Journal of Personality and Social Psychology 87 (3): 384–99.

# القسم الثالث

# تقويةُ مجتمعِنا متعدِّدِ الأعراق

# مُقدمة المحرِّرين

رأينا، في القسم السابق، كيف يمكن أن يساعد الأفراد بعضهم بعضًا على إمعان النظر في انحيازاتهم الشخصية، ومن ثَمَّ، الحدَّ من الآثار السلبية للتحيُّز. ويحاول الكُتَّاب والعلماء، في المقالات التالية، الانتقال بالنقاشات المعنية بالعنصرية إلى المستوى التالي، والتطرُّق إلى عوالم تم التغلُّب فيها على التحيُّز؛ ولو بقدر محدود على الأقل. وبداية من الزواج بين الأعراق المختلفة، والأحياء متعددة الأعراق في كاليفورنيا، إلى الصراع العام من أجل المصالحة في «جنوب إفريقيا ما بعد الفصل العنصري»، يكشف هؤلاء الكتَّاب عن الطرق غير المثالية التي يعيش بها الأفراد في عالم متعدد الثقافات ويحتضن هويَّات متعددة.

ولأن هذه الصراعات ربما تكون شخصية جدًّا، فمن المهم أن نُذكِّر أنفسنا بأنها ليست جديدة. فمثلًا، تجادِل الباحثة القانونية إيمي تشوا بطريقة مُقنعة، في كتابها «يوم الإمبراطورية» الصادر في العام ٢٠٠٧، بأن الأشخاص والدول والإمبراطوريات لطالما

واجهوا صراعًا مع الاختلافات الثقافية والعِرقية، وأن العديد منها كان ناجحًا إلى أبعد الحدود. وتسعى القوى المهيمنة على العالم، منذ إمبراطورية فارس العظيمة التي تأسَّست قبل ولادة المسيح بخمسِ مئة عام، إلى دمج الأفراد من جميع الألوان والثقافات داخل مؤسساتهم بطريقة إستراتيجية. حتى إنها في بعض الأحيان، كانت تتبنَّى طرقًا تستبق وسائلنا العصرية على نحوٍ غريب.

أوجدت روما القديمة، على سبيل المثال، طرقًا للحصول على المواطنة وفرصًا لأفراد ينتمون إلى جميع الأعراق والعقائد ويتحدَّثون جميع اللغات؛ على خلاف ما يقترحه حاليًّا بعض خبراء أمريكا عبر استثناء المهاجرين واللاجئين من حق الحصول على المواطنة. كذلك، كان الزواج بين الإثنيات المختلفة والنشاط الجنسي أمرين مألوفين بين الأرستقراطيين وعامة الناس على حد سواء (أنطونيو وكليوباترا أشهر مثال على ذلك). تكتب تشوا: «إن العنصرية في مشهدها العصري لم تكن موجودة في روما، والشواهد بسيطة فيما يتعلَّق بتمييز الرومان للبشرة الفاتحة على الداكنة أو العكس». كان عدد العبيد أكثر من المواطنين في الإمبراطورية الرومانية -التي لم تكن يوتوبيا- إلَّا أن لون الجلد لم يكن سببًا في حدوث انقسامات. لا يعني هذا أن ردود أفعال الأشخاص تجاه الاختلافات العِرقية لم تكن سلبية في ذلك الوقت؛ الأمر وما فيه هو أن الرومان تمكَّنوا من تشكيل هوية جماعية تمكَّنت من تجاوز الاختلافات لفترة من الزمن.

بعد ألف عام تقريبًا، قسَّم جنكيز خان محاربيه إلى فرق يتكَّون كل

منها من عشرة أفراد ينتمون إلى مختلف الأعراق، و«تلقوا أوامر بأن يعيشوا معًا، وأن يدافع أحدهم عن الآخر مثل الإخوة». وقد سعى سعيًا حثيثًا إلى ترقية غير المغول إلى مراكز قيادية، وهو نظام نجح، في نهاية المطاف، في تشكيل إمبراطورية المغول برمتها (بل إنه سبق قاعات الدروس المعقَّدة الموجودة في عصرنا الحالي، والإجراءات التصحيحية، والتعلُّم التعاوني، المُشار إليها في مساهمات جينفر هولاداي وجينفر تشاتمان ورودولفو مِندوزا - دينتون الموجودة في هذا الكتاب).

بالطبع، لم تتشارك أيٌّ من الإمبراطوريات العسكرية والتجارية التي تتحدَّث عنها تشوا مُثُلَنا العصرية حول المساواة وحقوق الإنسان. ومثلما تُشير، لم يكن التسامح في روما القديمة أو منغوليا ينطوي على احترام الأعراق والثقافات الأخرى. لم يكن الأمر يتعدَّى حقيقة أن هذه الإمبراطوريات كانت تتمتَّع بقدر أكبر من التسامح مقارنة بخصومها، الأمر الذي تقول تشوا أنه سمح لهم بالازدهار تكنولوجيًّا وعسكريًّا واقتصاديًّا؛ ذلك أن نشوء التعصّب -الشوفينية العِرقية أو الدينية- كثيرًا ما تسبَّب في انهيار الإمبراطوريات وسقوطها. وعندما اعتنق الإمبراطور الروماني أغسطس المسيحية، وبدأ في اضطهاد الجرمانيين المهرطقين (الذين كان يتم وصفهم في الانتقادات بـ«سكارى» و«وحشيين بعشوائية» و«جشعين»)، انقلب الحلفاء والرعايا ضد الإمبراطورية وهدموها في نهاية الأمر.

يوضِّح هذا التاريخ أن تبنِّي التسامح، بل وتخيُّل مجتمع يضم

أنواعًا شديدة التباين من البشر الذين «يُتاح لهم التعايش والمشاركة والارتقاء داخل المجتمع»، يصبانِ في مصلحتنا الشخصية بدرجة كبيرة، الأمر الذي تقول تشوا إن الفُرس والرومان والمغول حاولوا تنفيذه قبل وقت طويل من أمريكيي هذا العصر. وتظهر لنا هذه الأمثلة وجود سوابق عديدة لمجتمعات متعددة الأعراق - كثيرًا ما تكون المجتمعات على أفضل صورها عندما تتبنَّى التنوُّع والتسامح. ومن هذا التاريخ أيضًا، يمكننا رؤية التفاعل المُعقد بين الدوافع المساواتية والمتحيِّزة الحاضرة في كل عقل إنساني، وكل مجتمع إنساني.

وإذا كان هناك اختلاف بين التاريخ البشري الحديث وبين حاضرنا، فإن هذا الاختلاف يكمن في استفادتنا من قرون من التقدُّم العلمي. لقد واجه العلماء والأطباء، لمئات السنين، صعوبة في فهم العَلاقة بين الجهاز العصبي وبين مشاعرنا وسلوكياتنا. ونتيجة لذلك، اكتسب العديد من مواطني القرن الحادي والعشرين قدرًا أكبر من الامتنان للجوانب التي تجعلنا متشابهين أكثر منا مختلفين. وكلما ازداد ما تعلمناه عن طبيعة الجنس البشري تحت الجلد -من خلال البحوث والروايات والمذكرات والأفلام- أصبحنا أكثر نفورًا من تجريد الآخرين من صفة الإنسانية.

وعلى خلاف الأسطورة الشائعة، ربما يكون هذا هو السبب وراء التضاؤل الفعلي للعنف الشخصي بين الأفراد على مدار التاريخ المُسجل. يكتب عالم النفس ستيفن بينكر، في مقالة صادرة

عن مجلة جريتر جود في إبريل ٢٠٠٩، قائلًا: «بعيدًا عن أنها جعلتنا أكثر عنفًا، ثمة شيء في الحداثة ومؤسساتها الثقافية يجعلنا أكثر نبلًا. على الأرجح أننا اليوم نعيش في أكثر اللحظات السِّلمية في تاريخ فصيلتنا على الأرض».

مُستلهمًا أفكاره من الفيلسوف بيتر سِنجَر، والصحفي روبرت رايت، وعالم السياسة جيمز باين، يرى بينكر أن التطور قد «أورث الناس بذرة صغيرة من التعاطف؛ يطبقونها بطبيعة الحال على دائرة صغيرة فقط من الأصدقاء والأهل». ومع ذلك، فعلى مدار قرون:

اتسعت الدوائر الاعتبارية للبشر، لتستوعب كيانات سياسية أكبر: العشيرة، القبيلة، الأمة، الجنسين، الأعراق الأخرى، وحتى الحيوانات. حتى إن توسيع شبكات المعاملة بالمثل ربما تكون قد ساعدت على دفع الدائرة إلى الخارج.. لكنها ربما تكون قد تضخّمت أيضًا نتيجة المنطق المحتوم لهذه القاعدة الذهبية: كلما تعرَّف المرء على غيره من الكائنات الحية، وفكَّر فيها؛ ازدادت صعوبة تفضيل مصالحه الشخصية على مصالح الآخرين.

اليوم، يذهب النقاش حول التعددية الثقافية إلى ما هو أبعد من المصلحة الشخصية الواعية؛ إذ يكشف الكُتَّاب والباحثون، في المقالات التالية، عن صعوبات شخصية عميقة يواجهونها من أجل توسيع دوائرهم الاعتبارية والعاطفية والاجتماعية كي تضم أشخاصًا يختلفون عنهم؛ مُقدِّمين لمحة عن الصورة التي يمكن أن تبدو عليها أمريكا متعددة الثقافات؛ أي أمريكا كمجتمع يعترف

بالاختلافات ويحتضنها دون وصم، وليس مجتمعًا لديه عمى ألوان. وتشير هذه المقالات إلى أننا ربما لا نتمكَّن أبدًا من تجاهل الاختلافات العِرقية والإثنية، ومع ذلك، فبوسعنا تغيير طريقة استجابتنا لتلك الاختلافات. ربما كان مجتمع ما بعد العنصرية غير ممكن أو مرغوب فيه، لكننا قادرون، بالتأكيد، على بناء مجتمع ما بعد التحيُّز.



# إستراتيجياتُ نجاحٍ لثُنائياتٍ مختلفةِ الأعراق

آنيتا فومان وتيري نانس

على مدار عقود، واجه المتزوجون من أعراق مختلفة تحيزًا ووصمًا ومعاملة غير عادلة من أغلب طوائف المجتمع الأمريكي؛ وهو أمرٌ لم تقدِّم له البحوث الأكاديمية أية استثناءات. فبداية من الثلاثينيات وحتى السبعينيات، بدا وأن البحوث كثيرًا ما تعكس افتراضات خفيَّة، وربما غير واعية، تقول بأن العلاقات بين الأعراق حتمًا ما تكون مليئة بالمصاعب، وأن من يختار عَلاقة من هذا النوع فإنه حتمًا مُدعٍ أو يحاول إثبات شيء ما، أو أن الشريكين يعانيان بكل تأكيد مشكلات متعلِّقة بالهوية وتقدير الذات. بيد أن هذه النوعية من البحوث عادة ما كانت تُجرَى مع أزواج مختلفي الأعراق وسط أزمة أو فترة علاج. ومن هنا، فمن غير المفاجئ أن تُظهِر أن الأزواج مختلفي الأعراق أكثر عُرضة للضغط والطلاق؛ وهي وجهة نظر لا تزال قائمة إلى يومنا هذا.

وبما أننا باحثون من جيل آخر؛ فإن منظورنا ودافعنا مختلفان (كلانا متزوجان منذ أمد بعيد، بأشخاص ينتمون إلى أعراق

أخرى). كانت لدينا أفكار أخرى عن العَلاقات بين الأعراق المختلفة، ووضعنا أوراقنا على الطاولة. لقد تعمَّدنا البحث عن أمثلة نموذجية لأزواج مختلفي الأعراق، في مواقف من الحياة الفعلية، للمشاركة في مقابلات بحثية يتم إجراؤها في مجموعة متنوعة من السياقات الطبيعية: اجتماعات الكنيسة، وحفلات عشاء، وملاعب، وما إلى ذلك. وبدلًا من محاولة اكتشاف العيوب التي تعتري هؤلاء الأزواج، ركَّزنا أهدافنا على اكتشاف الأشياء التي ساعدت على إنجاح تلك العلاقات يومًا بعد يوم، وعامًا بعد عام. إضافة إلى ذلك، حاولنا أن نجد طرقًا لدعم الأشخاص المنخرطين في عَلاقات عابرة للأعراق -وخصوصًا الأزواج السود والبيض- وأن نقدِّم إلى العالم رؤية عن الأسباب التي تخلق احتمالية أن يتمتَّع الأشخاص المتزنون المعافون ببناء حيوات مع أشخاص يتصادف أنهم ينحدرون من خلفيات مختلفة.

وما اكتشفناه هو أن الأزواج مختلفي الأعراق يواجهون تحديات هائلة، إذ يباغتهم المجتمع بإصدار الأحكام، ويحدث ذلك كثيرًا مباشرة في وجوههم، ناهيك عن التحيُّزات العنصرية المتجذِّرة فيهم أنفسهم. لكننا وجدنا أيضًا أن العديد من هؤلاء الأزواج قد طوَّروا إستراتيجيات فعَّالة للتعامل مع تلك التحديات، وذلك عبر المرور بأربع مراحل ريثما تتعمَّق علاقاتهم وتتطوَّر. يبدؤون، أولًا، بوعي متزايد لأهمية العِرق في المجتمع، ثم ينتقلون إلى إيجاد طريقة للتعبير عن أنفسهم وسط ما يحيط بهم من ثرثرة، ويتعلَّمون، بعد ذلك، كيف يُقدمون أنفسهم إلى العالم بطريقة تحافظ على عَلاقاتهم،

وأخيرًا يتعلَّمون تسيير عَلاقاتهم على المدى الطويل. إن فهم الرحلة التي يمر بها الأزواج الناجحون من الممكن أن تكون مفيدة للأشخاص المنخرطين في عَلاقات عابرة للأعراق، بالإضافة إلى المُربين والمرشدين والأصدقاء الداعمين.

## الوعي العِرقي

إن العَلاقة بين الأزواج مختلفي الأعراق نادرًا ما تكون معنية فقط بالكيفية التي ينظر بها أحدهما إلى الآخر، بل تكون معنية أيضًا بالكيفية التي ينظر بها المجتمع إليهما معًا.

يدنو معظم الأزواج، في البداية، أحدهم من الآخر متخيلين أنهم سيشعرون دومًا بانسجام تام. أما الأزواج مختلفو الأعراق، فعلى الرغم من احتمالية إضمارهم هذه المشاعر أحدهم تجاه الآخر؛ فمن الممكن أن يكونوا على وعي تام بأن المجتمع من الممكن أن ينظر إليهما باعتبارهما متنافرين. إن تاريخ الأعراق والعنصرية في أمريكا يضع الأزواج في وضع ربما يشعر فيه الغرباء بتفويض وأحقية للتعليق على عَلاقة الزوجين.

ويفيد الأزواج الذين أجرينا معهم مقابلات بأنه حتى خلال اللحظات العابرة في بداية تقرُّبهم، كان الأصدقاء وأفراد العائلة وحتى الأشخاص المارِّين في الطريق يُعلقون على الأمر أو يفاتحونهم في المسألة. ويكون الأشخاص داعمين في بعض الأحيان، لكن في جميع الأحوال، لم يتمكّن الأزواج من استكشاف إعجابهم على نحوٍ

خاص. كان عليهم مواجهة الدِّلالة السياسية الأوسع لعَلاقاتهم في مرحلة مبكرة، وكان عليهم تقرير ما إذا كانت عَلاقاتهم تستحقّ كل هذا الإزعاج والرفض الذي يمكن أن تجلبه.

ويمكن لهذا الرفض أن يأتي من مجرد التعبير عن الإعجاب بشخص من عِرق آخر، إذ من المرجح أن يتلقّى رجل أسود لومًا بسبب تعبيره عن حبه للشَّعر الأشقر لشريكته. وربما يتعرَّض رجل أبيض لأحكام عنيفة نتيجة تعبيره عن إعجابه بشفتي شريكته السوداء الممتلئتين. لقد تعرَّض بعض الشركاء مختلفي الأعراق، ممن أجرينا معهم مقابلات، إلى الفضح والوصم بسبب مشاعرهم. وعلى الرغم من أن أسماء مثل العم توم[1]، وأوريو[2]، و«ويجر»[3]، و«محب الزنوج»، ربما تحظى بقَبول اجتماعي أقلَّ في عهد أوباما، فإنها لا تزال موجودة.

وبناءً على تجارب الفرد السابقة مع العَلاقات الرومانسية أو الصداقات العابرة للأعراق، ربما يتعيَّن على الشركاء المحتملين أن يتعاملوا مع الرفض في عقولهم أنفسهم. قال واحد ممن أجرينا معهم مقابلات: «اعتدتُ أن أطلق على ذوي البشرة السوداء: زنوجًا، والآن أصبحت أواعد إحداهن». تحدَّث شخص آخر عن كيف كانت والدته الحبيبة تنصحه بألَّا «يجلب فتاة بيضاء إلى

---

(١) رجل أسود يتم اعتباره خاضعًا للبيض.
(٢) أمريكي أسود يُنظر إليه، لا سيما من قِبَل السود، على أنه راغب في أن يكون جزءًا من الكيان الأبيض.
(٣) رجل أبيض يحاول محاكاة السلوك الثقافي والذوق المنسوبين إلى السود.

هذا المنزل أبدًا». وإذا كان هناك مجتمع أو سلوك إثني أو عِرقي معيَّن قد أسهم في تشكيل هوية الفرد، فيمكن للخروج من هذا الإطار أن يشكِّل تحديًا فيما يتعلق بشعور المرء بنفسه. ويمكن لهذه السلوكيات أن تقوِّض عَلاقة محتملة في بدايتها: ربما يكون العداء الذي يشعر به شخص تجاه جماعة عِرقية أخرى أمرًا من الصعب جدًّا أن يخفِّفه الإعجاب الذي يشعر به ذلك الشخص تجاه فرد من تلك الجماعة.

وعلاوة على ذلك، فإذا اعتزم شخص أبيض الدخول في عَلاقة طويلة الأمد مع شخص ينتمي إلى عِرق آخر، فمن الممكن أن يُضطر هذا الشخص إلى مواجهة خسارة محتملة لمركزه/ها. ومن الممكن أن تتسبَّب هذه التجربة في صدمة لبعض الأشخاص، لا سيما الشركاء البيض غير الواعين بالحماية والامتياز الممنوحين من عِرقهم. قال والد سيدة بيضاء: «بمجرد أن تصبح أسود، لا يكون هناك مجال للعودة. هذا لأننا لن نقبل بعودتك!» سيدة بيضاء أخرى أخبرت والدها في سعادة بأنها كانت تواعد شابًّا أمريكيًّا من أصول إفريقية يلعب في فريق كرة السلة بالمدرسة، وتفيد بأنه ظل يكرِّر: «ألا ترغبين في أكثر من ذلك لنفسك؟».

وفي المقابل، أشار مُشارك أبيض آخر إلى أنه كان قد دخل في عَلاقة طويلة الأمد، ووجد نفسه مهزوزًا لدى زيارة ابن شقيقة زوجته الأمريكية من أصول إفريقية. قال: «ذهبنا جميعًا إلى مركز التسوق، وأتى ببنطال منخفض الوسط وراديو ضخم كالذي اعتاد

الأطفال حمله». عندئذٍ شعر بالذعر وفكَّر: «إنني لم أتزوجها هي وحسب، بل تزوجت ثقافتها بأكملها».

## إيجاد المساحة والقدرة على التعبير

لقد توصلنا إلى أنه إذا ظل الأزواج متمسكين بعلاقتهم، بعد تقدير حجم التحديات التي يواجهونها، فمن المحتمل للزوجين الناجحين المنتميينِ إلى عرقينِ مختلفين أن يجدا مساحتهما الخاصة للتعبير المشترك. ستتولَّد لديهم رغبة في استكشاف أحدهما ثقافاتِ الآخر، والبدء في بناء ثقافتهم الخاصة المميزة. ويصبح مكانهم الآمن هو المنطقة التي يضعون فيها إستراتيجية للتعامل مع التهديدات التي من المُحتمل أن تعترض طريقهم.

وعلى الرغم من تحديات العيش في مجتمع ينظر إلى العِرق باعتباره مشكلة، فإن العديد من الشركاء المنخرطين في عَلاقات عابرة للأعراق يوضِّحون بأن مرحلة الاستكشاف تكون مثيرة ومشوِّقة ورحبة؛ ذلك أنهم يكتشفون كل شيء؛ بداية من التبرُّج (ذُكِر الشَعر كثيرًا في المقابلات التي أجريناها!)، والديناميكيات العائلية في فترة الطفولة، إلى الاختلافات المتعلِّقة بما يقرؤونه وما يستمعون إليه وما يفعلونه للاسترخاء. تحدَّث أحد المشاركين البيض عن رؤيته مجلة جيت *Jet* الأفروأمريكية للمرة الأولى. وتحدَّث مشارك أسود عن تعريفه بفرقة الروك «جنز آن روززز». بينما يستمتع زوج أبيض بسرد القصة التي انتعلت فيها زوجته الأمريكية من أصول إفريقية كعبًا (حذاءً عاليًا) في رحلة تخييم.

إن التجارب التي يعيشونها مع شخص يأتي من خلفية أخرى، تمنحهم فرصة لتصور منظورات جديدة عن العالم ونماذج عَلاقات جديدة أفلتت من الصور النمطية البالية القديمة المرتبطة بالأعراق. لقد شعر العديد من الرجال البيض المشاركينَ في المقابلات بالدهشة من الاستقلالية والعمق والثبات الموجودين في حياة النساء الأمريكيات المنحدرات من أصول إفريقية، واعتبروا الأمر بداية طريق نحو صِنف جديد من صنوف الشراكات. وتحدث العديد من الرجال أصحاب البشرة السوداء عن شعورهم بالتحرُّر من الجوانب السلبية التي كانت تُسبَغ عليهم في عَلاقات سابقة مع نساء سوداوات.

أشار العديد من الأشخاص إلى أنهم لا يشعرون أبدًا بانسجام تام مع الصورة التي يرسمها المجتمع عن البيض أو السود على أية حال. إن الاحتمالية القائلة بوجود خيار جديد جعلتهم يشعرون بحرية التصرُّف على طبيعتهم. قالت سيدة بيضاء إنها شعرت بالتخفُّف لدخولها في عَلاقة مع شخص ينتمي إلى عِرق آخر، إذ أفادت: «لم أسلك أبدًا سلوكيات غيري من الأشخاص البيض الذين أعرفهم. كنت أفسِّر تصرفاتي للناس على الدوام. أما الآن، فلست مضطرة إلى التوضيح، يعرف الجميع من أين أتيت ولا يصدرون تعليقات عنصرية كثيرة أمامي».

تقول شريكة أخرى إنها وشريكها اثنان «خارجان عن السِّرب»؛ محظوظان لأن يجد أحدهما الآخر، وأن يكونا على سجيتهما، وأن يضعا قواعدهما الخاصة. وكانت هناك سيدة أمريكية من أصول

إفريقية تشعر فعلًا بدرجة أكبر من القَبول العِرقي، مُفسرة أن شريكها الأبيض لا يخبرها أنها ليست «سوداء بما يكفي».

ويمكن للابتعاد عن المشكلات المرتبطة بالثقافة التي ينتمي إليها الفرد أن يمنح الأفراد قَبولًا مثيرًا للاهتمام؛ فقد أوضحت أكثر من سيدة سوداء أن الرجال البيض كانوا أقل هوسًا بالبشرة الفاتحة و«الشعر الجيد» من الرجال السود («في نهاية المطاف، إذا كان هذا هو ما يريده، يمكنه مواعدة فتاة بيضاء»). وأشارت أكثر من سيدة بيضاء إلى أن الرجال البيض كانوا أكثر تركيزًا على النساء النحيفات من الرجال السود. وأفاد رجل أسود أنه خلال شبابه، كانت العديد من الأمريكيات المنحدرات من أصول إفريقية يخبرنه أنه «يتحدَّث كفتًى أبيض» ويرفضنه على هذا الأساس، في حين لم تُحِط النساء البيضاوات من قدره بهذه الطريقة.

بينما يتبادل الشركاء في الثنائيات مختلفة الأعراق قصصهم؛ مُعززين أواصر الثقة، فإنهم يكتشفون قضايا عرقية حسَّاسة تواجه المجتمع. تخلق العلاقات العابرة للأعراق مساحة آمنة لمحادثات يتسع نطاقها ليشمل قضايا عِرقية دقيقة. والحقيقة أن الدخول في هذه المحادثات من الممكن أن يبني الثقة بين الزوجين.

رأينا مثالًا على هذا مع الزوج الذي شعر بعدم ارتياح تُجاه ابن شقيقة زوجته الذي كان يرتدي بنطالًا مُتهدِّلًا. وبعد عدة أعوام، كان الزوجان (لا يزالان معًا) بحاجة إلى بذل مجهود ضخم لمعالجة سلوكيات الزوج الموجَّهة إلى ابنهما؛ إذ إنها كانت تعكس بعض

التوجُّهات السلبية العميقة التي كان الزوج يُضمرها تجاه السود وثقافتهم. تقول الزوجة إن عائلتها وأصدقاءها كانوا يشعرون بأن سلوكيات زوجها لا تُغتَفر ولا يمكن إصلاحها، مجادلين بضرورة تخليها عن تلك الزيجة. إلَّا أنها، ومن خلال محادثاتهما، رأت زوجها يتطوَّر، وعبَّرت عن تطلُّعها إلى رؤية تلك العملية الصعبة تستمر.

إن هذه التجربة تحمل لمجتمعنا بأسره عِبرة مفادها أن الحوار الصادق حول تعقيدات الأعراق التي يدعو إليها مسؤولون عموميون مثل المحامي العام إيرك هولدر، تحدُث بالفعل، ولكن على انفرادٍ بين أشخاص مُقرَّبين ينتمون إلى أعراق مختلفة. والواقع أن الشركاء يقولون لنا: إن الرؤية التي يكتسبونها تُغيِّرهم بطريقة من شأنها أن تستمرَّ حتى لو لم تستمر العلاقة ذاتها؛ يشير أحد الأزواج: «آه، لو أحبَّ الجميع شخصًا أسود حبًّا صادقًا، فلن تكون العنصرية مقبولة».

## تقديم أنفسهم إلى العالم

إن مواجهة الأزواج العديدَ من هذه المشكلات في حياتهم الخاصة، تجعلهم في كثير من الأحيان أكثر ثقة في مواجهة القضايا العِرقية في العموم أيضًا. إنهم يتوقَّفون ببساطة عن الاستجابة للطريقة التي يراهم بها الآخرون. يُعرِّفون تجربتهم الخاصة، مُفضلين في بعض الأحيان اعتبار أنفسهم استثنائيين أو مختلفين؛ لكن في الأساس باعتبارهم متواجدين بصفتهم الشخصية وبشروطهم الخاصَّة، وليس كنسخة غير مكتملة لزوجين «حقيقيين».

ونتيجة التعرُّض لمواقف اجتماعية دقيقة، ربما يبتكر الأزواج إستراتيجية للتعامل مع التحديات التي يواجهونها مع عموم الناس. فمثلًا، قرَّر رجل أمريكي من أصول إفريقية، هو وشريكته، أنه هو من سيتصدَّى للنساء السوداوات اللاتي يضايقنهما أمام الناس. بينما يُفضل آخرون عدم الرد مُطلقًا، أو الاتفاق على جمل واضحة يستخدمونها. وتشير إحدى السيدات إلى أنه عندما يبادرها شخص قائلًا إن من يواعدون أشخاصًا من أعراق أخرى لا يحبُّون أنفسهم، يكون ردها: «إن لم تكن ستواعد شخصًا من عِرق آخر أبدًا، فأنَّى لك أن تعرف دوافع من يفعلون ذلك؟» شخصٌ آخر يصف نفسه بـ«مهووس بالمذاكرة» يقول إنه يرد بسؤال: «إن تركت شريكتي، هل ستواعدينني؟».

يتخذ الاثنان قرارات عملية أخرى؛ تتعلَّق بأمور مثل التوصُّل إلى طريقة يُعلنان بها عن أنفسهم للآخرين. هل يحتفظ أحدهما بصورة للآخر على مكتبه؟ هل يذكر أحدهما الاسم الإثني لشريكه كنوع من التلميح؟ كذلك، يختار الأزواج المعارك التي يخوضونها. من الممكن أن يقرِّر الاثنان العيش في حيٍّ مختلط، أو التوقُّف عن تناول العشاء في أحد مطاعم الحي القديم حيث «يدَّعي كبير النُّدلاء أنه يعاني من متلازمة توريت[1]، مكررًا لفظ «زنجي»» بصفة دورية. ربما يتفق

---

(١) متلازمة توريت هي مشكلة في الجهاز العصبي تجعل الشخص يقوم بحركات أو يصدر أصواتًا مفاجئة تسمَّى التشنجات اللاإرادية التي لا يمكنهم السيطرة عليها. وعلى سبيل المثال، قد يرمش شخص مصاب بمتلازمة توريت، أو ينظف حلقه مرارًا وتكرارًا، وقد ينطق بعض الناس كلمات لا ينوون قولها.

الشريكان على أن يذهب أحدهما إلى مناسبة عائلية معينة. يتعلَّم الزوجان المزج بين عناصر ثقافتيهما المنفصلتين، محافظِين على أثمن الأشياء (دروس تعلُّم الرقص الأيرلندي من ضمنها)، والتخلِّي عن العناصر التي يصعب عليهم التعايش معها (دعوة عشاء عند العم بات ليست من ضمنها). ربما تكون بعض الخسارات مؤلمة.

وفي سبيل حفاظهم على شعور بالهوية العائلية، كثيرًا ما يتمسَّك الأزواج بمخزونٍ من القصص والصور التي تصلح لتكون معيارًا للتجربة التي عاشتها عائلتهم. وعلى سبيل المثال، ربما يتذكَّرون «تلك المرة التي تسبَّبنا فيها بتوقُّف المرور في تلك البلدة الجنوبية»، أو تلك المرة التي تفاجؤوا فيها بحضور شخص -كانوا يظنون أنه غير مؤيِّد لعلاقتهما- إلى مناسبة اجتماعية مع شركائهم المنتمين إلى عِرق آخر.

وخلال كل هذا، يصف العديد منازلهم بأنها «ملاذ»، أو «دعامة»، أو «واحة». وبينما يجدون توازنًا ناجحًا بين حياتهم الخاصة والعامة، يستقرُّون على المدى البعيد.

ومع ذلك، وجدنا أيضًا أن العديد من الأزواج الناجحين يتشاركون استعدادًا للعودة إلى قضايا عِرقية، في أي وقت وأي مكان وبأي طريقة طالما كان ذلك ضروريًّا. في الوقت الذي يمكن فيه للقطاع الأعرض من المجتمع أن يسأم التحدُّث عن الموضوع أو يعتقد «لقد فعلنا ذلك في الستينيات» أو «لقد شاركت في تدريب عن التعددية»، فإن الأزواج عابري الأعراق يعرفون أن عملية

الحفاظ على العَلاقة أمرٌ مستمرٌّ، وأنهم سـ«يخوضون الأمر» إذا كانوا في مواجهة قضية عِرقية.

وفي نهاية المطاف، يتعيَّن على الأزواج عابري الأعراق الناجحين أن يكونوا مبدعين وماهرين في معرفة طريقهم. والزوجان السعيدان هما من يستمتعانِ بالرحلة.

## دعم العَلاقات مختلفة الأعراق

ولأن الطريق ربما تكون وَعِرة، فالأزواج مختلفو الأعراق غير مضطرين إلى السير في ذلك الطريق بمفردهم؛ بل غالبًا ما يستفيدون من دعم الأصدقاء، وخبراء الصحة العقلية، وغيرهم.

ربما يرغب الأصدقاء والمتخصصون ممن يأملون في أن يدعموا زوجين من عِرقين مختلفين في رحلتهما أن يبدؤوا بالاستماع إليهما دون إصدار أحكام وطرح أسئلة. ويمكن للأسئلة الأولى التي يطرحها الداعمون أن تكون عنهم أنفسهم. كما يمكن لهذه الأسئلة أن تكون: متى كانت آخر مرة أجريتُ فيها محادثة حقيقية عن أي موضوع مع شخص ينتمي إلى عِرق آخر؟ كم هو عدد أصدقائي الحقيقيين الذين ينتمون إلى عِرق آخر؟ متى كانت آخر مرة أستقبل فيها شخصًا من عِرق آخر في منزلي؟ ما نوعية المدارس التي يرتادها أطفالي؟ أو أين أتعبد، وأشارك في أنشطة اجتماعية، وأذهب في إجازتي، وأين هو منزلي؟

إذا كانت أيٌّ من هذه الإجابات، أو جميعها، تُظهِر قدرًا محدودًا

من التجارب التي عاشها ذلك الشخص مع غيره من المنتمين إلى أعراق أخرى؛ فيمكن لهذا الشخص الداعم أن يركِّز على راحته الشخصية وعلى تعرُّفه على جماعات أخرى. وإذا بذل الداعمون مجهودًا لتوسيع دائرة نفوذهم، فإن ذلك يُضفي عليهم مصداقيةً عندما يُعرِبون عن اهتمامهم. وبطبيعة الحال، فلن تكون هناك حاجة إلى التطرُّق إلى ما إذا كان دخولهم في عَلاقة مع شخص ينتمي إلى عِرق آخر أمرًا غير وارد، بيد أن التفكير في الأسباب قد يكون أمرًا مُهمًّا. وإذا سبق للداعمين المُحتملين طرح أسئلة متعلِّقة بالأسباب الكامنة وراء اختيارات الشركاء مختلفي الأعراق، فينبغي عليهم أن يُخضِعوا اختياراتهم المتعلِّقة بعَلاقاتهم الشخصية إلى التساؤل ذاته.

وبعد تأمُّل ذاتيٍّ جدِّي، يمكن للداعم أن يشارك في حوار مع شريك ينتمي إلى عِرق آخر أو مع زوجين ينتميان إلى عِرقين مختلفين، وأن يطرح أسئلة مفتوحة تتطرَّق إلى أكثر الأشياء التي يُقدرها الاثنان في العلاقة، وإلى أي مدى تُشكِّل خلفياتهم المتباينة تطور علاقتهما، والأنماط الثقافية التي أثَّرَتْ حياتهما معًا، والعوامل الثقافية التي ازداد احترام الاثنين لها نتيجة علاقتهما، والأشياء التي تُعين الاثنين على التخلِّي عنها، والأشياء التي تم اكتسابها. ينبغي على الداعمين أن يسألوا ما إذا كان هناك أي شيء يحتاجون إلى فهمه بشأن الزوجين المنتميِن إلى عرقين مختلفين أو الشريك المنتمي إلى عِرق آخر؛ شيء من شأنه أن يكون مُعينًا. كذلك، ينبغي أن يمنحوا الشركاء المنتمين إلى أعراق أخرى الفرصة والمساحة لمشاركة الأفكار أو المشكلات التي تعترض الاثنين خلال تلك المحادثة.

أن يكون للفرد زملاء عمل، وجيران، وقساوسة وكهنة، ومعالجون، وعائلة، وأصدقاء داعمون، فإن هذا من شأنه أن يُحدث فارقًا كبيرًا في تطبيع العَلاقة ومساعدة الزوجين على الشعور بأنهما جزءٌ من مجتمع مُحِب. وباعتبارنا باحثين، وأزواجًا، وأمريكيين، فإننا نؤمن إيمانًا راسخًا بأن الرؤية التي يجلبها الأزواج مختلفو الأعراق إلى علاقتهما الأكثر أهمية، من الممكن أن تساعد هذا البلد وهذا العالم على التعامل مع إحدى فرصه وتحدياته الأكثر إزعاجًا: كيف نُحبُّ هؤلاء المختلفين عنا.



## المزيد من القراءات

• Foeman, A., and T. Nance. 2002. Building new cultures, reframing old images: Success strategies of interracial couples. Howard Journal of Communications 13 (3): 237–49.

• Lawton, B. L., D. R. Arevalo, L. Brown, and A. Foeman. 2008. Coping strategies for interracial couples making decisions about children's education. Iowa Journal of Communication 40 (2): 155-79.

# فائدةُ الثقافة المزدوِجة

روس د. بارك، وسكوت كولترين،
وتوماس شوفيلد

يعيش كلٌّ من إلين وتوم إيفانز بمنزل لطيف في ضاحية بأحد الأحياء الآمنة. لديهما وظيفتان جيدتان -إلين ممرضة، وتوم مُعلم بالمدرسة الثانوية- وقاما بتربية مراهقَين يستمتعان بوسائل الراحة المادية التي تذهب إلى ما وراء الطبقة المتوسطة الأنجلو أمريكية التي ينحدر منها توم وإلين. إن طفليهما، مايك وليسا، طفلان جيدان؛ يبليان بلاءً حسنًا في المدرسة، ويأملان في الالتحاق بالجامعة ليكونا محترفينِ ناجحينِ.

ماريا وخوسيه لوبيس مهاجران مكسيكيان من الجيل الأول. تعمل ماريا بدوام جزئي، ويحاول خوسيه تدبُّر أمر وظيفتين؛ وظيفة نهارية في مجال البناء، وعمل مسائي بدوام جزئي كحارس أمن، وذلك من أجل إعالة أطفالهم الأربعة الذين تتراوح أعمارهم من ثمانية أعوام إلى ستة عشر عامًا. يعيش الاثنان في منزل متواضع بشارع متمدِّن يتسم بكثافة مرورية ولا يتمتع بمساحات خضراء كافية للاستجمام، وينتابهما القلق حيال معدَّل

الجريمة والمُشردين والعصابات المتواجدة في الجزء الذي يعيشون فيه من المدينة.

استنادًا إلى ما سبق، مَن الذي يتمتع بجودة حياة أعظم وأواصر عائلية أقوى؟ الإجابة ليست بتلك البساطة التي ربما تتخيَّلها.

إذا أمعنَّا النظر، فسنجد أن إلين وتوم يجاهدان للموازنة بين العمل والالتزامات العائلية، في الوقت نفسه الذي يحاولان فيه الحفاظ على أسلوب الحياة الذي تتميَّز به ضواحيهم الرغدة. يعيش أقرب أقاربهم في ولاية أخرى، وليس لديهم سوى عدد قليل من الأصدقاء داخل مجتمعهم. تقول إلين: «يحزنني أن أطفالي لا يستطيعون رؤية أجدادهما بشكل منتظم. كما لو كانوا لا يعرفونهم». وعلى الرغم من أنهما غير مُطلَّقينِ، يعترف توم: «نناقش مسألة الطلاق من آن إلى آخر، لكننا إلى الآن نتمالك أنفسنا». وعلى الرغم من أن إلين وتوم يُقدِّرانِ قيمة النشاطات العائلية، فإنهما أغلب الوقت يفعلان أشياء بمعزِل عن طفليهما. يقول مايك البالغ من العمر أربعة عشر عامًا: «كل منا لديه أموره الخاصة التي يحب فعلها. وعلى الرغم من أن أمي وأبي لديهما رغبة في أن نفعل أشياء مشتركة معًا، فإنني أفضل قضاء الوقت مع أصدقائي».

في المقابل، تتلقى عائلة لوبيس دعمًا كبيرًا من مجتمعهم وعائلتهم الكبيرة. ويقع منزلهم في منطقة قريبة من أشغالهم، والعائلة نفسها تُعدُّ جزءًا من مجتمع أمريكي مكسيكي متلاحم. يعيش عدد كبير من أفراد عائلتهم الكبيرة (أجداد، أشقاء، بنات أشقاء، أبناء أشقاء،

أولاد عمومة) في الحيِّ نفسه، ويتزاورون كثيرًا. تقول ماريا: «أشعر أنني حقًّا محظوظة بقرب عائلتي مني؛ يساعدونني كثيرًا في الأمور المادية عندما تضيق الأحوال، ويعتنون بالأطفال طبعًا. الأمر رائع». على خلاف عائلة إيفانز، تفعل عائلة لوبيس معظم الأشياء معًا؛ يتمشون معًا، ويذهبون لمشاهدة الأفلام في السينما، ويشاركون في أنشطة اجتماعية، ويذهبون إلى الكنيسة كعائلة.

شاركت العائلتان إيفانز ولوبيس في دراسةٍ أجريناها، على مدار سنوات، مع عائلات أمريكية مكسيكية وأخرى أنجلوأمريكية. ودلَّلَت الاختلافات بين عائلة إيفانز وعائلة لوبيس على وجود اختلافات كبيرة بين جماعتيهما الإثنيتين. وبالفعل، على مدار عِقد امتدَّ خلاله البحث، وجدنا أن الأمريكيين المكسيكيين، الذين هاجروا حديثًا، يتمتّعون بالكثير من نقاط القوة التي عادة ما نُشيد بها في المجتمع الأمريكي، وهو ما تفتقر إليه العديد من العائلات الأنجلو أمريكية.

وبصفة عامة، تبقى العائلات اللاتينية قوية ومترابطة على الرغم من اشتغال العديد من الآباء بوظائف غير مستقرَّة، وذات رواتب زهيدة، ومزايا محدودة، وفرص ترقية ضعيفة، فضلًا عن حقيقة أن ما يقرب من ثلث الأطفال اللاتينيين يعيشون تحت خط الفقر. إنهم يواجهون صعوبات بالغة؛ ربما صعوبات مماثلة لتلك التي تواجهها أيُّ جماعة أخرى في أمريكا، إن لم يكن أكثر. ومع ذلك، تقلُّ معدلات الطلاق بين العائلات اللاتينية قياسًا بالعائلات الأنجلوأمريكية التي تتمتع بالدُّخول والمستويات التعليمية نفسها.

وقد عمدنا في بحثنا إلى اكتشاف السبب وراء ذلك: ما هي الصفات الإيجابية التي تأتي بها العائلات اللاتينية -الأمريكية المكسيكية تحديدًا- إلى الولايات المتحدة، وتمكّنهم من الثبات؛ بينما تتخبط عائلات عديدة أخرى في عالم مُعولم بوتيرة متسارعة؟

في وقتٍ يَرثي فيه الأفراد احتضار العائلة الأمريكية، وجدنا العديد من مُثُل العائلة الأمريكية سالمة وعلى قيد الحياة؛ بل ويردُ بعضها من المكسيك. وعلى الرغم من أن نتائجنا غالبًا ما تتعارض مع الحِكم السائدة، فقد وجدنا أن عائلات المهاجرين المكسيكيين تُقدِّم نموذجًا مُلهِمًا يمكن للعائلات الأمريكية الأخرى أن تحاكي أفضل سماته.

## الجميع في العائلة

وقد أظهرت عقود من الأبحاث أن الأطفال يبلون بلاءً أفضل في الحياة إذا نشؤوا في بيئة عائلية تُعزِّز التقارب والتآزر بين أفرادها. وتُرجِّح الدراسات أنه إذا كانت لدى الأطفال روابط آمنة وقوية مع آبائهم، فإنهم سيكونون مستعدين بشكل أفضل -لاحقًا في الحياة- للتغلُّب على التوتُّر، وتكوين علاقات رومانسية صحية، وتلبية احتياجات أطفالهم. كذلك، أشارت أبحاث أخرى إلى أن الدعم المتبادل بين أفراد العائلة، وارتفاع مستوى الترابط العائلي، يصبَّانِ في صالح النمو العاطفي والاجتماعي لدى الأطفال.

ترى الباحثتان آنا ماري كاوثي وميلاني دومينيك رودريجيز أن

نقاط القوة سالفة الذِّكر تُحدِّد ملامح العائلات الأمريكية المكسيكية؛ ذلك أنهم متمسكون بالنزعة العائلية التي تُبرز بدورها أهمية التقارب العائلي والتأقلم مع ما يصبُّ في مصلحة العائلة وإثرائه.

وقد ثبتت صحة هذا الأمر في ملاحظاتنا الخاصة، فوجدنا مثلًا أن التمسُّك بالنزعة العائلية لا يسهم فقط في تقوية الوحدة داخل العائلات الأمريكية المكسيكية، بل يعمل أيضًا على تعزيز العَلاقات الأخوية. وقد توصَّلتْ الدراسات التي أجريناها إلى أن الأطفال الأمريكيين المكسيكيين يتلقون دعمًا اجتماعيًّا وحنانًا كبيرًا من أشقائهم، كما أنهم يُكنُّون لهم احترامًا أكبر من ذلك الذي يُضمِره أقرانهم من الأطفال الأنجلوأمريكيين. كذلك، يُدرِك الأشقاء الأكبر أنهم نماذج لإخوانهم وأخواتهم الأصغر سنًّا؛ يقول مراهق أمريكي مكسيكي يُدعى ماريو: «منعني أمران [من الانضمام إلى عصابة]. كان والداي وإخوتي وراء ذلك على الأغلب. إنهم يرون كل ما أفعله، ويحاولون القيام بما هو أفضل؛ إذا حاولت الحصول على درجات جيدة، يحاولون الحصول على درجات جيدة، وهذا الأمر يروقني».

كثيرًا ما تعتمد العائلات اللاتينية أيضًا على شبكة واسعة من الأحبَّاء، فيما يتعلق بتقديم الإرشاد والرعاية والدعم لأطفالهم. وبخلاف الآباء البيولوجيين، يمكن لمُقدِّمي الرعاية أن يكونوا أجدادًا، وعمات، وأعمامًا، وعرَّابين، فضلًا عن الأطفال الأكبر سنًّا المهتمين بشؤون أشقائهم الأصغر.

وفي دراسة أجرتها مارجاريتا أثميتا، الباحثة بجامعة كاليفورنيا في سانتا كروز، تتحدث أمٌّ أمريكية مكسيكية عن ابنها قائلة: «أعتقد أنه [سيبقى على الطريق القويم]، لكنني لست الوحيدة التي تؤمن بهذا؛ فالعائلة كلها لا تتركه. إنهم يتحدَّثون إليه باستمرار، ويثنون على الأشياء الإيجابية التي يقوم بها». إن حدس هذه الأم مدعوم بالأبحاث؛ لقد وجد مونكريف كوكران، من جامعة كورنيل، أن شبكات الدعم العائلي واسعة النطاق تعزِّز الصفات الإيجابية لدى المراهقين؛ صفات مثل تحسُّن الأداء الدراسي ونسبة الحضور، فضلًا عن السلوكيات الاجتماعية الأكثر إيجابية.

تنعكس المسؤولية الجماعية عن الأطفال في الثقافة المكسيكية من خلال ممارسة ما يُسمى el compadrazgo [(١)] التي تتلخَّص في تحوُّل الأصدقاء المميزين إلى عرَّابين للأطفال. وفي استطلاع لعائلات أمريكية مكسيكية بلوس آنجلوس؛ وجدت عالمة الأنثروبولوجيا سوزان كيفي أن ٨٨٪ من المشاركين في الاستطلاع لديهم عرَّابون، وأن ٨٠٪ منهم يعيشون في منطقة قريبة. ويُفترض في العرَّابين أن يكونوا بمثابة نماذج يُحتذى بها في نظر أبنائهم الروحيين، وكذلك بدائل محتملة لآبائهم. فضلًا عن ذلك، تتوقَّع الغالبية منهم أن يُقدِّموا دعمًا غذائيًّا وسكنيًّا وماديًّا -وعاطفيًّا أيضًا- إذا لزم الأمر.

وعلى الرغم من أن العائلات الأنجلوأمريكية تُقدِّر، هي أيضًا، قيمة الصِّلات التي تربطها بعائلاتها الكبرى، فإن تواصلهم

(١) العلاقة بين الآباء والعرَّابين.

مع العائلة أقل تكرارًا ويتطلَّب سفرًا طويلًا نتيجة التنقُّل الأكبر الذي تقوم به عائلاتهم. وفي المقابل، تزداد أرجحية أن تُقدِّر العائلات اللاتينية قيمة الحياة بالقرب من العائلة، وبالفعل يختارون العيش في أماكن قريبة جُغرافيًّا من أقاربهم. كان مانويل، أحد الآباء الأمريكيين المكسيكيين المشاركين في دراستنا، مُدهوشًا من كثرة الأشخاص الذين لا يُقدِّرون دائمًا أهمية البقاء قريبًا من العائلة.

يقول مانويل: «لا أدري كيف يُلقي الأفراد بآبائهم في أماكن يموتون فيها؛ لقد ظلَّ والدانا في المنزل حتى وافتهما المنية. ينبغي أن تنصت إليهما مهما وصلت بهما السن، عليك أن ترعى والديك، وتُحسن إليهما لأنهما ربياك طفلًا؛ ونحن لا ننسى هذا أبدًا». وفي ضوء تلك السلوكيات، ليس من المفاجئ أن نجد منازل الأمريكيين المكسيكيين أقلَّ انعزالًا من الناحية الاجتماعية عن مثيلاتها لدى الأنجلو أمريكيين.



## احترام كبار السن

من مشاهداتنا للعائلات الأمريكية المكسيكية التي هاجرت حديثًا، نجد أن الآباء يحثُّون أبناءهم على أن يكونوا مُهذَّبين، أي أن يكتسبوا مهارات اجتماعية قويَّة دون تقليل احترام الكبير. فمثلًا، يتم تعليم الأطفال استخدام صيغة المخاطبة الرسمية (حضرتك) بدلًا من الصيغة غير الرسمية (أنت) عند تحدُّثهم مع الكبار. كذلك، يُشجِّع الآباء أبناءهم على المشاركة في الطقوس العائلية

التي تُعدُّ وسيلة أخرى لغرس هذا النوع من الاحترام تجاه كبار السن في العائلة.

إن التأدُّب ليس الهدف الوحيد من تلك العادات، فهي تُسهم أيضًا في غرس شعور بالالتزام تجاه العائلة. نجد أن الأطفال الأمريكيين المكسيكيين المشاركين في دراستنا يساعدون آباءهم في الأعمال المنزلية الرتيبة بدرجة أكبر من الأطفال الأنجلو أمريكيين، والحقيقة أيضًا أن الآباء الأمريكيين المكسيكيين أكثر أرجحية في أن يشترطوا على أطفالهم إتمام مثل تلك المهام قبل مباشرة اللعب. ومن المتوقّع أيضًا أن يلعب الأبناء دورًا أكثر يقظة وثباتًا في مراقبة أشقائهم الأصغر سنًّا، مقارنة بأقرانهم من الأنجلو أمريكيين. ومما يبدو، فإن هذا السلوك الأخلاقي يظهر في دوائر اجتماعية أخرى؛ فعندما قام جورج نايت وزملاؤه بجامعة ولاية أريزونا بمراقبة مجموعات من الأطفال وهم يلعبون معًا، وجدوا أن الأطفال اللاتينيين يُظهرون تعاونًا أكبر وتنافسية أقل مقارنة بالأطفال الأنجلو أمريكيين.

وبما أن المراهقين والأطفال المهاجرين كثيرًا ما يتعلمون اللغة والعادات والأعراف المرتبطة بثقافة البلد المُضيف بسرعة أكبر من آبائهم، فإنهم يقومون أحيانًا بدور الوسيط الثقافي أو المترجم نيابة عن آبائهم أو أجدادهم. وبحسب ما توصَّل إليه ريموند بيريال من بومونا كوليدج، فإن الأطفال والمراهقين يلعبون دورًا كبيرًا في مساعدة آبائهم على التفاوض داخل المتاهات القانونية، والأنظمة الطبية، وحتى بيروقراطيات أماكن العمل. إن هذه النشاطات لا تساعد على

تنامي الوحدة العائلية فقط، بل تمنح الأطفال فرصة لاكتساب حسٍّ بالمسؤولية الشخصية والاعتزاز بالنفس والاستقلالية. (في الوقت نفسه، يتسنَّى للأطفال استغلال الجانب اللغوي للانتفاع من آبائهم. وقد أفضى فتًى أمريكي مكسيكي يبلغ ثلاثة عشر عامًا ومن الجيل الثاني إلى باحثيٍّ هارفارد كارولا ومارسيلو سواريث-أورثكو، بأنه قال لوالديه إن حرف «ر» في تقرير المتابعة يرمز إلى «رائع»!).

## صورة الأب

أظهر قدرٌ هائل من الدراسات أهمية انخراط كلا الوالدين في تربية أطفالهم. وقد وجدنا نحن، بارك وكولترين، في دراسات سابقة، أن الأطفال الذين ينخرط آباؤهم في عملية التربية يتكيَّفون بشكل أفضل ممن لديهم آباء أقل انخراطًا. فمثلًا، يبدو أنهم يتعرَّضون إلى درجة اكتئاب أقلَّ، ويحظون بعَلاقات اجتماعية أفضل مع أقرانهم.

وعلى الرغم من أن الثقافة الشعبية عادة ما تُصوِّر المهاجرين المكسيكيين (الرجال) على أنهم أكثر رجولة وأقل انخراطًا في الحياة العائلية، فقد وجدنا أن هذه صور نمطية غير دقيقة. بل على الضد من ذلك، نجد أن الرجال المولودين في المكسيك كثيرًا ما يُظهِرون درجة أكبر من الالتزام تُجاه العائلة، بل إنهم ينفقون وقتًا أكبر في التواصل مع أطفالهم بعاطفة وحنان مقارنة بالآباء الأنجلو أمريكيين (أو الآباء اللاتينيين الذين تطبَّعوا بالثقافة الأمريكية). ومقارنة بالآباء الأنجلو أمريكيين، توصَّلت الدراسة التي أجريناها

إلى أن الآباء المولودين في المكسيك أكثر ارتباطًا بأبنائهم نوعًا ما؛ فهم يشاركون في الأنشطة الذكورية التقليدية مثل تدريبهم على كرة القدم أو ممارسة الألعاب، وكذلك في الأنشطة الأكثر روتينية مثل مراقبة الأطفال أو الذهاب بهم إلى التسوُّق. وبدورها، وجدت إيفون كالديرا من جامعة تكساس التقنية أساليب انخراط مشابهة لدى الآباء الأمريكيين المكسيكيين المولودين في الولايات المتحدة. تقول أُمٌّ أمريكية مكسيكية: «أقوم بالأعمال المنزلية، لكنه يساعد أيضًا. أذهب إلى العمل في السادسة مساءً، ومن ذلك الوقت يتولَّى هو مسؤولية المنزل؛ يُقدِّم العشاء للأطفال، ويترك لي المطبخ نظيفًا».

ونحن نعزو انخراط الآباء الكبير إلى تأثير النزعة العائلية في العائلات الأمريكية المكسيكية. الأمر الذي يعني أن المستوى المرتفع من الأخذ والعطاء والتعاون والترابط العائلي يشجِّع هؤلاء الرجال على التركيز على صحة أطفالهم وسعادتهم، وكذلك على التواصل معهم بطرق حميمية ودافئة. فمثلًا، تُتاح للآباء فرص عديدة للتواصل مع أبنائهم ومراقبة أنشطتهم عند تشديدهم على تناول الطعام معًا، وعند المشاركة في الأنشطة العائلية خلال عطلات نهاية الأسبوع. والحقيقة التي توصَّلنا إليها في دراستنا هي أن العائلات التي شاركت في طقوس جماعية مثل الخروج معًا وتناول الطعام معًا والمشاركة في أنشطة نهاية الأسبوع، كانت هي العائلات نفسها التي يُراقب فيها الآباء أبناءهم عن كثب. وتُظهر أبحاث أخرى أن هذه المراقبة مقرونة بنسبة أقل من المشكلات الاجتماعية التي يقع فيها المراهقون مثل الانحراف وتناول المخدرات.

### العائلة مزدوِجة الثقافة

كثيرًا ما نفترض أن الهجرة عملية أحادية الاتجاه تتلخَّص في قدوم أشخاص من بلدان أخرى إلى الولايات المتحدة، للاستقرار والعمل، ومن ثم تبنيهم قيمًا وعادات وممارسات البلد المُضيف بشكل روتيني. وهذه نظرة مُبالِغة في التبسيط، وتتجاهل التأثيرات المتبادلة بين الفئات الثقافية المختلفة.

لقد وجدنا أن العديد من أفراد العائلات التي هاجرت حديثًا من المكسيك، يحملون توجُّهات تنطوي على ثقافة مزدوِجة، ذلك أنهم يقومون بانتقاء واختيار وممارسة طبائع الثقافة الأمريكية السائدة التي تُعينهم على الصمود والنجاح، مع الاحتفاظ بجوانب مميزة من ثقافتهم الأم. يُشير خوان، وهو أب أمريكي مكسيكي، قائلًا: «يجب أن نتواءم مع طريقة الحياة هنا، إلَّا أن ذلك لا ينبغي أن يؤثِّر على أن يتحدَّث [أولادي] الإسبانية وأن يتعلموها بطريقة صحيحة».

وبدلًا من أن تُشكِّل توجُّهات الثقافة المزدوِجة عائقًا، فإنها تأتي بفوائد واضحة. والواقع أن كلًّا من الأطفال والبالغين ممن يقفون عند منتصف المسافة بين الثقافتين يتمتَّعون بصحة نفسية وبدنية أفضل، ويشمل ذلك إضمارهم توقُّعات أعلى ومشاعر إيجابية تُجاه قيمتهم الشخصية، وذلك وفقًا لما يشير إليه رايموند بيريال.

وجد باحثون آخرون، من بينهم جيني جوتياراز من معهد إريكسون وآرنولد سامِروف من جامعة ميتشجن، أن الأمهات

مزدوجات الثقافة يتمتّعن بفهم أكثر تبصُّرًا بنمو الأطفال مقارنة بالأمهات الأمريكيات المكسيكيات اللاتي أصبحن أكثر اندماجًا في الثقافة الأمريكية، بينما يبلي أطفالهن بلاءً أفضل على الناحيتين الأكاديمية والاجتماعية.

ويأتي هنا درسٌ أساسي ربما يتعيَّن على العائلات المُهاجرة تعليمه للعديد من العائلات غير المُهاجرة: من الممكن لفهم المعتقدات والقيم والممارسات الثقافية الأخرى أن يُسهِم في زيادة تسامحنا مع الاختلافات وتقبُّلِنا لها -وهو درسٌ قيِّم لكلٍّ من الأطفال والبالغين، في مجتمعنا الذي تتزايد تعدديته الثقافية- بل ويصُبُّ أيضًا في مصلحتنا الشخصية. فمثلما يعود ازدواج الثقافة بالنفع على المهاجرين الأمريكيين المكسيكيين، ربما يُفيد العائلات الأخرى أيضًا.

إن العائلات الأمريكية المكسيكية تُعلِّمُنا أن تجديد الالتزام تجاه مركزية العائلة في حياتنا، من الممكن أن يُقدِّم فوائد شعورية واجتماعية كبيرة، مثل مصدَّات أكبر ضد ضغوطات ومتاعب ومآسي الحياة اليومية. وتُرجِّح دراستنا الخاصة أن تراجع الآثار السلبية التي يتعرَّض لها أطفال العائلات الأمريكية المكسيكية -على إثر الضوائق المالية أو غيرها من الظروف الحياتية الضاغطة- يعود إلى ما تتمتع به من درجة عالية من الترابط العائلي. ومن النموذج الذي تُقدِّمه العائلات الأمريكية المكسيكية، يمكننا أيضًا أن نتعلّم الكثير عن الكيفية التي تُعزِّز بها الهوية المجتمعية والمسؤولية المجتمعية رفاهية

الأطفال. إن وجود أعين وآذان كثيرة لمراقبة أطفالنا في الأماكن العامة من شأنه أن يكون تَغيُّرًا مُرحبًا به لدى العديد من العائلات التي تتحمَّل وتعمل فوق طاقتها، وتتواجد بمعدل أقل من المفروض.

إننا لا نُروِّج لعودة -ساذجة في تفاؤلها- إلى نظرة حنين للحياة العائلية. إننا نُدرك أن العديد من العائلات الأنجلو أمريكية، وحتى العديد من العائلات اللاتينية، لا تنشد بعض النواحي التراتبية في حياة العائلة اللاتينية التقليدية. ومن غير المُحتمل أن تُرحِّب المرأة المعاصرة التي هي عضو فاعل في قوة العمل، بالعودة إلى الممارسات الذكورية التي يسيطر فيها الأزواج، وما على النساء سوى الطاعة. ولكن في الوقت نفسه، ومن باب الإنصاف، فقد عفا الزمن على الصورة النمطية للعائلات الأمريكية المكسيكية الذكورية. وتُظهر معظم الأبحاث أن الأزواج الأمريكيين المكسيكيين قد مضوا قُدمًا نحو توازن يتسم بقدر أكبر من المساواة فيما يتعلق بالقوى والحقوق بين الأزواج. ويُظهر بحثُنا أن الأزواج الأمريكيين المكسيكيين يتشاركون التربية وتأدية الأعمال المنزلية، وذلك لمواجهة أنواع الضغوطات العملية نفسها التي يواجهها أزواج آخرون.

لا يجدر بنا، بأي حال من الأحوال، أن نتخلَّى عن المكاسب الإيجابية، التي تحقَّقت على مدار الثلاثين عامًا الماضية، فيما يخص أدوارًا عائلية أكثر مساواة بين الرجال والنساء في الولايات المتحدة. لكننا نود أن نُطعِّم هذا النموذج الناشئ حديثًا بقدرٍ من الالتزام العميق تجاه العائلة والمجتمع الذي تتميز به العائلات المكسيكية

المُهاجِرة. ومن الممكن أن يتشكّل نموذج عائلي جديد يكون دمجًا بين نموذج عائلاتنا القائمة على مبدإ المساواة، ونموذج آخر يرتكز بشكل أفضل على مجتمعات وجيران وعائلة كبيرة ملتزمة بالمصلحة المشتركة لأولادنا. ربما تكون هذه التركيبة ممكنة؛ ومنشودة بكل تأكيد.

## المزيد من القراءات


• Adams, M., S. Coltrane, and R. D. Parke. 2007. Cross-ethnic applicability of the gender-based attitudes toward marriage and child rearing scales. Sex Roles 56 (5–6): 325–39.

• Behnke, A.O., S.M. MacDermid, S. Coltrane, R.D. Parke, S. Duffy, and K. F. Widaman. 2008. Family cohesion in the lives of Mexican American and European American parents. Journal of Marriage and the Family 70 (4): 1045–59.

• Coltrane, S., R. D. Parke, and M. Adams. 2004. Complexity of father involvement in low-income Mexican American families.» Family Relations 53 (2): 179–89.

• Parke, R.D., S. Coltrane, S. Duffy, R. Buriel, J. Powers, S. French, and K. F. Widaman. 2004. Economic stress, parenting and child adjustment in Mexican American and European American families. Child Development 75 (6): 1–25. Pinto, K. M., and S. Coltrane. 2009. Divisions of labor in Mexican origin and Anglo families: Structure and culture. Sex Roles 60:482–95.

• Schofield, T. J., R. D. Parke, Y. Kim, and S. Coltrane. 2008. Bridging the acculturation gap: Parent-child relationship quality as a moderator in Mexican American families. Developmental Psychology 44:1190–94.

# «كيف يمكن أن تفعلي
# هذا بأطفالك؟»

ميريديث ماران

عندما كان اِبناي، جيسي وبيتر، يبلغان من العمر أربعة وخمسة أعوام، تأمَّلتُ ضاحية سان خوسيه الآمنة كاسية البياض التي أقطن بها في كاليفورنيا؛ نظرت إلى المدرسة الابتدائية التي سيلتحق بها اِبناي قريبًا وقد تزيَّنت وأصبحت في صورة مثالية، وصارت كلها من البيض بشكل كامل تقريبًا، ونظرتُ إلى أصدقائهم الذين كانوا جميعهم تقريبًا من البيض، ورأيتُ التاريخ يُعيد نفسه.

منذ أربعين عامًا، نشأتُ في أحد أحياء مانهاتن التي كان جميع سكانها من البيض. التحقتُ بمدرسة ابتدائية جميعها من البيض، وكان المُعلم الذي يُدرِّس لي في الصف الثاني هو أول شخص أسود ألتقيه على الإطلاق. بلغتُ اِثني عشر عامًا قبل أن أدخل في محادثة مع أمريكي في مثل سني ينحدر من أصول إفريقية. وعند اندلاع هارلم في أعقاب اغتيال مارتن لوثر كينج جونيور، أخذ والدي يجوب أرضيات المنزل ليلًا، مقتنعًا بأن «الزنوج» على وشك الزحف إلى وسط المدينة ليصلوا إلينا.

لم أرغب في أن ينشأ إبناي في تلك الحالة من الانعزال والجهل. لم أرغب في أن أزرع في أطفالي بذور الخوف؛ الخوف من المجهول الذي سيُنبِت، فيما بعد، تعصبًا. ولم أرغب في أن أترك العالم على نفس حالته التي وجدته عليها، بتربية جيل آخر يتنشّأ في فصل عنصري. وعلى هذا، انتقلتُ إلى حيٍّ مُختلط بمدينة أوكلاند؛ غالبيته من السود، وألحقت إبنيَّ بمدرسة حكومية في أوكلاند يغلب عليها السود.

وبعد مرور سنوات، كان منزلنا يمتلئ كثيرًا بفتيان في سن المراهقة. كان جميع أصدقاء جيسي أمريكيين من أصول إفريقية ولاعبي كرة سلة؛ كان شعار نايك منقوشًا على رؤوسهم الحليقة، وكانت كرات السلة في حقائبهم المخصَّصة للكتب. كان أصدقاء بيتر تشيليين ومكسيكيين وأمريكيين من أصول إفريقية؛ كان شعرهم يُجدل في حبائل، وكانت صور بوب مارلي تظهر على ستراتهم. وفي صباحات الآحاد، كان الفتيان جميعًا يُفتشون في برّادنا معًا؛ كان أصدقاء جيسي يبحثون عن الحليب ليسكبوه على «كابتن كرانش»، وكان أصدقاء بيتر يبحثون عن حليب الصويا من أجل الجرانولا. كان قلبي يمتلئ بالسعادة؛ نعم، هذا ما كنت أصبو إليه، وهكذا ينبغي أن يكون العالم.

ومع ذلك، كانت فكرة التفاوتات بين الفتيان السود والفتيان البيض أحيانًا ما تُصيبني بالقشعريرة وسط تلك اللحظات الدافئة. إن الطلبة الأمريكيين من أصول إفريقية، لا سيما الفتيان، يتعرَّضون

اليوم إلى الإيقاف والطرد بمعدل يزيد ثلاثة أضعاف عما يتعرَّض له الطلبة البيض. ويتخرَّج في المدارس الثانوية سبعة وأربعون في المئة من الفتيان السود، مقارنة بـ٧٥٪ من الطلبة البيض من الذكور. واليوم في كاليفورنيا، نجد ٤٠٪ من الذكور الأمريكيين من أصول إفريقية ممن تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين، إما في السجون وإما تحت إطلاق سراح مشروط أو في فترة مراقبة.

أتأمَّل غرفة المعيشة من حولي، وأنظر إلى هؤلاء الشباب الذين أحببتهم منذ أن كانوا في عمر الخامسة أو العاشرة أو الخامسة عشرة؛ هؤلاء الأطفال الذين سكنوا قلبي بالضبط كما لو كانوا قد سكنوا جسدي يومًا ما، وأفكر: أيُّ أربعةٍ لن يصمدوا؟

عندما كان أولادي في المدرسة الثانوية، كنتُ في جولة لكتابي الأول «ماذا يعني أن تعيش في الحاضر» وكنت أقرأ حكايات عن أطفالي وعن الحيِّ الذي نسكن فيه. في كل مدينة، وفي كل جلسة قراءة تقريبًا، ترفع سيدة بيضاء من الجمهور يدها وتطرح السؤال نفسه: «كيف يمكن أن تفعلي هذا بأطفالك؟».

«أفعل ماذا؟» كنتُ أسألُهم وأنا على علم بالإجابة: «تُربينهم في أحياء الأقليات»، «تُلحقينهم بمدارس حكومية داخل المدينة»، «تُعرِّضينهم لكل هذا العنف». لم تقل أي سيدة منهن ما تقصده فعلًا: «تُعرِّضين أطفالك البيض أصحاب الطبقة المتوسطة لمخاطر وأوجه حرمان ليس من المُفترض أن يتعرَّض لها سوى الأطفال السود الفقراء».

أجيبهم بأمانة بأنني «أتشكك أحيانًا في صحة قراري»، مُتذكرةً الليالي الطويلة التي قضيتُها جالسة قرب الهاتف؛ واضعة قلبي على يدي لأن أطفالي تأخَّروا عشر دقائق، وأتذكَّر أيام القلق التي كنتُ أحملق فيها إلى تقدير جيد على تقارير المتابعة وأتساءل إن كانت المدارس الخاصة أو مدارس الضواحي قادرة على جعل أولادي «صالحين للكلية». ثم أفكِّر في شغف أولادي بالعدالة، وفي عدم تسامحهم مع التعصُّب، وفي صداقاتهم الوطيدة مع أشخاص ينتمون إلى أعراق وثقافات مختلفة عن عِرقنا وثقافتنا، وفي الكيفية التي ثبتتهم بها تلك الصداقات فيما يُطلقون عليه (تحدِّده، في واقع الأمر، التحولات الديموغرافية) «العالم الحقيقي».

أُخبرُهم بعد ذلك بأنني «غالبًا سعيدة بالطريقة التي ربَّيتُ بها أبنائي. إن كل أب وأم لديهم ما يندمون عليه، ولو كنت ربيت أولادي في حيٍّ أبيض؛ كنت سأندم على شيء آخر».

«لا أريد أن ينشأ أولادي كما نشأت؛ في فقاعة بيضاء تمامًا. أعتقد أن أفضل طريقة نبدأ بها في حل المُشكلات المُقلِقة لكل الآباء -الجريمة، والمخدرات، والفقر، والمدارس التي لا تحظى بتمويلٍ كافٍ- هي أن نبدأ في التعامل مع العنصرية في المجتمع وفي أنفسنا. وأفضل طريقة تُعين الآباء ذوي البشرة البيضاء على القيام بهذا هي أن يبدؤوا في تغيير الخيارات التي يتخذونها بشأن الطريقة التي يُربُّون بها أبناءهم؛ ذلك أن الوضع الافتراضي هو الفصل العنصري. هكذا أصبحنا على ما نحن عليه».

كان هذا هو ما قلته وما زلت أؤمن به. لكنني أقول هذا بلطف وتعاطف، لأنني كنت أعرف كم هو صعب أن تكون والدًا أبيض وتختار أن تكون مباهج ومعاناة الأطفال الأمريكيين من أصول إفريقية هي مباهجك ومعاناتك الخاصة.

أنا أعرف كم هو موجع أن تذهب إلى ليلة «العودة إلى المدرسة» وتُنصت إلى المدرسين وهم يستعطون قصاصات ورقية ومتطوعين، بدلًا من أن يتحدَّثوا عن درجات ومناهج دراسية. وأعرف كم هو مُثرٍ ومؤلم أن أحبَّ الفتيان السود، وأن أرحِّب بهم داخل عائلتي وقلبي، وأن أشاهدهم وهو ينشؤون بينها يلاحقهم أصحاب المحلات في المتاجر، ويصوِّب رجال الشرطة ضوء المصابيح الكاشفة إلى وجوههم، ويعبُر البيض إلى الجانب الآخر من الطريق تجنبًا لهم. أعرف اليأس الذي يستثيره أن تكون قريبًا بما يكفي من فتيان سود، لتسمع الرسالة التي يتلقونها بشكل يومي: أنَّ لا شيء (أو ما هو أسوأ) متوقَّع منهم، وأنَّ لا شيء (أو ما هو أسوأ) سيُتاح لهم.

وأعرف أيضًا أن «اهتمام» الآباء والأمهات البيض بالقدر المُنتظر للفتيان السود اهتمامًا مُجردًا أو أخلاقيًّا أو أبويًّا، لن يُفيد أحدًا. إن ما دفعني لحضور اجتماعات مجلس المدرسة، وطرح مسألة تقليل حجم الفصول، وجعلها أكثر انسجامًا، ورفع عدد مستشاري التوجيه، وجعل الوجبات المدرسية ذات فائدة غذائية أكبر، وما دفعني إلى أن أتوقَّف وأعلن عن حضوري لدى رؤية أصحاب المتاجر أو أصحاب الشرطة يقفون في مواجهة مع الفتيان

الأمريكيين من أصول إفريقية، وما دفعني إلى أن أسعى مع جيراني لوقف عمل تاجر المخدرات الموجود في شارعنا، ما دفعني إلى ذلك كله هو أنني كنت أستثمر في أبنائي في المُحصِّلة الأخيرة.

بعد خمسة وعشرين عامًا من اتخاذي قرارًا بأن يكون قدر أولادي هو بمعية أطفال ينتمون إلى عرق آخر وطبقة أخرى، تلقيتُ النتائج. إن أبنائي على قيد الحياة، ويُبلون بلاءً حسنًا. يعمل بيتر مصوِّرًا، ويعيش بين لوس آنجلوس ونيويورك، ويتركَّز عمله في تصوير حوافظ الألبومات والصور الشخصية الخاصة بالإعلانات الترويجية لمُطربي الهيب هوب. وبينما تمنحه نشأته في أوكلاند قدر الذكاء الذي يحتاج إليه لفهم موضوعاته، يمنحه انحداره من طبقة متوسطة قدر «الذكاء المكتبي» الذي يحتاج إليه لفهم المديرين التنفيذيين والمخرجين الفنيين الذين يقدِّمون إليه الوظيفة.

أما جيسي، فحتى الآن لا يزال قريبًا من المنزل؛ مجازيًّا وجُغرافيًّا. إنه فنان تشكيلي موهوب، واختصاصي اجتماعي متفانٍ، زبائنه في العادة مراهقون قد أدمنوا المخدرات، ومسنُّون قد حُرِموا من حقوقهم، ومحاربون قُدامي قد تشردوا. وهو سعيد لخطبته بسيدة أمريكية تنحدر من أصول إفريقية هي فرحة حياته وحياتنا. وبالنسبة إلى الأحفاد؟ أنا أنتظر بتفاؤل.

لكن ماذا عن الفتيان الذين نشؤوا معهم؟ لقد تعرَّض الكثير منهم -الكثير جدًّا- للموت، والسجن، والتشرُّد. ولأن جيسي وبيتر ليسا أمريكيين من أصول إفريقية، فقد تعرَّضوا فقط لخدوش،

وليس إصابات، جرَّاء رصاصات العنصرية الطائشة التي كانت تُصوَّب تجاه أصدقائهم. لكنَّ أبنائي نشؤوا في حيٍّ يغلب عليه السود، ودرسوا في مدارس حكومية غالبيتها من السود. وعلى هذا، فهم مثلي، يدفعهم الحب والمصلحة الخاصة -وهو مزيج قويٌّ- إلى رفع مستوى النهر تحت القارب الذي يضمنا جميعًا.

يمكن لكل طفل وكل أب وأم وكل عائلة أن يساعدوا على رأب الصدع العِرقي الذي يُقسِّم بلدنا ويُفرِّق بيننا؛ أينما تواجدوا وكيفما كانوا يعيشون. وبوسع الآباء الذين يعيشون في أحياء غالبيتها من البيض أو الذين يُلحِقون أولادهم بمدارس غالبيتها من البيض، بوسعهم فعل الكثير لتعليم أطفالهم القيم والخبرات التي يحتاجونها للعيش في عالمٍ يتزايد تنوُّعه. يمكن للآباء تعليم التسامح على طاولة العشاء، وشراء ألعاب لأطفالهم واصطحابهم إلى فعاليات تحتفي بالتنوع. ويمكنهم أيضًا إثارة نقاشات في مدارس أطفالهم حول التنوع الثقافي في مجلس المدرسة، وهيئتها التدريسية، ومناهجها، وكتبها المُقررة، ومجموعاتها المكتبية، واجتماعاتها. كذلك، بوسعهم حثُّ «مجلس الآباء والمعلمين» على المشاركة في رعاية فعاليات مع مجالس آباء ومُعلمين داخل المدن. فضلًا عن إمكانية ضم أطفالهم إلى فرق رياضية مختلطة عِرقيًّا، واصطحابهم بعد المدرسة إلى شعائر دينية ومراكز رعاية مختلطة عرقيًّا.

إن إدراك هذه الإمكانيات يستتبع إدراكًا آخر بالمسؤولية التي نتشاركها نحن الآباء البيض؛ مسؤولية ألَّا نظلَّ جزءًا من المُشكِلة،

وأن نُصبح جزءًا من الحلِّ. ليس لديَّ شكٌ في أن أطفالنا لديهم ما يكفي من الذكاء، وما يكفي من المرونة، وما يكفي من رحابة الصدر لمواجهة التحدي.

السؤال هو: هل نحن مستعدُّون لمواجهة هذا التحدي؟

# أنا وأنفي

رونا فِرنانديز

عندما كنتُ صغيرة لا يتجاوز عمري خمسة أعوام، كانت أمي تغنِّي لي تهويدة فريدة لتساعدني على النوم. كنا ننام معًا على فِراشي؛ رأسي مستندٌ إلى ذراعها، ونَفَسُها الدافئ المريح على جبهتي. كنتُ أغلق عينيَّ، وأترك الغرفة مُظلِمة. كنتُ أعتز بتلك اللحظات الهادئة التي جمعتني بأمي، المهاجرة الفلبينية، والأم العازبة التي كانت تعمل كثيرًا جدًّا حتى أنني لم أكن أراها سوى في الليل بعد أن تأتي لتأخذني من عند جليسة الأطفال. كنتُ أستلقي هناك إلى جانبها نصف نائمة، بينما تضغط هي برفق على قصبة أنفي الفلبينية المفلطحة وتغنِّي: «ارفعي أنفك عاليًا عاليًا، ارفعي أنفك عاليًا عاليًا».

وعلى مدار أعوام تالية، لم أرَ شيئًا غريبًا أو مُسيئًا في رغبة والدتي في أن تحدث معجزة، وتجعل أنفي محدَّدًا، ويكبر ليكون أكثر شبهًا بالأنوف الأوروبية. كنتُ أنظر إلى الراشدين في عائلتي؛ كيف كانوا يتودَّدون إلى الأطفال المستيزو (الفلبينيون المهَّجنون الذين

عادة ما يكون نصفهم أبيض)، وكيف كانوا يُعلِّقون على شقارتهم وجمال شعورهم ذات اللون البنِّي الفاتح وأنوفهم المحدَّدة. كنتُ أنظر أيضًا إلى عبوات إسكينول -مستحضر فلبيني مُنعِش لتبييض البشرة- على طاولة خالتي المخصَّصة للزينة - وتلك الفتاة بنية الشعر التي تظهر على مُلصق العبوة وقد أصبح وجهها شاحبًا شحوب دُمية باربي الشقراء التي كنتُ ألعب بها يوميًّا، وأنفها الذي يشبه منحدر التزلج (نفس الأنف الذي كانت تريده أمي لي).

ثم قمتُ في العام ٢٠٠٧ برحلتي الأولى إلى الفلبين؛ وهي بلدٌ، على الرغم من توحُّد عِرقها في الأغلب، يُعدُّ وزن الجسم وتدرُّجات لون البشرة فيها من المؤشرات الأساسية التي تُدلِّل على الحالة الاجتماعية للشخص. التقيتُ هناك اثنين من أقاربي للمرة الأولى؛ أخ وأخت صغيرين. ورأيتهما، في عينيَّ الأمريكيتين الفلبينيتين، جميلين ببشرتهما ذات اللون البنِّي الداكن وبنيتهما النحيلة وملامحهما الوسيمة؛ كانت سمرتهما في مستوى سمرة العديد من أصحاب البشرة السوداء الذين كنتُ أعرفهم في الولايات المتحدة. لكنني عندما قلتُ إنهما يتمتعان بالقدر الكافي من الجمال الذي يؤهلهما ليكونا عارضيَّ أزياء، ضحكت بقية العائلة.

«لكنهما أسمران جدًّا!»، هكذا صاحت قريبة ذات بشرة أفتح؛ متشكِّكة في قدرتي على رؤية الجمال في شخصين من الواضح أنهم لا يرون فيهما أيَّ جمال. ومن وجهة نظرهم، ترمز البشرة الداكنة إلى غياب التعليم الذي يُجبر الأشخاص على كسب أقواتهم بالعمل

تحت شمسٍ استوائية حارَّة، وتعني النحافة أن سبب نحولك هو فقرك وعدم امتلاكك ما يكفي من الطعام لكي تأكل.

وفي المقابل، استقبلتني عائلتي الفلبينية استقبالًا حارًّا. قالوا لي: «إنك في غاية الجمال، وبيضاء! لقد بدوتِ شديدة السواد في الصور»؛ في إشارة إلى صورٍ قد رأوها لي قبل وصولي. شعرتُ بنفور من كلامهم، لأنني ولفترةٍ طويلة كنتُ أرى نفسي شخصًا له بشرة ملوَّنة؛ حتى أن تصنيفي كشخص «أبيض» جعلني أشعر وكأنهم يرونني كائنًا فضائيًّا.

إذا كان عددٌ قليلٌ من عائلتي في الفلبين، أو أي فرد منها على الإطلاق، قد قضى وقتًا طويلًا مع غير الأسيويين؛ فقد ولدتُ وترعرعتُ في منطقة خليج سان فرانسيسكو، وأعتبر مدينة أوكلاند الكاليفورنية -واحدة من أكثر المدن تنوعًا في البلد- موطني. ولأنني ولدتُ في أمريكا، ولأني ابنة لأبوين فلبينيين مهاجرين، فقد عانيتُ على مدار سنوات حتى أتغلب على مختلف أنواع العنصرية التي تلعب دورًا في حياتي؛ تلك التي أتعرَّض لها وكذلك الموجودة بداخلي. لقد توصَّلت إلى أن التغلب على عنصريتي المتأصِّلة بداخلي هو خطوتي الأولى لكي أحظى بحياة أقل تقيُّدًا بالعِرق. إن هذا النوع من العنصرية خفيٌّ، لكنه قوي ويؤثر في اعتزازنا بأنفسنا -العديد من أصحاب البشرة الملوَّنة- بطرق كثيرة؛ وأحيانًا لا نكون واعين بها. إن الأمر لا يتعلَّق بتقبُّلنا لذواتنا فحسب، بل بتقبُّل اختلافاتنا مع الآخرين؛ بما في ذلك أصحاب البشرة الملوَّنة.

تظلُّ العنصرية حقيقة حياتية حتى عندما لا يكون حولنا أشخاص بيض. إنني لم أتعلم هذا من أفراد عائلتي الفلبينية وحسب، بل من دائرة أصدقائي التقدميين. فمثلًا عندما كنتُ بالحي الصيني مع صديق أمريكي من أصول إفريقية؛ تطلَّع صديقي إلى الزينة الحمراء والذهبية الخاصة ببداية العام الصيني الجديد، وسألني كما لو كنت أمتلك نوعًا من المعرفة الأسيوية السرية؛ قائلًا: «لماذا يحبُّ الصينيون هذه الألوان البشعة؟».

أعلمُ أنني لستُ معفاة من ردود الأفعال الفورية المنطوية على تحيُّز؛ ففي إحدى الليالي، لدى وصولي أنا وزوجي الأمريكي من أصول صينية إلى المنزل، لاحظتُ مجموعة من ثلاثة شباب سود يلعبون بالنرد في فجوة جدارية أمام مرآب جارنا. لم يكن قد سبق لي رؤيتهم هناك من قبل قطُّ، فلم أتعرَّف عليهم. بدأت دقَّات قلبي تتسارع، وشعرتُ بضيق في حلقي، وبدأت أتساءل إن كنا على وشك التعرُّض للسرقة.

وعلى الرغم من أن شيئًا لم يحدث، فإنني ما زلت أشعر بقلق. والحقيقة أنه قبل ذلك ببضعة أيام؛ كنتُ قد سمعتُ عن جار تعرَّض للسرقة تحت تهديد السلاح، وأخيرًا سمعت عن صديق يعيش بنهاية الشارع تعرَّض لسرقة سيارته. بالطبع لم أكن أعرف ما إذا كان شباب سود قد تورَّطوا في أيٍّ من هاتين الحادثتين، إلَّا أن الربط في رأسي حدث فوريًّا وغريزيًّا. كذلك، لم تنجح كثيرًا حقيقة أن لديَّ العديد من الزملاء والجيران والأصدقاء المقربين من أصحاب البشرة السوداء، لم تنجح في منع ذلك الشعور بالخوف من مراودتي.

شاركتُ مخاوفي مع الأصدقاء، ومع كل من لديه بشرة ملوَّنة -بما في ذلك الأمريكيون من أصول إفريقية- وحاولتُ أن أفهم منهم؛ رغم علمي بأن ذلك ربما يجعلني أبدو حمقاء وعنصرية. هل ينبغي أن أقلق؟ هل كنت أشعر بارتياب وحسب؟ هل يمكن أن أمتلك حسَّ انتباه جيد في الشارع، دون أن أكون عنصرية تمامًا؟ قدَّمت لي صديقة كانت قد نشأت بعيدًا عن منزلي بعدة بنايات، أفضل وجهة نظر. كانت سيدة أطول مني بكثير، وكانت ترتدي في شبابها بناطيل جينز فضفاضة وسترات رياضية؛ الزي غير الرسمي للعديد من الشباب أصحاب البشرة الملوَّنة في أوكلاند.

أخبرتني: «عندما كنتُ أتجول بمفردي ليلًا وأنا أرتدي تلك الملابس، ثم أمرُّ بشاب أسود يسير في الاتجاه الآخر؛ كنتُ أشعر بتوتُّره. كانوا يُحكِمونَ قبضتهم، ظنًّا منهم أنني شاب. وفور أن يُدركوا أنني سيدة، كان جسمهم يسترخي تمامًا. إنهم يشعرون بالخوف من احتمالية أن أفعل بهم شيئًا، بنفس قدر خوفي من احتمالية أن يفعلوا بي شيئًا».

لقد ذكَّرتني قصتها بأن «الرجال السود» المُفترض أنهم «عنيفون» -ويشعر كثيرٌ منا بالخوف تجاههم- لديهم أيضًا نقاط ضعف، ذلك أن خطر تعرُّضهم لأعمال عنف تُرتكب في حقهم أكبر من ذلك الذي أواجهه وفقًا للإحصاءات. لقد ذكَّرتني بمدى رسوخ تلك المخاوف المرتبطة بالشباب السود في وعي الجميع؛ وحتى في عقول الشباب السود أنفسهم، ناهيك عن عقلي أنا. لا يزال أمامي الكثير

لأفعله من أجل تغيير تلك التوجُّهات والمعتقدات التي كثيرًا ما تكون غير واعية؛ رغم السنوات العديدة التي قضيتُها وأنا أحاول جاهدة نسيان العنصرية.

وهو موضوع يتم التطرق إليه في البحوث النفسية المتعلِّقة بالعنصرية التي يبدو أن عقولنا الواعية تخوض فيها معركة دائمة مع التحيُّز اللاشعوري. وصف عالم النفس ديفيد آموديو، في مقالة «العقل المساواتي» المنشورة في هذه المجموعة، وصف هذه التحيُّزات بـ«الهفوات» التي يرى أنها من الممكن أن تكون عاملًا مساعدًا في التصدي للتحيُّز؛ بالنظر إلى أنها تجعلنا نبذل المزيد من الجهد تجاه تغيير السلوك المستقبلي. ذلك أنه إذا كنا نتمسَّك بقيم مضادة للعنصرية، وشعرنا بوازع عارض من التحيُّز، فإن ذلك من شأنه أن يُحفزنا على التدقيق في انحيازاتنا بمزيد من القرب؛ للاحتماء منها.

وقد تحقَّق هذا الأمر معي. إن التجارب السلبية التي كانت في بداية الأمر عبارة عن مشاعر من الخزي، نتيجة تحيُّزي العِرقي غير المحلول، قد تحوَّلت إلى طرق بنَّاءة تساعدني في مواجهة تلك التحيُّزات وتجاوزها. ولا شك أن التغيرات كانت ضمنية، مثل أن أُذكِّر نفسي بقصة صديقتي لدى رؤية شاب أسود غريب يسير في الشارع الذي أسكن فيه، لأن ذلك يساعدني في تخفيف هذا النوع من القلق الذي اختبرته تلك الليلة أمام منزلي. ومع ذلك، فقد كانت تلك التغيرات أكثر قوة وأطول أثرًا من أي تحولات فكرية

مررتُ بها بعد قراءة كتب عن العِرق أو حضور تدريبات عن التعددية. أشعر أنني محظوظة لأنني أعيش في مكان أتواصل فيه مع أشخاص من خلفيات عِرقية متباينة طوال الوقت، إذ يمكنني أن أتعرَّف على التقاليد الثقافية للآخرين وأن أُعرِّفهم بتقاليدي. تحدَّثت مع مهاجرة صينية، في الحافلة، عن سبب وجوب تعلُّمي لغة المَندَرين، وتحدَّثتُ مع سيدة بيضاء كانت قد انتقلت من مدينة سافانا الجورجية إلى أوكلاند لأنه لم يعد بوسعها التعامل مع عنصرية الجنوب. لقد شاهدتُ أشخاصًا من جميع الألوان في أوكلاند ينسجمون معًا أكثر مما رأيتُ العنف المُفترض أن مدينتي -التي قررتُ العيش فيها- تزخر به.

يظل العِرق مسألة مُعقدة في عائلتي؛ فأنا أرى مؤشرات على التقدُّم ومؤشرات أخرى على الثبات. في زفافنا، اخترت أنا وزوجي أقرب أصدقائنا ليقفوا معنا ويُشكِّلوا الحفل. وكان من بين الحضور ثلاثة فلبينيين، وخمسة آخرون من أصول إفريقية، ولاتيني. قامت بمراسم عقد القران امرأة بوذية أمريكية صينية؛ الأمر الذي كان صدمة حقيقية لأقاربِي الكاثوليكيين. أطلق الأشخاص لاحقًا تعليقات مُنفِّرة، مثل: «لم يكن هناك الكثير من الفلبينيين في زفافك»؛ أي: «لماذا كان هناك سود كثيرون؟» أما أمي، بارك الله فيها، فقد كانت أكثر إيجابية وابتهاجًا بالمسألة، وكانت توضِّح بصوت مرتفع لأي شخص عنده قابلية للإنصات أن زفافنا كان «دوليًّا» و«مختلفًا» جدًّا. (بالطبع، ولِدَ عدد قليل من أصدقائي الملوَّنين خارج الولايات المتحدة).

ربما تكون أمي قد تطورت؛ هذا ما أريد تصديقه.

ثم أفكر في الأطفال الذين أعرفهم والناشئين في عالم لا نحظى فيه برئيس أسود وحسب، بل أيضًا بأشخاص ينتمون إلى أعراق وإثنيات مختلفة ويُمثِّلون في مجموعة من الأفلام والمسلسلات التليفزيونية المهمَّة. أفكر في طفل صديقتي الأمريكية ذات الأصول الإفريقية الذي يقول agua[1] بدلاً من ماء عند شرائه، وأفكِّر في أنني أشتهي الهالبينو عندما أسافر خارج كاليفورنيا وثقافتنا المطبخية المتأثرة بالمكسيك. أفكر في النادي الذي ذهبتُ إليه منذ بضعة أسابيع، ووجدت جمهورًا يغلب عليه الآسيويون والسود مستمتعين بموسيقى الهاوس، في شرفة في الدور العلوي بوسط مدينة أوكلاند. إنني أدرك قدر اختلاف هذا العالم؛ حتى عن العالم الذي نشأت فيه.

وهذا هو ما يتنبَّأ البحث الذي ناقشه آموديو (وآخرون في هذه المجموعة) بوجوب حدوثه: إذا التزمنا -عن وعي- بالاعتراف بتحيُّزاتنا التلقائية والتغلُّب عليها، فإننا ومع زيادة تعرُّضنا للاختلافات العِرقية ستتمكَّن من تدريب أنفسنا على أن نكون كائنات تتسم بالتعددية الثقافية. أو بصيغة أخرى: بدلًا من الخوف، ستتعلَّم استيعاب اختلافاتنا؛ تلك التي نجدها في أنفسنا، والأخرى التي نجدها في الآخرين. إن أنفي ليس أعلى مما كان عليه عندما كنتُ فتاة صغيرة، لكنني الآن أراه جميلًا. وهذه بداية.

---

(١) تعني في اللغة الإسبانية: ماء.

# دم مزدوِج

ريبيكا ووكر

مثل كثير من أبناء جيلي الأمريكيين ثنائيي العِرق، التقى والداي في الثورة الثقافية الهائجة التي شهدتها الستينيات. تزوَّجا عندما كان التزاوج بين الأعراق المختلفة مخالفًا للقانون، وواصلا تحدِّي الافتراضات المترسِّخة حول العرق بإنجابي. وقد كان هذا عملًا خطرًا؛ حيث كانت كو كلوكس كلان[1] كثيرًا ما تهدد عائلتنا المختلطة عرقيًّا في ميسيسيبي، وتبرَّأت والدة أبي اليهودية منه لأنه تزوَّج بامرأة سوداء.

وبعد ما يزيد على ثلاثين عامًا، اجتزتُ ببشرتي النحاسية بار متسفا[2]، وحفلات الشِّواء، والمدارس الحكومية داخل المدينة، ورابطة اللبلاب[3]، ومجموعة كبيرة أخرى من العوالم شديدة التباين. وقد بقيتُ رومانسية وأفلاطونية مع أشخاص أحاديي العِرق وآخرين

(١) جماعة أمريكية عنصرية متطرفة تؤمن بتفوق البيض.

(٢) حفل يُقام عند بلوغ الشاب اليهودي ١٣ عامًا، السن الذي يُعد فيه مُكلفًا بأداء جميع فرائضه.

(٣) رابطة رياضية بين ثماني جامعات أمريكية.

متعدِّدي الأعراق، عبر نصف دزينة من المدن الأمريكية. وبسبب المذكرات التي كتبتُها عن ثنائيتي العِرقية في أواخر عشرينياتي، تحدَّثت بصداقة خالصة مع أفراد متعدِّدي الأعراق من جميع أنحاء العالم.

يمكن للمرونة التي تتسم بها الهوية الثقافية والعِرقية أن تكون هدية مذهلة. ففي كينيا، والمكسيك، وتايلاند، ومصر، والمغرب، وغيرها من الدول المجاورة؛ يتمُّ قبولي كابنة، وأخت، وأم، أو زوجة محتملة. ونادرًا ما يتمُّ استقبالي كأجنبية. يُخبرني أصحاب المتاجر، والمدرسون، وسائقو سيارات الأجرة: «آه، أنت قادمة من أمريكا؟ لكنك مثلنا!»، فأضحك وأهزُّ رأسي. يقولون: «لا يهم، أنت الآن في بلدك». وبالفعل، أشعر أنني في بلدي. وأستوعب سلوكيات الحياة اليومية وإيقاعها بسهولة، حتى لو لم أستطع التحدُّث بلغة البلد.

يتشارك الأصدقاء متعددو الأعراق تجارب مشابهة؛ ويبدو أن إثنيتنا «الخاصة» تتلاشى خلال ساعات، أو حتى دقائق، من الانغماس في ثقافة أخرى. فقد أخبرتني اِمرأة سويدية - نيجيرية، تحدَّثتُ إليها أخيرًا، أن هويتها ثنائية العِرق جعلتها عابرة للحدود و«قلبًا ماشيًا»؛ على حد تعبيرها.

ويكمن الجانب الأقل جمالًا في تعدُّد الانتماءات العِرقية للفرد في القلق الهائل الذي ينتاب الفرد في كثير من الأحيان، وذلك نتيجة الانتماء إلى جماعات ثقافية وعِرقية متعدِّدة؛ يتطلب كلٌّ منها ولاءً متزامنًا. هل ينبغي أن يكون الشَّعر مستقيمًا أم مجدولًا في حبائل؟ ما

هي اللغة العامية المُفترض استخدامها، وما هو الإرث الأدبي المتميز، ومن هو المُرشَّح السياسي المدعوم؟ إن قرارًا في بساطة اختيار الحيِّ الذي يسكنه الفرد من الممكن أن يكون حقل ألغام لشخصٍ تتعدَّد انتماءاته العِرقية ويشعر بضغط حيال تبني ثقافة معينة أو عِرقًا معينًا.

بدأ الباحثون، في الأعوام الأخيرة، في التركيز على تجربة التعدُّدية العِرقية بكامل تعقيداتها. ووثَّقوا، من خلال عملهم هذا، صنوفًا محدَّدة من التحيُّز والقلق المحتمل مواجهته. لكن في الوقت نفسه، أعطت هذه التجارب أملًا في التوصُّل إلى إستراتيجيات جديدة لم يسبق لرواد الأجيال السابقة اكتشافها، بينما يشقُّ الجيل التالي من العائلات متعدِّدة العِرقيات طريقه في العالم.

وتلقَى كثيرٌ من هذه البحوث صدًى شديد المصداقية عندي؛ ربما لأنني أعلم بشكل وثيق مأزِق ثنائية العِرق. وقد وجدت عالمة الاجتماع كِمبرلي وزملاؤها، في إحدى الدراسات، أن الأشخاص متعدِّدي الأعراق يتعرَّضون لعنصرية أكبر من تلك التي يتعرَّض لها أقراننا أحاديو الأعراق. وفي دراسة أخرى، وجدت يونسون تشويي بجامعة شيكاغو أن الشباب متعدِّدي الأعراق أكثر عُرضة لتناول المخدِّرات واكتساب سلوكيات عنيفة، مقارنة بالشباب أحادي العِرق المُنحدر من الخلفيات الاجتماعية والاقتصادية نفسها.

وتعكس هذه النتائج تجربتي الشخصية بشكل دقيق؛ دائمًا شديدة السواد أو شديدة البياض. لقد كنتُ مُطَّلِعة على تحيُّزات الجماعتين العِرقيتين، وتمَّ استخدامي كشاشة تعرض عليها كل

مجموعة فكرتها عن الأخرى. وعلى الرغم من أنني اضطررتُ إلى إبطال العنصرية البيضاء، فقد تحمَّلتُ أيضًا إهانات من أمريكيين ذوي أصول إفريقية. فقد صُنِّفت سلوكياتي باعتبارها مُتغطرسة ومُتحفِّظة؛ وحتى اليوم داخل الدوائر الفكرية والأكاديمية الأفرو-أمريكية، كثيرًا ما تكون مؤهلاتي محل شك. إن «امتياز» أن يكون الفرد نصف أبيض يتمُّ استقباله بنوع من «القبول المتجاوز عنه»؛ ما يعني عدم استيفاء شروط الجدارة الفكرية الحقيقية.

عندما كنتُ مُراهقة، استعنتُ بالمخدرات في سدِّ الفجوات المجتمعية وتخدير ألم أحكامهم. وكانت الماريجوانا والإكستاسي رائعتين في تحقيق الموازنة؛ لغة مشتركة تتيح وقف الاختلافات الظاهرية بصورة مؤقتة. وكوني اِمرأة، فقد وجدتُ عزاءً في النشاط الجنسي؛ ذلك أن مدلول لون بشرتي في هذا النشاط يكون أقل أهمية من صلاحيتي كشريكة جنسية.

أعلم أن العديد من الرجال أصحاب الانتماءات العِرقية الثنائية والمتعدِّدة يلجؤون إلى العنف البدني وغيره من أشكال سلوك التدمير الذاتي لإثبات أهليتهم، وهو نموذج يتجاوز التصنيفات العِرقية. إن كثيرًا من الرجال أصحاب الانتماءات العِرقية المُتعددة الذين كنتُ أعرفهم في المدرسة الثانوية؛ لا سيما أولئك المنحدرين من خلفيات اقتصادية واجتماعية أقل، هم في السجن الآن. وأحدهم ميِّت.

إلَّا أنَّ هناك أخبارًا واعدة من جبهة التعدُّد العِرقي؛ فخلال الأعوام القليلة الماضية، بدأ أشخاص ذوو انتماءات عِرقية ثنائية

ومتعدِّدة يحكون لي بعبارات لا لبس فيها أن شعورهم بالأريحية تُجاه تراثهم الثنائي أو الثلاثي يتزايد. وعلى الرغم من أن عدد الأمريكيين المنتمين إلى عِرقين أو أكثر لا يزال أقلّ، فقد تزايد هذا العدد بنسبة ٢٥٪ من ٢٠٠٠ إلى ٢٠٠٧، بينما تزايد عدد سكان الولايات المتحدة بنسبة ٧٪ فقط خلال الفترة ذاتها؛ وذلك وفقًا لبرنامج التقديرات السكانية التابع لمكتب الإحصاء الأمريكي. ومع تزايد عدد السكان مختلطي الأعراق -لا سيما وأن لدينا الآن رئيسًا ثنائي العِرق- يبدو أن مشاعر الاغتراب والاحتجاب تتضاءل، ويُستبدل بها في كثير من الأحيان فخر لا يشوبه خجل. وقد تفاجأتُ بصفة خاصة بعدد الجماعات المُتعددة عرقيًّا المتواجدة داخل حرم الكُليات؛ ذلك أنني واجهتُ صعوبات كثيرة في تشكيل تحالفات متعدِّدة الأعراق عندما كنتُ طالبةً في جامعة ييل. وبعد خمسة عشر عامًا، أجدُ جماعات طلابية متماسكة -تتألَّف من أشخاص لديهم انتماءات عِرقية ثنائية ومتعدِّدة- في كل حَرَمٍ (جامعي) أسعدني الحظُّ بما يكفي لزيارته.

وبالإضافة إلى الدعم الخارجي، يبدو أن الآباء يكتسبون سهولة في مناقشة هذه الأمور في المنزل؛ وإن كان هذا الأمر يحدث بوتيرة بطيئة. لقد توصَّلت دراسة أجرتها عالمة النفس باربرا فليتشر ستيفنز إلى أن الأزواج أصحاب الانتماءات العِرقية الثنائية في طريقهم إلى الاعتراف بأهمية التحدُّث مع أطفالهم عن هوياتهم ثنائية العِرق، وأهمية «نقل السلوكيات الإيجابية والسلبية المتوارثة من جانبيِّ العائلة، لمساعدتهم على تكوين هوية شخصية متماسكة». وبتعبيرٍ آخر، من المهم أن يُفصح الآباء عن جوانب تاريخهم الثقافي،

الإيجابية وغير الإيجابية، بدلًا من تقليص النواحي الأقل جاذبية؛ أو فرض رقابة عليها. وتخلص دراسة فليتشر ستيفنز إلى أن الأطفال أصحاب الانتماءات العِرقية الثنائية أو المتعدِّدة، ممن يُقدِّم لهم آباؤهم نظرة مُركَّبة عن ثقافة العائلة، يواجهون قدرًا أقل من الصراعات المحورية المتعلِّقة بالهوية، ومن ثم، يكون هؤلاء الأطفال مُجهَّزين بصورة أفضل لتسيير البيئات الاجتماعية الغارقة في التحيُّزات والانقسامات حتى الآن.

كرواد، حظي آباء قرنائي أصحاب الانتماءات العِرقية الثنائية والمتعدِّدة بعدد قليل من الدراسات الحقيقية، وعدد أقل من النقاشات الشعبية، عن الموضوع الذي يستهويهم. ونتيجة لذلك، كانوا كثيرًا ما يُشكِّكون فيما يواجهه أطفالهم من معاناة مع الهوية والتحيُّز، ويقلِّلون منه، ويغفلون عنه تمامًا. يُقدِّم هذا البحث الجديد أخبارًا جيِّدة، وتقنيات مُثبتة لحلِّ المشكلات، لهذا الجيل القادم من الآباء، والذي من شأنه أن يحظى حينئذ بفرصة أفضل لتحديد وتجنُّب العثرات المُحتملة التي تقف بانتظار أطفالهم. كذلك، تُقدِّم الإحاطة بالموضوع تأييدًا ووضوحًا للأطفال أصحاب الانتماءات العِرقية الثنائية والمتعدِّدة، وهم الذين ربما لم يتولَّد لديهم بعدُ استعدادٌ للحديث عن التحيُّز الذي يواجهونه في غرف الدراسة وساحات اللعب. وهذه أخبار ممتازة بالنسبة لهؤلاء الأطفال.

في دراسة مُفصَّلة منشورة في أحد أعداد «المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع» لعام ٢٠٠٧، حول العائلات ثنائية العِرق على نطاق الدولة، قُدِّمت أدلة إضافية على التقدُّم الذي تُحرزه العائلات

متعدِّدة الأعراق، مع الإشارة في الوقت ذاته إلى التحديات التي تواجهها تلك العائلات حتى الآن. وجزم عالما الاجتماع سايمون تشينج وبراين بويل بأن الآباء في العائلات ثنائية العِرق عادةً ما تُخصِّص موارد ثقافية ومالية أكبر لتعليم أطفالهم، وأشياء مثل دروس الموسيقى ورحلات المتاحف، وذلك مقارنةً بتلك الموارد التي يُخصِّصها الآباء في عائلات مماثلة أحادية العِرق. ومع ذلك، يخلص الباحثان أيضًا إلى أن التحيُّزات الاجتماعية المترسِّخة بعمق تجاه معارضة الزواج بين الأعراق المختلفة، ولا سيما الزيجات التي تحدث بين رجال سود ونساء بيض، ربما تترك تلك العائلات معزولة اجتماعيًّا. ويُخمِّن كلٌّ من تشينج وبويل بأن تلك العائلات ربما تستثمر موارد أكبر في تعليم أطفالها سعيًا منها إلى تعويضهم عن مكانتهم الاجتماعية المُهمَّشة، حتى وإن لم يمتلكوا بالضرورة نقودًا أكثر.

وتُلقي هذه الدراسة الضوء على توترٍ -بين السلوكيات المُكتسبة لدى الأفراد والعائلات متعددة الأعراق، والتحيُّزات التي لا تزال قائمة في المجتمع ككل- كنتُ قد أدركته في دراسة أقدم؛ دراسة أدهشتني لما تتمتَّع به من أهمية خاصة لمستقبل الهوية ثنائية العِرق. وفي بداية التسعينيات؛ استكشفت عالمة النفس بجامعة ستانفورد تيريزا لافراماس، بالتعاون مع زملاءٍ لها، مقاربات متعدِّدة يلجأ إليها الأشخاص لحلِّ التنافر النفسي الذي يكتنف تجربة التعدُّدية الثقافية التي يعيشونها. وتتنوَّع تلك المقاربات بين الاندماج الذي يحاول فيه الأشخاص الانسجام بشكل كامل مع ثقافةٍ يرونها

الأنسب، والانصهار الذي يحاول فيه الأشخاص الدمج بين ثقافات مختلفة لتشكيل ثقافة جديدة. إلَّا أن الباحثين رأوا وعدًا خاصًّا مما يُسمى نموذج «التناوب» الذي يكون فيه الشخص ثنائي العِرق أو ثنائي الثقافة قادرًا على أداء مهامه كاملةً داخل الثقافتين دون فقدان هويته/ـــا، ودون أن يُضطر إلى اختيار ثقافة على الأخرى.

بوسعي رؤية الإغراء الذي ينطوي عليه هذا النموذج في الشخص ثنائي العِرق، البارع في التبديل، القادر على التبديل ذهابًا وإيابًا بسرعة الضوء دون أي ضرر يلحق به نتيجة التبديل. إنه نموذج أعتمد عليه بنجاح في بعض الأوقات، وأجد ملاحظته في الآخرين أمرًا مُلهِمًا. فمثلًا، كنتُ أتحدَّث قريبًا في مهرجان فنون بأمستردام ووجدت نفسي قد دخلتُ في مناقشة عميقة مع أقراني حاملي الجنسيتين الهولندية والسورينامية. وعندما أخطأتُ في الإتيان بالمصطلح المناسب، شاركوني هم بما توصلوا إليه قائلين: «دم مزدوِج؛ هذا ما نحن عليه. لسنا هذا ولا ذاك، لسنا أفضل أو أسوأ. نحن الاثنان، ونحن جميلون، ونشعر بالفخر». لقد كدتُّ أن أقع حرفيًّا من القوة الهائلة لثقتهم بأنفسهم، وعلى الفور تبنَّيتُ المصطلح.

لكنني ما زلت أشعر بالقلق، لأنه حتى هذا الحلُّ الأكثر العقلانية يضع عبء التغيير النفسي على ثنائيي الأعراق أنفسهم؛ وليس على المجتمع كله. يُنتظر من أصحاب الانتماءات العِرقية الثنائية والمتعدِّدة أن يجدوا طريقة وسيطة في عالمٍ يُنظر إليه باعتباره

مُنقسمًا في جوهره بلا رجعة. وبدلًا من أن يشقُّوا طريقهم بسلام في عالمٍ يتمُّ التعامل معه باعتباره كيانًا واحدًا، يتعيَّن عليهم تعلُّم السير بمهارة بين عوالم تُعتبر متعدِّدة.

إن هذا الحلَّ ربما يصلح كإستراتيجية تعايش مفيدة، لكنه ليس خطَّة مستدامة طويلة الأمد للقضاء على التحيُّز في مجتمعنا. إن هذا الأمر سيحدث فقط عندما يأخذ جميع البشر محاسن الإرث الذي تركه لهم أسلافهم ومساوئه، ويسعون إلى تغيير لغة الخطاب من الحديث عن الانفصال وانعدام المساواة إلى الاتحاد والانفتاح على الجميع.

ولحسن الحظ؛ نحن قريبون جدًّا من خارطة طريق نُحقِّق من خلالها هذا التحوُّل الثقافي، عبر هذا المبحث الجديد المعني بالعائلات ذات الانتماءات العِرقية الثنائية والمتعدِّدة. سيتطلَّب الأمر أن يتحدَّث جميع الآباء مع أطفالهم عن إرثهم الثقافي؛ الإيجابي والمُروِّع. وبمجرد أن يصبح الأطفال على اطلاعٍ كافٍ، سيكون في وسعهم التصالح مع الصراعات العِرقية الأزلية؛ بما في ذلك الصراعات المتصلة بهوياتهم الشخصية.

إننا، بمُضِيِّنا في هذا الاتجاه، نُعلِّم أطفالنا أن الماضي معروف، لكن المستقبل اختياريٌّ وغير مكتوب ومُعتمِد عليهم. إن هذه الفكرة في حدِّ ذاتها من الممكن أن تُشكِّل جيلًا، ومن الممكن أن تجعل التحيُّز شيئًا من الماضي.

# حقيقة + مصالحة

ديزموند توتو

كبير أساقفة جنوب إفريقيا




كان مالوزي مبوملوانا شابًّا مُفعمًا بالحماس، وناشطًا مناهضًا للفصل العنصري، ومعاونًا مُقرَّبًا لستيف بيكو في حركة الوعي الأسود التي شكَّلت أهمية كُبرى في جنوب إفريقيا أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات. وكان مُنخَرِطًا أيضًا في التطوير الحيوي للمجتمع، وفي مشروعات صحية مع مجتمعات فقيرة؛ غالبًا ما تكون ريفية ومُحطَّمَة. ونتيجة لذلك، تعرَّض هو وزوجته للرقابة المشدَّدة، ولمضايقات مستمرة من جانب قوات الأمن واسعة الانتشار، وكثيرًا ما احتُجز هو وزوجته دون محاكمة.

أتذكر جيدًا يومًا هرب فيه مالوزي من قوات الأمن، وأتى إلى مكتبي في جوهانسبرج، حيث كنتُ أعمل أمينًا عامًّا لمجلس جنوب إفريقيا للكنائس. أخبرني أنه خلال الفترات المتكرِّرة التي قضَّاها في السجن عندما كانت قوات الأمن تُعذِّبه بصفة دورية، كان يفكِّر في أن «هؤلاء أبناء الله، لكنهم يتصرَّفون كالحيوانات؛ إنهم بحاجة إلى أن نُعينهم على استعادة إنسانيتهم التي فقدوها». إن

نجاح كفاحنا ضد الفصل العنصري كان بحاجة إلى شباب متميِّز مثل مالوزي.

لقد تسبَّب الفصل العنصري في ألَّا يكون مواطنو جنوب إفريقيا كيانًا واحدًا. وعلى مدار سنوات؛ عانى السود من الوحشية والاضطهاد، في حين تحوَّل العديد من البيض أصحاب الامتيازات إلى أشخاص أقل اكتراثًا ورحمة وآدميَّة؛ ومن ثم أقل إنسانية. ومع ذلك، فخلال تلك السنوات من المعاناة وانعدام المساواة، كانت إنسانية كل مواطن جنوب إفريقي لا تزال مربوطة بإنسانية الآخرين جميعًا؛ سواء كانوا بيضًا أو سودًا، أصدقاء أو أعداء. ذلك أنه لا سبيل إلى قياس كرامتنا إلَّا بالطريقة التي نُعامل بها الآخرين؛ وقد كانت هذه حكمة مالوزي الفريدة.

لقد رأيتُ قوة هذه الفكرة عندما كنتُ أعمل رئيسًا للجنة الحقيقة والمصالحة في جنوب إفريقيا. وقد كانت هذه هي اللجنة التي أنشأتها حكومة ما بعد الفصل العنصري، بقيادة رئيسنا نيلسون مانديلا، لتجاوز دورات القصاص والعنف التي اجتاحت العديد من الدول الأخرى خلال فترة انتقالهم من الاضطهاد إلى الديمقراطية. ومنحت اللجنة فرصة لُمرتكبي الجرائم السياسية أن يتقدَّموا بطلب من أجل الحصول على عفوٍ شريطة أن يتقدَّموا بتقرير كامل وصادق عمَّا اقترفوه، وكذلك فرصة لطلب الصفح إذا جنحوا إلى الخيار الأول؛ وهي فرصٌ استغلها البعض دون غيرهم. فضلًا عن ذلك، وفَّرت اللجنة فرصة لضحايا الجرائم السياسية أن

يشاركوهم تجاربهم، ويستمعوا إلى الاعترافات، ومن ثم يتخفَّفوا من عبء الألم والمعاناة التي مرُّوا بها.

وحتى يمكن لبلدنا أن يتعافى ويصبح مكانًا أكثر إنسانية، كان علينا أن نحتوي أعداءنا مثلما نحتوي أصدقاءنا. الأمر نفسه ينطبق على العالم بأسره، إذ يتطلَّب السلام الحقيقي الدائم -بين الدول، وداخل الدولة الواحدة، وداخل المجتمع، وداخل العائلة- مصالحة بين الأعداء القدامى وحتى بين أحبائهم الذين واجهوا صعوبات، أحدهم مع الآخر.

كيف يمكن لأي شخص فعلًا أن يرى إمكانية في مصالحة حقيقية تتغاضى عن مواجهة ملائمة؟ عندما يتشاجر زوج وزوجة، أو صديقان، ويكتفي الاثنان بالتغاضي عن الاختلافات أو إخفاء المشكلات، فلا ينبغي لهما أن يتفاجأا عندما يتشاجران حول الأمور ذاتها مرة أخرى بعد فترة قصيرة، وبطريقة ربما تكون أكثر عُنفًا مما سبق؛ ذلك أنهما حاولا علاج العلَّة باستخفاف.

إن المصالحة الحقيقية تُبنى على التسامح، والتسامح يُبنى على الاعتراف الحقيقي، والاعتراف يُبنى على التوبة والندم والشعور بالأسى على ما فعلت. ونحن نعلم أنه عندما يتشاجر زوج وزوجة؛ يتعيَّن على أحدهما الاستعداد لقول جملة «أنا آسف» الأكثر صعوبة في أيِّ لغة، ويتعيَّن على الآخر أن يكون مستعدًّا للصفح حتى يكون لعلاقتهما مستقبل. ويسري هذا الأمر على الآباء والأبناء، والأشقاء، والجيران، والأصدقاء. وبالمثل، فإن الاعتراف والتسامح والمصالحة

في حياة الدول ليست مجرد أشياء روحانية ودينية خيالية أو أشياء ضبابية وغير واقعية؛ بل هي أساسيات السياسة العملية.

إن من ينسى الماضي يتحتَّم عليه تكراره، مثلما يقول الكثيرون. ومن ناحية نفسية محضة، كنا مُدركين في جنوب إفريقيا أن عفوًا عامًّا دون إقرارات لن يعالج ماضينا. إننا لا نُعالج الماضي إذا قلنا بعفوية: «عفا الله عما سلف»، لأن العفو حينها لن يحدث. كيف تعفو إن لم تكن تعلم الشيء والشخص الذي تعفو عنه؟ لقد طلبنا في جلسات استماع اللجنة إقرارًا كاملًا حتى يتسنَّى لنا منح العفو، إذ رأينا أن عملية طلب العفو وتلقيه لن تكون شافية وتحويلية لجميع الداخلين فيها إلَّا عندما يحدث هذا. وتُظهر سجلات اللجنة أن معاييرها المتعلّقة بالإقرارات والعفو كانت عالية بالفعل، فقد منحت عفوًا لـ٨٤٩ فقط من أكثر من ٧٠٠٠ طلب مُقدَّم إلى لجنة الحقيقة والمصالحة.

لقد كان كشف الحقيقة ضروريًّا؛ ليس فقط لتعافي الضحايا وإنما للجناة أيضًا. فالذنب له أثرٌ سلبي على المُذنِب؛ وإن كان غير مُعتَرَف به. وستتكشف الأمور يومًا ما بطريقة أو بأخرى، وعلينا أن نكون راديكاليين وأن نبحث عن الأصل ونزيل التقيُّح ونُطهِّر مكانه ونعالج بالكيِّ؛ وحينئذ ستكون البداية الجديدة أمرًا ممكنًا.

إن التسامح يمنحنا القدرة على البدء من جديد؛ وهذه هي قوة الاعتراف والتسامح، والحكمة من ورائهما. أن تقول: «لقد سقطتُّ، لكنني لن أظل هناك. أرجو أن تسامحني». إن التسامح هو المعروف

الذي تُقدِّمه للشخص الآخر حتى يتسنَّى له النهوض؛ النهوض بكرامة للبدء من جديد. كذلك، فإن عدم التسامح يُسبِّب شعورًا بالمرارة والكراهية، مثله في ذلك مثل كراهية النفس وازدرائها؛ كما أنه يأتي على العناصر الحيوية في كِيان المرء. وسواء كانت الكراهية مُصدَّرة أو مُستقبَلة، فإنها دائمًا مُفسِدة للروح البشرية.

لقد اختبرنا جميعًا تحسُّن شعورنا بعد تقديم الاعتذارات وقبولها، ومع ذلك يظلُّ الاعتذار أمرًا شديد الصعوبة. حتى إنني كثيرًا ما أواجه صعوبة في الاعتذار لزوجتي، وسط الحميمية والحب الموجودين في غرفة نومنا؛ فكم هو صعب أن نعتذر لأصدقائنا وجيراننا وزملائنا في العمل. كذلك، يستدعي طلب المسامحة تحمَّل المسؤولية عن دورنا في الصدع الذي أصاب العلاقة. يمكننا دائمًا تقديم الأعذار لأنفسنا وإيجاد تبريرات لتصرُّفاتنا مهما كانت ملتوية، لكننا نعلم أن هذه الأشياء تُبقينا أسرى اللوم والخزي.

في قصة آدم وحواء، يُذكِّرنا الإنجيل كم هو سهل أن نُلقي باللوم على الآخرين. فعندما واجه الربُّ آدم بتناوله الفاكهة المحرَّمة من شجرة معرفة الخير والشر؛ كان أقلَّ إقدامًا على تقبُّل المسؤولية وألقى باللوم على حواء، وعندما واجه الربُّ حواء؛ حاولت هي أيضًا أن تزيح المسؤولية إلى الأفعى. (ولم يبقَ للأفعى المسكينة شخصًا تلومه). وعلى هذا، لا ينبغي أن نكون متفاجئين من مقدار الممانعة التي يشعر بها أغلب الناس عند اعترافهم بالمسؤولية والاعتذار. إننا نتصرَّف بصورة مطابقة لما كان عليه أسلافنا، عندما

نُلقي باللوم على كل شخص وكل شيء إلَّا أنفسنا. إن قول «هذا خطئي؛ أنا آسف» هو الفعل البطولي اليومي؛ فبدون هذه الكلمات البسيطة، يصبح التسامح أصعب بكثير.

إن مسامحة أعدائنا أو أحبائنا والتصالح معهم لا شأن له بادِّعاء ما يخالف حقيقة الأشياء، ولا شأن له أيضًا بأن يُربِّت أحدنا ظهر الآخر ويغض الطرف عن الخطأ. وتعتبر المصالحة الحقيقية مخاطرة لأنها تكشف عن الفظاعة والإساءة والألم والجرح والحقيقة، لكنها، في نهاية الأمر، تستحقُّ العناء، ذلك أن المواجهة الصادقة مع الواقع هي وحدها ما يمكن أن يجلب لنا المعافاة الحقيقية في النهاية. أما المصالحة الظاهرية فلا تجلب إلَّا معافاة ظاهرية.

وإذا وصل المُذنِب إلى نقطة إدراك خطئه، يكون هناك أمل في توبته أو على الأقل في شعوره بالندم والأسى؛ الأمر الذي ينبغي أن يقوده إلى أن يعترف بالخطأ الذي ارتكبه ويطلب الصفح. وبكل تأكيد، يتطلَّب ذلك قدرًا كبيرًا من التواضع. لكن ما الذي يحدث عندما تكون التوبة أو الاعتراف معدومين؟ هل يجب أن يكون تقديم الضحية للصفح متوقفًا على تلك الأمور؟ لا شك أن الاعتراف يكون عونًا كبيرًا للشخص، لكن الأمر ليس كما لو كان لا يمكن الاستغناء عنه بصفة مُطلقة. ذلك أن الضحية لو لم تتمكَّن من الصفح إلَّا باعتراف الجاني، فستكون الضحية أسيرة هواها، وأسيرة وقوعها ضحية؛ وذلك بصرف النظر عن سلوكياتها أو نواياها. وسيكون هذا غير منصف بشكل واضح.

إننا، بصفحنا، نُعبِّر عن إيماننا بمستقبل العلاقة وقدرة المُذنب على التغيُّر. إننا، بذلك، نُرحِّب بفرصة للبدء من جديد، لأننا لسنا معصومين وسنجرح من نحب -على الأخص- بخطأ ما، وسنحتاج دائمًا إلى هذه العملية من الصفح والمصالحة للتعامل مع تلك الشقوق المؤسفة -والبشرية البحتة- في العلاقات. إنها صفة لا يمكن الفرار منها في الحالة البشرية.

كان لدينا في إفريقيا اجتهاد قانوني كان بمثابة علم عقوبات تصالحي وغير جزائي. وعلى نحوٍ تقليدي؛ عند وقوع مشاجرات بين الأفراد، لم تكن النية الأساسية هي معاقبة الشخص اللئيم، ولكن استعادة العلاقات الجيِّدة. وقد كان هذا هو المبدأ المُحرِّك للجنة الحقيقة والمصالحة. لأن إفريقيا مهتمَّة، أو كانت مهتمَّة على نحو تقليدي، بكمال العَلاقات. إنه أمرٌ نحتاج إليه في هذا العالم؛ العالم المُستقطَب المُمزَّق الذي يُدمِّر الأشخاص. إنه أيضًا أمرٌ نحتاج إليه في عائلاتنا وصداقاتنا، لأن القصاص يجرحنا ويُفرِّقُنا. لا شيء سوى الجبر يمكن أن يشفينا ويجعلنا كيانًا واحدًا، ولا شيء سوى الصفح يُمكِّنُنا من استعادة الثقة والتراحم في علاقاتنا. إذا كان السلام هدفنا، فلا يمكن أن يخلو المستقبل من التسامح.

# شكر وعرفان

نُشِرت أغلب المساهمات الواردة في هذا الكتاب، لأول مرة، في مجلة «جريتر جود» (www.greatergoodmag.org)، والتي شهدت ازدهارًا لأكثر من ستة أعوام بفضل العمل الدؤوب الذي بذله مئات الأشخاص؛ بداية من الموظفين والمتطوعين وانتهاءً بأعضاء المجلس التحريري.

ونُعرب عن عميق امتناننا لجميع متبرعينا وقُرَّائنا المُخلصين، حتى وإن كان ضيق المجال يحول دون تخصيص الشكر لكل شخص بالاسم.

نَودُّ أن نتقدّم بشكرٍ خاص إلى توماس، وروث آن أورناداي، ومؤسسة هِرب آلبرت، على دعمهم المشترك، الذي جعل من جريتر جود أمرًا مُمكنًا؛ وإلى لي هوانج ومؤسسته كواليتي أوف لايف التي ساعد دعمها على توسيع نطاق انتشار المجلة.

ندين أيضًا بجزيل الشكل إلى داكر كيلتنر، رئيس التحرير التنفيذي لجريتر جود، والمدير المؤسِّس لهيئة تدريس مركز جريتر

جود العلمي الذي خرجت جريتر جود إلى حيز الوجود بفضل رؤيته وقيادته.

ونحن مدينون بشدّة إلى الموظفين في بيكون پرِس، بما في ذلك مديرته هيلين آتوان. وكان آندي هريسينا من أوائل الداعين إلى «هل نولد عنصريين؟» وعملت أليكس كابيتان على تنقيح الكتاب في كل مرحلة من مراحل تطويره؛ بتعديلاتها المدروسة.

لقد حقّق إعداد هذا الكتاب استفادة كُبرى من مساهمات كبار العلماء المتخصّصين في العنصرية والتحيُّز. نخصُّ بالشكر: إليزابيث بيدج-جولد، وجاك جِليسر، وسوزان فيسك، وباربرا فريدريكسون، وساميول جارتنر، ووالتر ستيفن، وتوماس بيتجرو، على وقتهم ومساعدتهم.

وخِتامًا، نشكر ميريديث ميليت، وأوزليم إيداك، وأولي دوو، على صبرهم ودعمهم.

# المصادر

تنظيم المجتمع المناهِض للعنصرية

يعمل برنامج مناصرة القيادة التابع لمركز البحوث التطبيقية على تعزيز كفاءة المجتمعات الأهلية ووسطاء التدريب والنشطاء المستقلين، بُغية الانخراط في العمليات التعليمية والتدابير اللازمة لإحراز تقدم في مسألة المساواة العِرقية. ينشر أيضًا مركز البحوث التطبيقية مجلة Color Lines الإخبارية الوطنية؛ المعنية بالعِرق والسياسة. www.arc.org.

ويساعد مركز التغيير المُجتمعي أصحاب الدخول المنخفضة -لا سيما أصحاب البشرة الملوَّنة- على بناء منظمات قوية؛ يمكنهم من خلالها تغيير مجتمعاتهم وسياساتهم العامة إلى الأفضل. www.communitychange.org.

مناهج مناهِضة للعنصرية

يُقدم «تعليم التسامح» مصادر مجانية -تشمل ملفات عن الأفلام

الحائزة على جائزة أوسكار- من شأنها أن تساعد المُعلِّمين في التصدي بطريقة فعالة لمشاكل مجتمعية كالعنصرية. www.tolerance.org.

يوفِّر «مواجهة أنفسنا والتاريخ» مواد مبتكرة ذات صلة؛ تُشرِك الطلبة في عملية تمحيصٍ لمسألة العنصرية والتحيز ومعاداة السامية، فضلًا عن فرص التطوير المهني للمُعلِّمين. www.facinghistory.org، و٠٢٨١ - ٢٣٢ - ٦١٧.

يُعد «التعليم من أجل التغيير» موزِّعًا رائدًا لمصادر مناهضة الانحياز ومناهضة العنصرية، ويسعى إلى «تحويل المدارس إلى مراكز من العدالة؛ يتعلم فيها الطلبة القراءة والكتابة وتغيير العالم». www.teachingforchange.org، و٩١٣١ - ٧٦٣ - ٨٠٠.

بناء الشخصية

تُركِّز «شراكة بناء الشخصية» على تحديد وتشجيع الأساليب والممارسات الفعالة لبناء الشخصية الفُضلى، ويقدم موقعها الإلكتروني مصادر مجانية يُمكن تنزيلها. www.character.org، و٨٠٨١ - ٩٨٨ - ٨٠٠.

يُقدم «ديمقراطية يومية»؛ المعروف سابقًا بـ«مركز مصادر الدوائر الدراسية»، برامج «حوار من أجل التغيير» بوسعها أن تساعد الطلبة على التدقيق في العنصرية داخل مدارسهم ومجتمعاتهم، بالإضافة إلى تطوير حلول وتطبيقها. www.everyday-democracy.org، و٢٦١٦ - ٩٢٨ - ٨٦٠.

**عَلاقات تعاونية بين العلماء وتنفيذ القانون**

«**اِئتلاف القيادة الشُّرطية في المساواة**» هو ائتلاف بحثي يعزز المسؤولية والشفافية الشُّرطية، عن طريق تسهيل التعاونات البحثية المبتكرة بين الهيئات المعنية بتنفيذ القانون وعلماء اجتماع من الطراز الأول. http://cple.psych.ucla.edu.

يهدف مشروع «**مراقبة التحيز العنصري**» إلى تكوين شراكات بين علماء النفس الاجتماعي والهيئات المعنية بتنفيذ القانون، لمشاركة المعلومات وتكوين معرفة جديدة عن تأثير التحيز العِرقي في حفظ الأمن. http://waldron.stanford.edu/~policingproject.

**التواصل بين الجماعات المختلفة والتعلم التعاوني**

في نوفمبر من كل عام، يكون «**تعليم التسامح**» مسؤولًا عن رعاية مبادرة «**اختلاط يوم الغداء**»، التي يحظى فيها الطلبة بمقعد جديد في الكافيتريا؛ وفرصة للتعرف إلى شخص جديد. تُظهر الأبحاث أن البرنامج يُساعد الطلبة على أن يكونوا أكثر أريحية في التواصل مع أنواع مختلفة من البشر، وتوطيد الاتحاد المدرسي، وتشجيع الصداقات الجديدة. www.mixitup.org.

تساعد مؤسسة «**النجاح للجميع**» المدارس والمُعلِّمين على تعلم كيفية الاستعانة بإستراتيجيات التعلم التعاوني، لدعم التحصيل الطلابي. www.successforall.net، و٨٠٠ – ٥٤٨ – ٤٩٩٨.

«**قاعة درس الأحجية**» هي تقنية تعلم تعاوني؛ يحفل سجلها

بثلاثة عقود من النجاح في تقليل النزاع العنصري وتعزيز النتائج التعليمية الإيجابية. www.jigsaw.org.

**اختبارات التحيز الشخصي**

يُقدم مشروع «خفيّ» مجموعة متنوعة من الاختبارات المتاحة على الإنترنت، التي تقيس التفضيلات الواعية وغير الواعية؛ بما في ذلك التحيزات العِرقية. بوسع المستخدمين إجراء تلك الاختبارات أو تضمين نتائجهم في دراسات نفسية. https://implicit.harvard.edu/implicit.

**محاكاة إطلاق النار التي استعان بها جوشوا كوريل، عالم النفس** بجامعة شيكاغو، والتي يُتاح فيها ٨٥٠ مِلِّي ثانية أمام المستخدمين لاتخاذ قرار بشأن ما إذا كانوا سيطلقون النار على رجال بيض، وسود من أصول إفريقية؛ يحملون مسدسات أو أشياء غير مؤذية. المحاكاة متاحة على الإنترنت من هنا: http://backhand.uchicago.edu/Center/ ShooterEffect.

**مصادر للآباء والأبناء**

«والد مناهض للعنصرية» هي مدونة ومصدر للآباء الملتزمين بتنشئة الأطفال على أن تكون لديهم نظرة مناهضة للعنصرية. www.antiracist parent.com.

يدافع مشروع «عِرق» عن الأطفال والبالغين أصحاب الأعراق المتعددة، من خلال التعليم والتوعية المجتمعية والتشريعات. ويمنح

مشروع «عِرق» للمراهقين، الشباب متعددي الأعراق، طريقة للدفاع عن أنفسهم. www.project race.com.

المساواة المدرسية

تعمل «مدارس إعادة التفكير»، التي يديرها مدرسو فصول دراسية حاليون وسابقون، على دعم الإصلاح العادل من خلال نظام المدارس الحكومية في الولايات المتحدة. www.rethinkingschools.org، و٩٦٤٦ - ٩٦٤ - ٤١٤.

«مركز البحوث المعنية بالتعليم والتعددية والتفوق» هو برنامج بحثي وتنموي ممول فيدراليًّا؛ يعمل من أجل تحسين تعليم الطلبة الذين تُشكل اللغة والحواجز الثقافية والعِرق والموقع الجغرافي أو الفقر، تحديات أمام قدرتهم على تحقيق مُكناتهم. http://crede.berkeley.edu، و٩٠٢٤ - ٦٤٣ - ٥١٠.



# المساهمون

**ديفيد آموديو:** حاصل على درجة الدكتوراه، ويعمل أستاذًا مساعدًا في قسم علم النفس بجامعة نيويورك، حيث يبحث أدوار الشعور والإدراك الاجتماعي في تنظيم السلوك، والآليات العصبية الكامنة وراء تلك العمليات.

**دوني بليَز:** تُدرِّس اللغة الإنجليزية والكتابة الإبداعية في كلية جينزفيل بجورجيا. وكانت سابقًا تُدرِّس منهج اللغة الإنجليزية الخاص بالمدارس الثانوية في جورجيا ولويزيانا وكولورادو، لأكثر من عشرين عامًا.

**آليسون بريسكو - سميث:** حاصلة على درجة الدكتوراه، وتعمل أستاذة في المعهد العالي لعلم النفس بالمحيط الهادئ. تُركز كلٌّ من أبحاثها وأعمالها السريرية على الأبوة وتطوير الهوية العِرقية.

**جينفر أ. تشاتمان:** حاملة لدرجة الدكتوراه، وحاصلة على لقب بول ج. كورتيزي كأستاذة متميزة في الإدارة بكلية هاس للتجارة، التابعة لجامعة كاليفورنيا في بيركيلي.

**سكوت كولترين:** حاصل على درجة الدكتوراه، ويعمل أستاذ علم نفس بجامعة أوريجون، حيث يشغل منصب عميد كلية الآداب والعلوم. وهو أيضًا مؤلف كتاب «ربُّ الأسرة» (مطابع جامعة أوكسفورد، ١٩٦٦)، وكتاب «النوع والعائلات»؛ بمشاركة ميشيل آدمز وادزورث، (رومان & ليتلفيلد، ٢٠٠٨)، وغيرها من الكتب.

**أليكس ديكسون:** مساعد تحرير في جريتر جود؛ المجلة الصادرة عن مركز جريتر جود العلمي بجامعة كاليفورنيا في بيركيلي.

**إيڤ إيكمان:** حاصلة على ماجستير في العمل الاجتماعي. وبالإضافة إلى كونها اختصاصية اجتماعية مُقيمة في سان فرانسيسكو، فهي أيضًا كاتبة وفنانة ومحررة للمجلة الإلكترونية متعددة التخصصات Ethsix: العمل الاجتماعي، الصحافة، وفنون من المدينة الخفية.

**رونا فِرنانديز:** أمريكية فلبينية من الجيل الثاني، وجامعة تبرعات، وناشطة، وكاتبة مُقيمة في أوكلاند بكاليفورنيا.

**سوزان ت. فيسك:** حاصلة على درجة الدكتوراه، وأستاذة يوجين هيجنز في علم النفس بجامعة برينستون. شاركت، بالتعاون مع شيلي إ. تايلور، في تأليف كتاب «الإدراك الاجتماعي: من المخ إلى الثقافة» (ماكجرو هِل، ٢٠٠٧)، من بين كتب أخرى.

**آنيتا فومان:** حاصلة على درجة الدكتوراه، وتعمل أستاذة في دراسات الاتصال بجامعة ويست تشيستر، حيث تتخصَّص في الاتصالات التنظيمية والعابرة للأعراق.

**جينفر هولاداي:** حاصلة على ماجستير العلوم، والمديرة السابقة لمشروع «تعليم التسامح» في مركز قانون الحاجة الجنوبي.

**كريم جونسون:** حاصل على درجة الدكتوراه، ويعمل أستاذًا مساعدًا في علم النفس بجامعة تِمبل، حيث يدرس العوامل السايكو-فسيولوجية والإدراكية والشعورية، التي ربما تؤثر في الكيفية التي يستقبل بها الأشخاص أفراد الجماعات الأخرى ويستجيبون لها.

**ميريديث ماران:** مؤلفة/ مشاركة في تأليف ثمانية كُتب، من بينها «متسِّخ: بحث عن أجوبة داخل جائحة مخدرات مراهقي أمريكا» (هاربر وان، ٢٠٠٣)، و«الدرس المرفوض: عام في حياة مَدرَسة ثانوية أمريكية، ظرة داخل قلب أُمَّة» (سانت مارتن جريفن، ٢٠٠١). نُشرِت نسخة مختلفة من المساهمة التي شاركت بها في هذه المجموعة، للمرة الأولى، في مجلة «بيرانتِنج».

**جيسون مارش:** رئيس تحرير مجلة جريتر جود. ساعد في تحرير كتاب «غريزة الرحمة» (و. و. نورتون، ٢٠١٠) بالتعاون مع داكر كيلتنر وجيرمي آدم سميث، والمدير التحريري السابق لدورية «المجتمع المُجيب»، ومنتج الفِلم الوثائقي «غير مُتعلِّم»، فضلًا عن أنه كان يعمل مراسلًا في الإذاعة العمومية ومُعِدًّا.

**رودولفو مِندوزا-دينتون:** حاصل على درجة الدكتوراه، وأستاذ مساعد في قسم علم النفس بجامعة كاليفورنيا في بيركيلي، حيث يدرُس التنميط والتحيُّز من وجهة نظر المُستهدَف والمُستقبِل، والعَلاقات بين الجماعات المختلفة، وعلم النفس الثقافي.

**تيري نانس:** حاصلة على درجة الدكتوراه، وأستاذة متخصِّصة في دراسات الاتصال بجامعة فيلانوفا، حيث تشغل منصب مساعدة نائب رئيس شؤون التعددية الثقافية.

**إليزابيث بيدج-جولد:** حاصلة على درجة الدكتوراه، وأستاذة مساعدة في قسم علم النفس بجامعة تورنتو وحاصلة على زمالة ما بعد الدكتوراه من مبادرة العقل/ المخ/ السلوك بجامعة هارفارد، حيث دَرَسَتْ الصداقات بين الجماعات المختلفة، والعلاقات العابرة للجماعات، والتواصل الاجتماعي، والإدراك الاجتماعي، وعلم النفس الفسيولوجي.

**روس د. بارك:** حاصل على درجة الدكتوراه، وأستاذ علم نفس فخري متميِّز، والمدير السابق لمركز دراسات العائلة بجامعة كاليفورنيا في ريفرسايد. وهو أيضًا مؤلف كتاب «أبوة» (مطابع جامعة هارفارد، ١٩٩٦)، و«آباء مُهمَلون» (هوتون مِفلِن، ١٩٩٩) بالتعاون مع آرمين بروت، إلى جانب كتب أخرى عن الأبوة وعلم نفس الأطفال.

**توماس شوفيلد:** حاصل على درجة الدكتوراه، وزميل لمرحلة ما بعد الدكتوراه بجامعة كاليفورنيا في دافيس؛ إذ يدرِّس التدابير العائلية وتنمية الأطفال في سياقات ثقافية مختلفة. نُشِرت أعماله في دوريات (علم النفس التنموي، ودورية السلوكيات غير اللفظية)، فضلًا عن الكتب المُحرَّرة.

**جيرمي آدم سميث:** مؤلف كتاب «مناوبة الأب» (بيكون پرِس،

٢٠٠٩). ساعد في تحرير كتاب «غريزة الرحمة» (و. و. نورتون، ٢٠١٠) بالتعاون مع داكر كيلتنر وجيسون مارش، وهو أيضًا محرر المجلة الإلكترونية Shareable.net. نُشِرت مقالاته وموضوعاته التي تتناول الأبوة والحياة الحضرية والعِرق والسياسة والتكنولوجيا، في «ذا نايشن» و«سان فرانسيسكو كرونيكال» و«سان فرانسيسكو باي جارديان» و«آتني ريدر» و«وايرد» والعديد من المجموعات والمطبوعات الدورية الأخرى. كذلك، يعمل سميث محررًا مساهمًا في مجلة جريتر جود التي كان كبير المحررين فيها سابقًا.

**ديزموند توتو**: حائز على جائزة نوبل للسلام في العام ١٩٨٤. بعد تقاعده من منصبه ككبير أساقفة كيب تاون بجنوب إفريقيا في العام ١٩٩٦، تولَّى توتو رئاسة لجنة الحقيقة والمصالحة في البلاد. مساهمته في الكتاب مستوحاة من كتاب «للرَّبِّ حُلم» (دابِلداي) الصادر في عام ٢٠٠٤، ونُشِرت في مجلة جريتر جود بعددها الصادر في خريف ٢٠٠٤.



**ربيكا ووكر**: مؤلفة ومحرِّرة ومتحدِّثة ومُدرِّسة. حقَّقت أولى مُذكِّراتها «سوداء وبيضاء ويهودية: سيرة ذاتية عن نفسٍ متبدِّلة» (ريفيرهيد، ٢٠٠١) أفضل مبيعات على مستوى الدولة، وحازت على جائزة أليكس من جميعة المكتبات الأمريكية. قامت أيضًا بتأليف كتاب «حبُّ الأطفال: اختيار الأمومة بعد عمر من ازدواجية المشاعر» (ريفيرهيد، ٢٠٠٧)، فضلًا عن تحريرها مجموعة «عائلة كبيرة سعيدة» (ريفيرهيد، ٢٠٠٩).

يجمع "هل نولد عنصريين؟" بين الكُتَّاب والعلماء من أجل مساعدتنا على فهم العلم الناشئ المعني بالتحيّزات العنصرية، إذ تتضمن هذه الدراسات نتائج توصّل إليها علم الأعصاب، وتكشف عن الآليات الدماغية وراء ردود أفعالنا تجاه الأشخاص المنتمين إلى أعراق مختلفة، فضلًا عما خلص إليه علم النفس الإيجابي من نتائج تبرز دوافعنا المتساوية في قوتها وراء التعاطف والشفقة والعدالة. وعلى الرغم من أن هذه المسارات البحثية ربما تبدو غير متوافقة في بداية الأمر، فإن نظرةً فاحصة تكشف عن وجود تأثير متبادل ومتشابك ومدهش بين التعصّب ومبدأ المساواة. وهو ما يمنحنا سببًا لاستكمال المعركة ضد العنصرية. لقد خلص علم الأعصاب إلى أن التحيزات العنصرية متجذّرة في مناطق دماغية كانت قد نشأت في وقت مبكر من مراحل تطور الإنسان، وأن هذا لا يزال يتحكّم في غرائزنا إلى اليوم. بيد أن الدراسة قد توصلت أيضًا إلى أن أدمغتنا مصممة لتكون مرنة وقابلة للتغير والتعلم، وأن قشرة الدماغ ــ والتي تطورت تطورًا كبيرًا حديثًا ــ تعمل على تنظيم دوافعنا التلقائية، وتساعدنا على تحقيق أهدافنا بما فيها هدف التعامل بإنصاف مع الأشخاص المختلفين عنا.

************

أفكارٌ ثورية، واحدة تلو الأخرى، نجدها في هذا الكتاب المُتاح على نطاق واسع، إذ إن أقل ما يُقدِّمه الكتاب هو تغيرٌ نموذجي في الطريقة التي نُفكر بها في كل شيء؛ بدايةً من الكيفية التي يؤثر بها التحيز على حياتنا، وانتهاءً بكيفية استخدام القوانين والممارسات المؤسسية لتقليل آثاره السلبية. ويقوم الكتاب بجميع هذا بطريقة موجزة أتمنى أن تكفل له أكثر ما يستحق: أن يُقرأ على نطاق واسع.

كلود م. ستيل، عالم نفس أمريكي وأستاذ فخري في جامعة ستانفورد



**هل نولد عنصريين؟**







www.takweeen.com | Publishing@takweeen.com